نوقشت هذه الرسالة بتاريخ ٨ جمادي الأول ١٤١٣هـ ٣ / ١١ / ١٩٩٢م وأجيزت

أعضاء لجنة المناقشة

الأستاذ الدكتور نصرت عبد الرحمن مشرفاً

الأستاذ الدكتور هاشم ياغي عضواً

الأستاذ الدكتور حسين عطوان عضواً

إهـــداء

إلى روح والدي

وإلى والدتـــي

وأخي أبي جعفـــر

وإخوتي جميعـــاً

وإلـى مَنْ قَدَّمَ لـي عـــوناً

المحتـــوى

الموضوع	الصفحة
المقدمـــة	٤
الفصـــل الأول : مفهوم القوم في معاجم اللغة والشعر الجاهلي	٦
مفهوم القوم في معاجم اللغة	٧
مفهوم القوم في الشعر الجاهلي	١٠
القوم : الرجال	١٠
القوم : القبيلة	١٣
القوم : الأعيان	٢٠
القوم : المحاربون	٢٣
أولاً : محاربو القبيلة	٢٣
ثانياً : المحاربون الأعداء	٢٨
القوم : الصحب	٣٣
القوم : الجنس	٣٥
القوم : دلالة خاصة	٣٨
موازنة بين مفهوم القوم في معاجم اللغة والشعر الجاهلي	٤١
الفصـــل الثاني : الفُرس في الشعر الجاهلي	٤٤
عوامل الاتصال بين العرب والفرس	٤٥
أسماء الفُرس في الشعر الجاهلي	٤٩
الفُرس	٤٩
العجم	٤٩
بنو الأحرار	٥٠
ديانة الفُرس في الشعر الجاهلي	٥٣
ملوك الفُرس في الشعر الجاهلي	٥٥
علامات الملك : التاج	٥٥
المال	٥٦
صراعهم مع الموت	٥٧
عادة القتل	٥٨
أعيان الفُرس في الشعر الجاهلي	٥٩
المرزُبَان	٥٩
العزيز	٦٠
أيام العرب مع الفرس في الشعر الجاهلي	٦١

بين الحضر والفُرس ٦١
بين إياد والفُرس ٦٤
بين شيبان والفُرس ٦٧
الصناعات الفارسية في الشعر الجاهلي ٧١
الأسلحة ٧١
الألبسة ٧٣
الحُليُّ ٧٣
آلآت الموسيقى ٧٥
الخمر ٧٥
الصحائف ٧٦
الفصل الثالث : الرومُ والأنباط في الشعر الجاهلي ٧٨
أولاً : الروم في الشعر الجاهلي ٧٩
عوامل الاتصال بين العرب والروم ٧٩
ملوك الروم في الشعر الجاهلي ٨٣
القياصرة ٨٣
بنو الأصفر ٨٤
مظاهر من الحضارة الرومية ٨٦
الصناعات ٨٦
فن العمارة ٨٨
الروم في شعر امرىء القيس ٩٠
ثانياً : النبط في الشعر الجاهلي ٩٤
نسب النبط ٩٤
النبط زُرّاعاً ٩٥
النبط تجاراً ٩٧
النبط وفنُّ العمارة ٩٧
الفصل الرابع : الأحباش في الشعر الجاهلي ٩٩
عوامل الاتصال بين العرب والأحباش ١٠٠
لون الأحباش ١٠٣
الأحباش عبيداً ١٠٧
ما شُبِّه به الأحباش ١٠٩
الزُّقاق ١٠٩
الظلمان ١١٠
الجنُّ ١١٢
سلاح الأحباش ١١٢
صورة الحبشيات ١١٥

حملة أبرهة وأصداؤها في الشعر الجاهلي ١١٦
الفصل الخامس : الهنود في الشعر الجاهلي ١٢٧
عوامل الاتصال بين العرب والهنود ١٢٨
صورة الهنود ١٣٠
وسائل نقل التجارة الهندية ١٣٣
الصناعات الهندية ١٣٥
الطيوب والتوابل ١٣٥
السيوف ١٣٦
الرماح ١٣٩
الفصل السادس : آثار فارسية في شعر الأعشى ١٤١
أخبار الأكاسرة ١٤٣
علاقة الفرس ببكر وسادتها ١٤٤
علاقة الفرس بالمناذرة ١٤٧
مجالس الشراب ١٤٩
ساقي الخمرة ١٤٩
الخمار ١٥٠
الآلآت الموسيقية ١٥١
من الرياحين ١٥١
بيان إحصائي للألفاظ الفارسية في شعر الأعشى ١٥٢
الخاتمة ١٥٥
المصادر والمراجع ١٥٩
المراجع الإنجليزية ١٨٩
الملخص باللغة الإنجليزية ١٩٠

ملخص الرسالة

بيّنت الدراسةُ أنّ مفهومَ القومِ في معاجمِ اللغةِ يُطلقُ على الرجالِ دونَ النساءِ، ويطلقُ أيضاً على الرجالِ والنساءِ معاً، وكان ثمةَ رأيٌ لأبي علي القالي يذهبُ فيهِ إلى أنّ القوم تطلقُ على الأجناسِ كالعربِ والروم والهندِ والزّنج أو نحوٍ من ذلك ، وحينما وقفتُ على مفهومِ القومِ في الشّعرِ الجاهليِّ وجدتُ أنّ دلالاتِ القومِ فيهِ تطلقُ على الرّجالِ عامةً، ورجالِ القبيلةِ خاصةً، والأعيانِ ، والصحب ، والجنسِ ، و الحيوانِ وسميتُ هذهِ الدلالةَ دلالةً خاصةً ،ورأتِ الدراسةُ أنّ دلالةَ القومِ على الرجالِ والنساءِ جاءتْ مُتّفِقَةً والتطورَ التاريخيَّ واللغويَّ للألفاظِ فهذهِ الدلالةُ مِنَ المعاني التي وردتْ في القرآن الكريمِ، فلم نجدْ شاهداً واحداً من الشعرِ الجاهليِّ يطلقُ مفهومَ القومِ على الرجالِ والنساءِ معاً .

وأكدَتِ الدراسةُ أنّ أسماءَ الفرسِ والعَجَمِ وبني الأحرارِ هي أسماء أطلقها الشعرُ الجاهليُّ على الفرسِ ، وكان لاتصالِ العربِ بالفرسِ أثرٌ في انتشارِ المجوسيّةِ ديانةِ الفرسِ في بلادِ العربِ، ومنْ مظاهرِ هذهِ الديانةِ عبادةُ النّارِ ، والصلاةُ إليها ، ويبينُ لنا الشعرُ الجاهليُّ أن نارَ المجوسِ كانتْ عظيمةً تستعرُ استعاراً.

وأظهرتِ الدراسةُ أنّ ملوكَ الفرسِ وهم الأكاسرةُ كانوا يحرصونَ على لبسِ التّاجِ وامتلاكِ الأموالِ، ومن العاداتِ التي نلمسُها في البلاطِ الكسرويِّ قتلُ الملوكِ الذي ينفذهُ أبناؤهُم ليتولّى أحدُهم الملك، وأكدَتِ الدراسة أنّ صراعَ الأكاسرةِ مع الموتِ ومن ثمّ انهزامهم أمامَهُ كانَ وسيلةً لجأ إليها الشعراءُ كي يتعظَ الإنسانُ ويؤمنَ بقدريّةِ الموتِ وغلبته.

وكانت صورةُ المرزُبانِ الفارسيِّ في الشعرِ الجاهليِّ قائداً خرج لتوّه من المعركة، ويُعَدُّ العزيزُ الفارسيُّ من أشرافِ الفرسِ ، وتدلُّ صورتُه على الرفعةِ وهو رجلٌ موسر يبني القُصُورَ المعلّقةَ.

واشتهرَ الفرسُ بالصناعاتِ المختلفة ، ومنها صناعةُ الأسلحةِ ، والألبسةِ ، والحليِّ ، وآلاتِ الموسيقى ، والخمرِ والصحائفِ ، وامتازتْ هذهِ الصناعاتُ بالجودةِ ، فكانتْ غاليةَ الثمن.

وكلُّ ملكٍ من ملوكِ الروم يُلقّبُ بقيصرَ ، وكان لقيصرَ في ذاكرةِ العربِ مكانةٌ ساميةٌ ، وإذا ذَهبَ بعضُ المعجميين والمؤرخينَ إلى أنّ اسمَ بني الأصفر يطلقُ على الروم جميعاً فإنّ ما وصل إلينا مِنْ شعرٍ يطلق هذا الأسمَ على ملوكِ الروم ، ومن مظاهرالحضارة الرومانية، الصّناعاتُ ومنها صناعةُ التّرسَةِ ، والمبارد ، والأقفال، ومن المظاهرِ أيضاً فنُّ العمارةِ الذي تفوقوا بهِ على الأقوام الأخرى .

وفي الحديث عن الأنباط كشفتِ الدراسةُ عن نسبِهم وموطنِهم ، وهم في النسبِ غيرُ الأنباط العرب

الذين سكنوا (بترا)، ورأتِ الدراسةُ أنَّ الأنباطَ كانوا يهتمون بالزراعةِ فأقاموا السدودَ والروافدَ كي يخزنوا المياهَ ويروُوا مزارعهَم بواسطة السواقي، ينضافُ إلى ذلك اهتمامُهم بالتجارةِ والعمارةِ.

وبينت الدراسةُ علاقاتِ العرب مع الأحباش فكانتْ وثيقةً، وجلبَ لونُ الأحباشِ الأسودُ الازدراءَ والقِلى مِنْ قبَلِ العربِ فاتخذهم سادةُ العربِ عبيداً يوكلون إليهم أقْسى الأعْمالِ.

ومن صورِ الأحباشِ تشبيهُ زقاقِ الخمرِ والظلمانِ والجنِّ بهم ، وامتاز الأحباش بالدقَّةِ والخفةِ ولهذا اتقنوا فنَّ التسديد بالحرابِ، وصورةُ الحبشياتِ توحي بأوصافٍ لا تتفقُ ومظاهرَ الجمالِ التي ينشدُها العربيُّ ، فكان وجهُ المرأةِ الحبشية أسودَ ليس فيه من البياض إلا أسنانُها ، وشعرها كحَبِّ الفُلفُلِ ، وساقها كساقِ النعامةِ .

ومن صفاتِ الهنودِ القوةُ ، والبأسُ ، وخفةُ الجسمِ ، وضعفُ البنيةِ الجسميةِ ، والمشي حفاةً ، ولهذا امتازوا بالسحر ، والشعوذة ، والغوص.

ومن صناعاتِ الهندِ المشهورةِ عند العرب، الطيوبُ كالقُسْطِ ، والرَّندِ، والمسكِ ، والبانِ ، والألوي ، واللبنى والكباءِ ، والعَرفِ الهندي، ومن صناعاتهم كذلك التوابل ، وأكدتِ الدراسةُ أنَّ أشهرَ صناعاتِ الهندِ السيوفُ، وهي من أجودِ السيوفِ ، وقد أكثر الشعراءُ من وصفِها ، وإلى جانبِ السيوفِ كانت الرِّماحُ بيد أن ذكرَ الرِّماح ووصفها كان قليلاً .

ونلمسُ في شعرِ الأعشى آثاراً فارسيةً لا نجدُها عندَ غيرهِ من شعراءِ الجاهليةِ ، ومن تلك الآثار أخبارُ الأكاسرةِ ، وعلاقة الفرس ببكر وأثر الفرس في المناذرة، ومنَ المشاهدِ التي ينقلها الأعْشى عن الحضارةِ الفارسية وصفُ مجالسِ الشراب ، فصوَّر السَّاقي والخمَّارَ الفارسيين ، وآلات الموسيقى وطائفةً من الرياحينَ وسمَّاها باسمائها الفارسيةِ ، وأكدتِ الدراسةُ أنَّ الأعشى امتازَ عن غيرهِ مِنْ شعراءِ الجاهليةِ بكثرةِ الألفاظ الفارسيةِ في شعرهِ التي تصل إلى ستٍ وستين كلمةً فارسيةً .

المقدمة

الحمدُ للهِ والصَّلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ وبَعْدُ :

هذا البحثُ يتناولُ بالدراسةِ والتحليلِ الأقوامَ غَيْرَ العربية في الشعر الجاهليِّ ، وجاءتْ هذه الدراسةُ لما للموضوع من قيمةٍ علميةٍ وأدبيةٍ ، ولأنّه لم تنفردْ دراسةٌ متخصصةٌ به مِنْ قبلُ ، فغموضُ مفهومِ القومِ في معاجم اللغةِ واضطرابُ المعجميين في تحديد معانيهِ أمرٌ وقفت عليهِ هذهِ الدراسةُ ومن ثمَّ كشفتْ عن معانيهِ في الشعرالجاهلي ، كما أنّ صورةَ الأقوام غير العربيةِ في التآليفِ التاريخيةِ تبدو جَلِيَّةً لكنَّها في الشعرِ الجاهليِّ تحتاجُ إلى تجليةٍ وبيانٍ، ولهذا قامتِ الدراسةُ لتكشف عن صورتهم ومظاهرِحضارتِهم وحياتِهم في الشعر الجاهليِّ .

لعلَّ من أصعبِ الأمورِ وأشدِّها عسراً أن يحاولَ المرءُ رسمَ صورةٍ صادقةٍ وواضحةٍ وموجزةٍ في آنٍ واحدٍ لقوم من الأقوام وهذا ما سعتْ إليه هذهِ الدراسة معتمدة في ذلك الشعرَ الجاهليَّ وجُلُّ ما عثرتُ عليه من شعر كان أبياتاً متفرقةً وإشاراتٍ متناثرةً لكنَّها تبقى أصدقَ مصدرٍ لدراسةِ حياةِ أولئك الأقوامِ.

وعدتُ إلى كثيرٍ من المصادرِ مثلِ كتبِ المعجماتِ ، ودواوينِ الشعرِ الجاهليِّ، وكتبِ الحماساتِ، والمختاراتِ ، وكتبِ البلدانِ ، وانتفعت أيضاً بالدراساتِ الأدبيةِ والتاريخيةِ الحديثةِ.

بنيتُ هذه الدراسةَ على ستةِ فصولٍ متكاملةٍ مترابطةٍ ، ففي الفصل الأول وقفت على تحديدِ مفهومِ القومِ ومعناه في معاجم اللغةِ والشعرِ الجاهليِّ، وعقدتُ موازنةً بين مفهومِ القومِ في معاجمِ اللغةِ والشعرِ الجاهليِّ .

وتناولتُ في الفصلِ الثاني الفرسَ في الشعر الجاهليِّ، فدرستُ فيه عواملَ الاتصالِ بين العرب والفرس، وأسماءَ الفرس ، وديانتَهم ، وصورةَ ملوكِهم وأعيانِهم ، وأيامَ العربِ مع الفرس ، والصناعاتِ الفارسيةَ .

ودرستُ في الفصلِ الثالث الرومَ والأنباطَ في الشعرِ الجاهليِّ، وقسمت هذا الفصلَ إلى قسمينِ ، القسم الأول وقفتُ فيه على الرومِ في الشعرِ الجاهليِّ، فعرضت فيه لعواملِ الاتصال بين العربِ والرومِ ، وصورةِ ملوكِهم ، ومظاهرِ الحضارةِ الرومانيةِ التي تمثلتْ في الصناعاتِ، وفنِ العمارة، ووقفتُ في هذا القسم على ما نُسِبَ لامرئ القيس من شعر أثناء رحلته المختلقةِ إلى بلادِ الرومِ.أمّا القسمُ الثاني فبيَّنتُ فيه نسبَ الأنباطِ وصورتَهم زُرّاعاً ، وتجّاراً ، واهتمامهم بفنِ العمارةِ .

وفي الفصل الرابع درستُ الأحباشَ في الشعرِ الجاهليِّ، فبينتُ عواملَ الاتصالِ بينَ العربِ والأحباشِ، وعرضتُ فيه للونِهم واتخاذهم عبيداً، وما شبِّهوا به ، وسلاحِهم وصورةِ الحبشياتِ، ووقفتُ على حملةِ أبرهةَ على الكعبةِ وأصدائِها في الشعرِ الجاهليِّ.

وفي الفصلِ الخامسِ درستُ الهنودَ في الشعر الجاهلي، فوقفتُ على عواملِ الاتصالِ بينهم وبين العربِ وصورةِ الهنودِ ، ووسائلِ نقلِ التجارةِ الهنديةِ إلى بلادِ العرب، وضروبِ الصناعاتِ الهنديةِ.

أمّا الفصلُ السادسُ فيدرسُ الآثارَ الفارسيةَ في شعر الأعشى باعتباره الشاعرَ الوحيدَ الذي نجد في شعرهِ ما لانجده عند غيره من شعراءِ الجاهليةِ من آثارِ لقوم من الأقوام غير العربية، ومن تلك الآثار الفارسيةِ أخبارُ الأكاسرةِ ، وعلاقاتُ الفرسِ ببكرٍ وسادتها والمناذرةِ ، وصورةُ الساقي والخمّارِ الفارسيين ، وآلات الموسيقى الفارسية وبعض الرياحين ، وختمتُ هذا الفصلَ ببيانٍ إحصائي للألفاظ الفارسيةِ في شعرِ الأعشى، ثم كانت الخاتمةُ وفيها عرضتُ لنتائج الدراسة.

أمّا أستاذيَ الدكتورُ نصرت عبد الرحمن فله الشكرُ الصّادقُ ، والتقديرُ الكبيرُ كِفَاءَ ما حباني به من رعايةٍ وتشجيع وتوجيهٍ ، وبصّرَني بما لم أكنْ لأصلَ إليه لولا غزيرُ علمهِ وسديدُ رأيهِ.

كما أتقدمُ بخالصِ شكري لأستاذيّ ، الأستاذ الدكتور هاشم ياغي والأستاذ الدكتور حسين عطوان اللذين انتفعتُ بعلمِها ، ولما بذلاهُ من وقت في قراءةِ هذهِ الدراسةِ ومناقشتِها .

وللوفاء لا يفوتني أن أتقدمَ بالشكر إلى أساتذتي في قسمِ اللغةِ العربيةِ وآدابها لما لهم عليَّ من فضلٍ عظيم، وتقديرٍ صادقٍ.

وبعدُ :

فأرجو أن أكونَ قدمتُ في هذه الدراسةِ بعضَ ما أصبو إليه مِنْ خدمةٍ للغتنا وتراثنا ، فإنْ أصبتُ فمن اللهِ ، وإنْ أخطأتُ فمن نفسي ، واللهَ أسألُ أنْ يلهِمَنَا الصوابَ والرُّشادَ .

الفَصْلُ الأوّلُ

مفهومُ القومِ
في معاجمِ اللغةِ والشعرِ الجاهليِّ

١

مَفْهُومُ القوم في معاجمِ اللُّغةِ

إنّ مُصْطَلَحَ القوْمِ مِنَ المصطلحات الّتي تمتدُ جذورُها إلى عمقِ التّاريخ الأدَبي ، وتَسِيْرُ مع الزمن منذ العصر الجاهلي وَهُوَ مفهوم قد يوحي بالاضطراب وَ عدم الاستقرار على معنى محددٍ جَليٍّ ، ولعلَّ تحديدَ السياقِ الشعرِي ، ومِنْ ثمَّ قراءته قراءةً مُرَكزَة يُساعِدُ في كشفِ ذلك الاضطراب ، وتحديدِ هذا المفهوم وَفْقاً للرؤيةِ الشعريةِ في إطار العصر الأدَبيِّ ، ولا يتأتى ذلك إلاّ باستقْراءِ المعاجم اللُّغويةِ ، والوقوفِ على آراءِ أصحابِها أوّلاً ، لأنّ هذه المعاجمَ تمثّلُ أطْواراً في التّاريخ اللُّغوي تَعاوَرَتْها عقولٌ مَنْهَجيّةٌ تستَقِي من عصور الاحْتِجاج [1] مادّتَها ، ولهذا يُنتَظرُ مِنْهَا أنْ تُضيفَ جديداً للمَادة اللُّغوية.

أمّا السبيلُ الآخرُ لتحديدِ مَفْهومِ القوم فهو استقراءُ هذا المفهوم في الشعرِ الجاهليِّ لأنّه مِنْ أخْصَبِ المصادر الّتي شكّلَتِ المَنْظُوْمَةَ اللُّغويةَ ، فكان هذا الشعرُ ديوانَ العربِ في ذلك العصرِ ، وسِجلُّ أخبارهم ووقائعهم ، وسِفْرَتاريخهم وأيّامِهم وحجةَ اللغويين في الألفاظ ومعانيها ، ولأنه من جَانبٍ آخَرَ محورُ هذهِ الدراسةِ واهْتِمَامها.

أما لفظ القوم في معاجم اللغة فهو يحتاجُ إلى تجلية؛ فقد ذهب بعضُ المعْجَمِيّين إلى أنّ القوْمَ في اللُّغةِ:

« الرِّجالُ دونَ النِّساءِ [2]» واستشهَدَ أصحَابُ هذا الرأي بثلاثةِ شواهدَ أحدُها من القرآن وهو قولُه تعالى :«يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسى أنْ يكونُوا خَيْراً مِنْهُمْ ولا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاء عَسَى أنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ »[3] ، والشاهد الثاني : قولُ زُهَيْرِ بن أبي سُلْمَى [4] :

وَمَا أدْرِيْ وَسَوْفَ إخالُ أدْرِيْ أقَــوْمٌ آلُ حِصْنٍ أمْ نســـــاءُ

أمّا الشّاهد الثالث فهو قولُ الرّسولِ عليه السّلام :« إنْ نسّاني الشّيطانُ شَيْئا مِنْ صَلاتي فَلْيُسَبِّح القَوْمُ وليُصَفِّقِ النِّسَاءُ»[5].

---

(١) عصور الاحتجاج : هي العصور التي كان فيها اللسانُ العربيُّ سليما لم يصبْهُ بعدُ تبلبلٌ أعْجَمِيٌّ ولا انحراف عن أوضاع اللغة الفصحى ، ولذلك لم يأخذوا إلا عن عرب الجاهليةِ والإسلام إلى نهايةِ القرنِ الثاني الهجري بالنسبةِ إلى فُصحاءِ الحضر والى أواسطِ القرن الرابع بالنسبةِ إلى فصحاءِ البادية . أنظر: د. علي عبد الواحد وافي ، فقه اللّغة ، ص ١٧٢ ، ص١٩٩.

(٢) الخليل بن أحمد ، كتاب العين ، قوم. الجوهري، الصحاح، قوم. ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ،قوم. ابن منظور ، لسان العرب ، قوم. الفيروز آبادي ، القاموس المحيط، قوم. الزّبيدي ، تاج العروس ، قوم.

(٣) سورة الحجرات ، آية ١٠ .

(٤) شرح ديوان زهير ، ص٧٣.

(٥) لسان العرب، قوم . تاج العروس،قوم .

كما يذهبُ قِسْمٌ من هؤلاء المعجميين وغيرهم إلى أنّ القومَ :«اسم للرِّجال والنِّساء جميعاً »[١] ويستشهدُ هؤلاءِ بما وردَ من آياتٍ في القرآن الكريم تدلُّ فيها لفظة القوم على الرِّجال والنساءِ مَعًا ، ولكثرة ورود هذه الدلالة في القرآن لايذكر هؤلاء المعجميون تلك الآياتِ بل يكتفون بقولهم : قوم فرعون وقوم نوح وقوم عاد ، فالدلالة واضحة لأن قَوْمَ كل نبيٍّ تجمعُ الرِّجالَ والنساءَ ، ويرى أصحاب المذهب الأول وهم القائلون بمعنى الرِّجال دون النساء ، «أن النساءَ تدخلُ في القوم على سبيل التبع ومن ذلك ما جاء في التنزيل كقوم فرعون أو قوم نوح أو قوم عاد»[٢].

ووردَ في المخصَّص أنّ آبا عُبَيْدٍ عَرَّفَ القَبِيْل بأنّه : « الجماعةُ يكونون من الثلاثةِ فَصَاعداً من قومٍ شتّى وجمعُهُ قُبَل ، والقبيلة بنو أبٍ واحدٍ ، قال أبُوْ عليٍّ : معنى قولِه مِنْ قَوْمٍ شتّى يريد كالزِّنج والروم والعرب والهِنْدِ أو نحو من ذلك »[٣] فرأي أبيْ علي القالي مِنْ أوّل الآراء التي ذهبت إلى أنّ القوم قد يكونون زِنجاً أو رُوْماً أو عرباً أو هنوداً ، فخرج بتأويله هذا عن المألوف من آراء المعجميين ، وإنْ كان لم يستشهد بشيءٍ من فن القولِ العربي لصحة رأيه .

إن لفظ القوم من الألفاظ اللغوية التي تشعّبَ الاشتقاق من جذرِها الثلاثي (ق و م) إلى حَدٍّ يغري بتتبّع اشتقاقاتها واقتفاء آثارها في معاجم اللغةِ ، مما يقود إلى مُطْمئنٍّ من الأرض أغذَّ عليه الخطى لأصِلَ إلى مَعنى يجمعُ شتاتها . «فالقيام : نقيض الجلوس ، قامَ يقومُ قَوْماً وقياماً وقَوْمة وقامةً : انتصب »[٤] ومعنى القيام : العزْم[٥] كقول النابغة الذّبياني [٦] :

نُبِئتُ حِصْناً وخَيّا مِنْ بَني أسَدٍ قَامُوْا فَقَالُوا : حِمانَا غَيْرُ مَقْرُوْبِ

ومعنى (قاموا) في البيت (عزموا) ، وقد يجيءُ القيام بمعنى المحافظة والإصلاح[٧] ، ومنه قولُه تعالى: «الرِّجَال قوَّامُوْنَ على النِّساء»[٨] ويجيءُ القيام بمعنى الوقوفِ والثبات ، وقام عِنْدَهم الحقُّ أي ثبت ولم يبرحْ[٩]، وقاوْمتُه قِواماً قمتُ معه[١٠] والقَوْمَة : ما بين الركعتين [١١] ، والمُقام والمُقامة : الموضع الذي تقيم

(١) ابن دريد ،جمهرة اللغة ، قوم .اللسان ، قوم . القاموس ، قوم . تاج العروس ، قوم .

(٢) كتاب العين ، قوم . الصحاح ، قوم .

(٣) ابن سيدة ،المخصص، ١ :١١٩.

(٤) الصحاح ، قوم . اللسان ، قوم . القاموس المحيط ،قوم.

(٥) معجم مقاييس اللغة ، قوم. تاج العروس ، قوم . اللسان ، قوم .

(٦) الديوان ، ص٨٩.

(٧) تاج العروس ، قوم . اللسان، قوم .

(٨) سورة النساء ، آية ٣٤ .

(٩) تاج العروس ، قوم . اللسان ، قوم . الزمخشري ، أساس البلاغة ، قوم.

(١٠) اللسان ، قوم . القاموس المحيط ، قوم .

(١١) كتاب العين. اللسان . القاموس.

فيه ، والـمُقامة المجلس والجماعة من الناس[١] وأقَامَ الشيءَ : أدامه[٢]، والاسْتقامَة اعتدالُ الشيءِ واستواؤه[٣] وقَوَّمَ دَرْأه: أزال عَوَجَهُ [٤] ورجل قَويْمٌ وقَوّامٌ: حسن القامة[٥]، والقوم القصدُ [٦]، وتقاوَمُوا في الحرب أي قام بعضُهم لبعض [٧]، وقَوام الأمْر : نظامُهُ[٨] ، وقائم السيف مقبضهُ [٩] والمِقْوَمُ: الخشبة التي يمسكُها الحرّاث[١٠] والقيِّم : السيدُ وسائسُ الأمر ، وقيِّمُ المرأةِ : زوجُها وقام الأميرُ على الرعيّةِ وليها [١١]، قال الشَّمّاخُ [١٢]:

يَظلُّ بِصَحْراءِ البسيطةِ قائماً علـيهِ قِيامَ الفارِسِيِّ الـمُتَوِّجِ

والقَوام من العيشِ ما يُقيمُك[١٣]، وقام الماء جَمُدَ [١٤] وبعد أنْ أتيتُ على جُلِّ اشتقاقاتِ لفظ (القوم) وما ورد من شرح لمعانيها في اللُّغة ألفيتُني استروحُ إلى رَدِّ هذه الفروع إلى أصلٍ جامع ، ومعنى واحدٍ هو: القوّةوالعزم، وهو معنى لا يفلت من عِقاله ما ذُكِرَ في المعاجم من تراكيب مشتقةٍ من الجذر اللغوي لـ (ق و م) وإن اختلفتْ في الصيغ والمباني، فتفحّصُ معاني هذهِ المشتقاتِ وربطُها بمعنى القوةِ والعزمِ يسوِّغُ هذا الرأيَ.

ومما يعضدُ هذا التأويلَ ما ذكرَهُ بعضُ المعجميينَ، من أنّ مفهومَ القوم يُقْصَدُ به الرجالُ دون النساء وتدخل فيه النساءُ على التبعية ، والرجال أكثرُ قوّةً وأشدُّ عزماً من النساء ففي قولهِ تعالى : «الرِّجالُ قَوّامُونَ عَلَى النِّساءِ بِما فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ على بَعْض وبِما انْفَقُوا مِنْ أمْوالِهِمْ »[١٥] يقولُ الزَّمخْشَرِيُ : « (قوّامونَ على النساءِ) يقومون عليهنّ آمِرِينَ ناهِينَ كما يقومُ الولاةُ على الرَّعايَا ، وسُمُّوا قوماً لذلك »[١٦].

ولعلَّ العربَ أحَسُّوا بضعف المرأة أمام الرّجل ، فحاولوا إنصافَها لتشعرَ بالمساواةِ مع الرجل وليذهب شعورُها بالضعف فمما جاء من أمْثالِهم « إن النِّسَاءَ شقائقُ الأقْوَامِ»[١٧] فدِلالةُ الأقوام في هذا المثال هي الرجال، ومما يسندُ ما ذهبتُ إليه من أن لفظ القوم يَعْني القوة والعزم – أنّ هذا اللفظ يرد في الشعر الجاهلي ليدل على معنى القوةِ والعزم وسنرى من خِلالِ دراسةِ مفهوم القوم في الشعر الجاهلي، وإيراد لفظ القوم في السياق الشعري مدى تلك الدلالة .

(١) تاج العروس. اللسان . أساس البلاغة .
(٢) الصحاح. اللسان . القاموس .
(٣) اللسان . القاموس .
(٤) التاج . معجم مقاييس اللغة .
(٥) اللسان . القاموس .
(٦) اللسان.
(٧) الصحاح . اللسان.
(٨) الصحاح. معجم مقاييس اللغة . لسان العرب .
(٩) الصحاح. اللسان . القاموس . أساس البلاغة .
(١٠) جمهرة اللغة . الصحاح. اللسان.
(١١) اللسان . القاموس . أساس البلاغة .
(١٢) الديوان ، ص٩٤.
(١٣) اللسان . القاموس.
(١٤) الصحاح . القاموس.
(١٥) سورة النساء ، آية ٣٤.
(١٦) انظر الكشاف ، ١: ٥٠٥، ويرى التبريزي الرأي نفسه فيقول في تعليل تسمية الرجال بالقوم:«لأن الرجال هم الذين يقومون بالأمر » شرح ديوان الحماسة ٣: ١٣٠ .
(١٧) الميداني ، مجمع الأمثال ، ١: ٤٨

٢

مفهوم القوم في الشعر الجاهلي

لعل كلمة القوم من أكثرِ الكلماتِ وروداً في الشِّعْرِ الجاهلي ، وهذه الكثرة تسوِّغ أن يدرس هذا اللفظ لبيان ما يحمل من دلالاتٍ وتحديدِ مايعني من معانٍ ومقاصِدَ ، وهذه أهمُّ دلالاتِ القوم في الشعرِ الجاهليِّ :

أ. القوم : الرجال

إن من أشهر الأبيات الشعرية التي كررها المعجميون قولَ زهير بن أبي سُلْمَى :

وَمَا أدْرِي وَسَوْفَ إخـــالُ أدْري ... أقـــومٌ آلُ حِصْنٍ أمْ نِسَـــــاءُ [1]

ففي هذا البيتِ نلحظُ معنىً واضحاً للقوم ، وهو الرجالُ دون النساء ، ولا ندري لماذا وقف المعجميون وأهلُ اللغة عند هذا البيتِ دون سواه ، فثمة أشعارٌ أخرى يُلحَظُ فيها إفادة المعنى نَفْسِهِ ؛ فمن ذلك : قول معاوية بن مالك السُّلمي [2] :

لمـــا رأيْتُ نِسَاءَ قـــومي حُسَّراً ... وتَرَتْ إليَّ النفـــسُ غَيرَ مُـــزاحِ

ويقول الأفْوَهُ الأودي[3] :

نُقَاتِلُ أقواماً فَنسبيْ نساءَهُمْ ... ولم يَرَ ذُو عِزٍّ لِنسْوَتنا حَجْلا [4]

نَقُودُ وَنَأبى أنْ نُقادَ ولانرى ... لِقَوْمٍ عَلَيْنَا في مكارمِهِمْ فَضْلا

وإنّا بِطاءُ الـمَشْيِ عندَ نسائِنا ... كَمَا قَيَّدَتْ بالصَّيْفِ نجدِيَّةٌ بُزْلا

فالأقوام في البيتِ الأول هم الرجال المقاتلون ، وقد فرق الشاعر بين أولئك القوم ونسائهم اللواتي يُسبَيْن، أمّا قوم الشاعر فلهم القيادةُ والفضل السامقُ، يقودون غيرَهم من الأقوام، ويسبون نساءهم، ولشدة محافظتهم على أزواجهم يتطامنون عندهن، ويخفضون من أنفة كبريائهم، ويتوددون إليهن حتى يبقين دُرّاً مصونا لا تمسهنّ يد السبيْ ولا يمتد إليهنّ طرفُ ناظرٍ، فدلالةُ القومِ واضحة؛ أراد بها الشاعر الرِّجالَ دون النساء .

---

(١) شرح الديوان، ص٧٣.

(٢) المرزباني ، معجم الشعراء ، ص٣١٢.

(٣) ديوانه في الطرائف الأدبية ، ص٢٢.

(٤) الحجل بالكسر والفتح : الخلخال ، ومعناها في البيت موضع الخلخال.

(٥) البُزْلُ : جمع بزول وهي الناقة في تاسع سنيها وليس بعده سنة تُسمّى وفي البيت شبه الشاعر مشيَ قومِه عند نسائهم بالنوق التي قيدتها امرأة نجدية في الصيف فلا تقوى على الحراك لملازمةِ القيد لها .

وإذا عدنا إلى زهير بن أبي سُلمى وجدناه يطلق كلمة القوم على رجلين معروفين وهما : هَرِمُ بنُ سِنان والحارثُ بنُ عوف اللذان مدحهما الشاعر لإتمامهما الصلح بين عَبْس وذُبْيان ، ولحملهما أعباءَ ديات القتلى يقول زهير في معلقته [١] :

تُعَفَّى الكُلُومُ بالمِئِينَ فأصْبَحَتْ ... ينجُمُهَا مَنْ ليسَ فيها بمُجْرِمِ

ينجُمُها قَوْمٌ لِقَوْمٍ غَرَامَةً ... ولم يُهَرِ يقوا بينهم مِلءَ مِحْجَمِ

فلفظة القوم الأولى يُرادُ بها السيدان؛ هَرِمٌ والحارثُ ، يقول الزَّوْزنيُ في شرح البيت الثاني :«ينجمُ الإبلَ قومٌ غرامةً لقوم ، أي ينجمها هذان السيدان غرامة للقتلى ، لأن الدِّيات تلزمهم دونهما ثم قال وهؤلاء الذين ينجمون الديات لم يُريقُوا مقدارَ الشيءِ الذي يملأ مِحْجَماً مِنَ الدِّماء»[٢].

ونجد مالك بنَ خالد الـخُناعيَّ يخصُّ بها أيضاً ثلاثةَ رجالٍ من عِلية قريش فيقول[٣] :

يا مَيَّ إنْ تَفْقِدِيْ قَوْماً وَلَدْتِهِمُ ... أوْ تَخْلِسِيهِمْ فإنّ الدَّهْرَ خلاّسُ

عَمْرٌو وعَبْدُ مناف والذي عَهِدَتْ ... ببطنِ عَرْعَرَ آبي الضَّيْم عبّاس [٤]

يقول الشَّماخُ في هجوِ بني سليم والتشنيع على نسائهم اللواتي يتوددنَ للغُرَباء دون رجال قبيلتهن[٥] :

وإنّي لِمَنْ قوْم على أنْ ذَمَمْتِهِمْ ... إذا أوْلَمُوا لم يُوْلموا بالأنافح[٦]

وإنّكِ من قوم تحنُّ نساؤهم ... إلى الجانبِ الأقْصَى حنينَ المَنائح [٧]

وقال طفيل الغنوي [٨] :

قَتلْنا بِقَتْلانا مِنَ القومِ مِثْلهم ... وبالمُوثَقِ المكلُوب مِنّا مكلّبُ

وبالنَّعم المأخوذِ مِثْل زهائِهِ ... وبالسَّبْيِ سَبْي والـمُحارِبُ مِحْرَبُ

وبالمِرْدِفَاتِ بَعْدَ أنعم عِيْشَة ... عَلى عُدواءَ والعُيُونُ تصَبَّبُ

عذارِيَ يَسْحَبْنَ الذيولَ كأنّها ... مَعَ القَوْمِ ينصُفْنَ العَضا رِيطَ ربْربُ[٩]

---

(١) شرح الديوان ،ص١٧ .

(٢) شرح المعلقات السبع ،ص١٤٥ ، ١٤٦.

(٣) ديوان الهذليين ، ق٣ ،ص١

(٤) وهم : عمرو بن عبد مناف بن قصي ، وهشام بن عبد مناف والعباس بن عبد المطلب ، وكلهم من ولد مدركة بن إلياس بن مضر .

(٥) الديوان ،ص١٠٧ ، ١٠٨ .

(٦) الإنفحة : بكسر الهمزة وفتح الفاء : كرش الحمل أو الجدي مالم يأكل ، فإذا أكل فهو كرش .

(٧) الجانب الأقصى : الغريب البعيد . والمنائح : جمع منيحة وهي التي أعيرت للانتفاع بلبنها فهي تحن ، والبيت تشنيع على نساء سليم بأن ودهن مبذول دائماً للغرباء .

(٨) الديوان ،ص ٤٦، ٤٧.

(٩) العضاريط : جمع عُضروط ، وهو الخادم أو الأجير.

ويقولُ امرؤ القيسِ يَمْدَحُ عُوَيْرَ بنَ شِخْبَةَ بنِ عطارد من بني تميمْ [١]:

ألا إن قوماً كنتمُ أمسِ دُونَهمْ ... هُمُ مَنَعوا جاراتِكُمْ آل غدران [٢]

عُوَيْرٌ ومَنْ مِثلُ العُوَيرِ ورَهْطِهِ ... وأسْعَدَ في لَيلِ البلابِلِ صَفْوانُ [٣]

فالقوم عند امرئ القيس هم الرجال الذين منعوا جاراتِ القوم الذين هجاهم امرؤ القيس ونسبهم إلى الغدر ومن أولئك الرجال الأوفياء عوير ، ويقول امرؤ القيس حين نزل في بني عَدْوان [٤] :

بُدِّلتُ مِنْ وَائِلٍ وكِنْدةَ عَدْ ... وانَ وفَهْماً صَمّيْ ابنة الجَبَل [٥]

قَوماً يُحاحُونَ بالبِهام ونسوان قِصَارٌ كهيئةِ الحجْلِ [٦]

فالشاعرُ يهجو عدوان وفهما ، فرجالُهُمْ يشبهون البهائم ، أمّا نساؤهم فهنّ قِصارٌ يشبهنَ الحِجْل في القصر والقبح ، فهو يشنع على الرجال (القوم) والنساء معاً . ويقول حاتم الطائي [٧] :

أبَعْدَ بني رُوْمَانَ شَدُّوا حِبَالَهُمْ ... بِحَبْلِ بني جَدْعاءَ، لم يتزاجَرُوْا [٨]

يقول لهم أوْسٌ : تعالوا جُنَيبةً ... ألا إنما أوْسٌ وَجَدُّكَ فاجرُ [٩]

أيفْعَلُها في الناسِ قومُ عِمارَةٍ ... لهم نَسَبٌ ولانساءٌ حَرَائرُ [١٠]

فقد قابلَ الشاعر بين القوم وهم الرجال الذين لا يستجيبون لنداء أوس ، فنسبُهم يمنعهم من أنْ يكونوا امّعةً لهذا الرَّجُلِ الفاجر ، فإذا كانوا كذلك فأن نساءهم الحرائر أيضا لا يفعلنها أبداً ، فالقوم هم الرجال ، ويقول الأعشى في مدح هوذة بن عليٍّ الحنفي [١١] :

يا هوذُ إنّكَ مِنْ قَوْمٍ ذَوِي حَسَبٍ ... لا يفْشَلُوْنَ إذا ما آنسوا فَزَعا

قومٌ بُيوتُهمُ أمْنٌ لجارِهِم ... يَوْماً إذا ضمّتِ المحْذُوْرَةُ القزَعا [١٢]

---

(١) الديوان ، ص٨٣.

(٢) آل غدران : نسب هؤلاء القوم إلى الغدر .

(٣) البلابل : الأحزان ، وأسعد في ليل البلابل ، أي وافق وساعد على ما أردت والبيتُ فيه إقواء.

(٤) الديوان ، ص ٣٤٨

(٥) ابنة الجبل: الحصاة وهذا قولهم للأمر إذا اشتد: صمت حصاة بدم ؛ أي كثر القتلى حتى إذا وقعت حصاةٌ في دم لم يسمع لها صوت من كثرة الدماء .

(٦) يحاحون : يزجرون والحجل : دويبة صغيرة منتنة الريح.

(٧) الديوان ،ص٢٧٧.

(٨) رومان : هو ابن جندب بن خارجة بن سعد الطائي . وجدعاء : هو ابن ذهل بن رومان بن جندب .

(٩) أوس : هو ابن حارثة بن لأم الطائي .

(١٠) العمارةُ : الحي العظيم .

(١١) الديوان ،ص١٠٧.

(١٢) المحذورة : الفزع والداهية . القزع : المتفرق

وهم إذا الحرب أبْدَتْ عَنْ نواجذها مِثلُ اللُّيوثِ وسمٌ عَاتقٌ نَقَعـــــا

غيثُ الأرامل والأيْتامِ كلُّهمُ لم تطلُع الشمسُ إلا ضرٌ أو نَفَعا

فقومُ هوْدة ذوو حَسَبٍ وهم خضارم ليوثٌ في سَاحَةِ الحرب، أمّا في ديارهم فهم أمْنٌ لجارهم ، يغيثون الأرامل والأيتام ، ونجدُ أنّ القوم تدُلُّ على الرجال الذين تدارُ عليهم كؤوسُ الشراب المعتق كما يقول زهيرُ بن مسعود الضَّبي [١] :

فلرُبَّ فتـــيان صَبحْتُهـــمُ مِنْ عاتقٍ صَهْبَاءَ في الخِرْسِ [٢]

عانيَةٍ تُصبي الحليـــم إذا دَارَتْ أكفُّ القومِ بالكأسِ [٣]

ب. القوم : القبيلة

ومن دلالات القوم في الشعر الجاهلي القبيلة ، ويذكر علماء النسب أن الناس يقسمّون إلى شعوب، ثم قبائل ثم عمائر ، ثم بطون ، ثم أفخاذ ، ثم فصائل ، ثم عشائر [٤] وهذه الأقسام غير مستقرة فكل قسم معرض للتكاثر ومن ثَّم الانقسام ، والسؤال الذي يمكن طرحه إلى أي قسم من هذه الأقسام ينسب العربي .

يذكر القلقشندي أنه من المعروف في النسب : «تخصيص الرجل من رجال العرب بانتساب القبيلة إليه دون غيره من قومه بأن يشهر اسمهُ بهم لرياسة ، أو شجاعة أو كثرة ولد، وغيره ، فتنسبُ بنوه وسائرُ أعقابهِ إليهِ وربما انضمَّ إلى النسبة إليه غيرأعقابهِ من عشيرتهِ كإخوتهِ ، ونحوهم فيقال فلان الطائيُّ ، فإذا أتى من عقبه من اشتهر منهم أيضاً بسبب من الأسباب المتقدمة نسبت إليه بنوهُ وجعلت قبيلةً ثانيةً ، فإذا اشتمل النسب على طبقتين فأكثر كهاشم وقريش ومضر ، وعدنان جاز لمن في الدَّرجة الأخيرةِ من النسبِ أن يُنسبَ الى الجميع : فيجوز لبني هاشم أن يُنْسَبُوا إلى هاشم وإلى قريش ، وإلى مضر، وإلى عدنان ، فيقال في أحدهم : الهاشميُّ ، والقرشيُّ ، والمضري والعدنانيُّ ، بل قال الجوهريُ : إن النسبة إلى الأعلى تُغني عن النسبة إلى الأسفل فإذا قلت في النسبة إلى كلب بن وَبَرَة : الكلبي استغنيت أن تنسبه إلى شيء من أصوله . وذكر غيره أنه يجوز الجمع في النسب بين الطبقة العُليا والطبقة السُّفلى ثم بعضهم يرى تقديم العليا على السفلى: مثل أن يقال: القرشي العدوي، وبعضهم يرى تقديمَ السفلى على العليا فيقال العدوي القرشي»[٥] وحديث القلقشندي السابق يدل على أن مفهوم القبيلة مفهومٌ عامٌ غيرُ محدَّدٍ ، فهو قدْ يطلقُ على العمائِر أو

(١) د.يحيى الجبوري ، قصائد جاهلية نادرة ،ص٨٩

(٢) الخِرْسُ : الدّن .

(٣) عانيَة : خمر منسوبة الى عانة ، وهي قرية على الفرات في العراق .

(٤) انظر : العقد الفريد : ٣: ٣٥٥ . البداية والنهاية ،٢:١٤٦ . المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ١: ٥١٠

(٥) صبح الأعشى ١: ٣١٠

البطون أو الأفخادِ أو الفصائلِ أو العشائرِ، وتطلق أسماء القبائل في اصطلاح العرب على خمسة أضرب

أولها : أن يطلق على القبيلة لفظ الأب كعاد ، وثمود ، ومدين ومن شاكلهم ، وبذلك ورد في القرآن الكريم وآل عاد ، وآل ثمود ، وآل مدين يريد بني عاد ، وبني ثمود ، وبني مدين ، ونحو ذلك ؛ وأكثر مايكون ذلك في الشُّعُوبِ والقبائلِ العظامِ بخلاف البطونِ والأفخادِ ونحو ذلك .

وثانيها : أن يطلق على القبيلة لفظُ البنوةِ : فيقال بنو فلان وأكثرُ مايكون ذلك في البطون والأفخاد .

وثالثها : أن يرد ذكرُ القبيلة بلفظ الجمع مع الألف واللام كالطالبيين والجعافرة ونحوها ، وأكثر مايكون ذلك في المتأخرين دون غيرهم .

ورابعها : أن يعبَّرَ عنها بآل فلان كآل ربيعة ، وآل فضل و آل مُرّ ،وآل علي ، وماأشبه ذلك ، وأكثر مايكون ذلك في الأزمنة المتأخرة والمراد بالآل الأهل .

وخامسها : أن يعبر عنها بأولاد فلانٍ ولا يوجد ذلك إلاّ في المتأخرين من أفخاد العرب على قلة[1] وهذا تحد يدٌ دقيقٌ يساعدُ في معرفة أبعاد القبائل العربيةِ ، ويمكن القولُ : إنَّ الأضرب الأوَّلَ ، والثاني والرابع وردت في الشعر الجاهلي ، وجاء مفهوم القوم ليعبرَ عنها ، يقولُ أميةُ بنُ أبي الصَّلْتِ [2] :

قوميْ ثقيفٌ إنْ سألتِ وأسْرَتي ... وبِهِمْ أدافعُ ركنَ مَنْ عاداني [3]

قوميْ إذا نَزَلَ الغريبُ بدارِهم ... ردّوهُ ربٌّ صَواهِلٍ وقِيانِ

فقوم الشاعر ثقيف، وهي قبيلة مشهورة كانت تسكن الطائفَ ، والشاعرُ مِنْ رؤسائِها، وأحد شعرائها المشهورينَ في العصر الجاهلي ، وهذا بِشرُ بنُ أبي خَازِمٍ يطلق على قبيلة جُذام مفهوم القوم فيقول [4]:

ألم تَرَ أنَّ طولَ الدَّهرِ يُسْلِي ... ويُنْسي مِثْلمَا نُسيتْ جُذام [5]

وكانوا قوْمَنا، فبغَوا عَلَيْنَا ... فسُقْناهُمْ إلى البلدِ الشَّامي

---

(١) صبح الأعشى ،١:٣١١ .

(٢) الديوان ،ص٥٠٠ .

(٣) هو ثقيف بن مُنبِّه بن بكر بن هوازن ،بطنٌ متسع من العدنانية وقيل اسم ثقيف قسيٌّ وقيل قسي لقب له ، كانت مواطنهم بالطائف، انظر : العقد الفريد ، ٣:٢٧١. تاريخ ابن خلدون ، ج٢ ،ق٣، ص٦٤٠. ابن حزم . جمهر ة أنساب العرب ، ص٤٨٢. ابن سعيد الأندلسي ، نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب ، ٢:٥١١. البكري ، معجم ما استعجم ، ١:٦٧ ، ٧٧. عمر رضا كحالة ، معجم قبائل العرب، ١:١٥٠.

(٤) الديوان ص٢٠٥ .

(٥) جذام بن عدي بن الحارث بن مُرَّة بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان وهي قبيلة قحطانية كانت تسكن الشام ، انظر: العقد الفريد، ٣:٣١٥. شهاب الدين النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، ٢:٣٠٣ .السمعاني، الأنساب، ٣:٢٠٩.

فجذام كانت قوماً ينصرون قبيلة الشاعروهي قبيلة أسد ، وحين بغت جذامُ أخرجتْ إلى الشّام إخراجاً، ويشنّع الأعشى على قبيلة إياد لاهتمامها بالزّراعَة ، حتى انتشر فيهم القمّلُ فأصبح همُّ أبنائهم أن يتخلصوا من هذا الزائر المقيم يقول [١] :

لسنَا كمنْ جعلتْ إياد دَارَها ... تكريت تنظر حَبُّها أنْ يُحصَدا [٢]

قوماً يعالجُ قمّلاً أبناؤهمْ ... وسلاسِلاً أجُداً وباباً مُوْصَدَا

فقبيلة إياد قوم عند الأعشى ، وقال بعض شعراء بلعَنبر واسمه قُرَيْطُ بن أُنَيف :

لو كنتُ مِنْ مازنٍ لم تَستَبِحْ إبِلي ... بنو اللّقيطَةِ مِنْ ذُهْلِ بْنِ شَيْبَانا [٣]

إذاً لقامَ بِنصْري مَعْشرٌ خُشُنٌ ... عِنْدَ الحفيظةِ إنْ ذو لوثَةٍ لانَا

قومٌ إذا الشّرُّ أبْدَى ناجِذَيْهِ لهمْ ... طارُوا إليهِ زَرافَاتٍ وَوحْدانا

فقبيلة مازنٍ قوم يستطيعون نصر الشاعر ، إذا ألمّ به مكروه ، ونجد الأسود بن يعفر يؤكد أن قومه نَهْشَلٌ، فيقو ل[٤] :

فلنهشلٌ قومي ولي في نَهْشَلٍ ... تَغْنَى الولدانُ والملعبُ [٥]

وعلى الرغم من اضطراب الوزن في الشطر الثاني ، إلا أن دلالة القوم في الشطر الأول على قبيلة نهشل جَلِيّةٌ ، وهذا عامر بن الطفيل يمدح الجبار مالك بن حمار ويذكرُ أنّه من علية فَزَارَة ، وأن فَزارة قومٌ كسائر الأقوام يوجد فيهم ذوو الرفعة والرياسة فيقول [٦] :

وكنتَ سَنَاماً مِنْ فَزارةَ تَامِكـــاً ... وفـي كـلِّ قَوْمٍ ذِرْوَةٌ وسَنَامُ [٧]

---

(١) الديوان ، ص٢٣١ .

(٢) كانت إياد بن نزار تسكن تهامة وذكروا أن السبب في نزوحها حربٌ وقعت بينها وبين ربيعة ومضر في حانق ، وغُلبت إياد على أمرها فخرجت من تهامة الى العراق ونزلت في سواد العراق و كانوا يغزون أهل العراق ، والعجم يتحملون منهم حتى تولى كسرى أنو شيروان فأغارت إياد على نساء الفرس فأخذوهن فغزاهم كسرى فقتل منهم ونفاهم عن أرض العراق ، فنزل بعضهم تكريت ، وبعضهم الجزيرة وأرض الموصل . انظر : العقد الفريد ، ٣: ٢٨٠. تاريخ ابن خلدون ، ج٢، ق٣، ص٦٢١. نهاية الأرب ، ٣٢٨:٢ .جرجي زيدان ، العرب قبل الإسلام، ص١٧٦ . دائرة المعارف الاسلامية ، ١٦٦:٢ -١٦٩ .

(٣) الخطيب التبريزي شرح ديوان الحماسة ، ١: ٩، ٢١، ١٥. وذكر التبريزي في شرح البيت : أن الموازن في العرب أربعة: مازن قيس ومازن اليمن ومازن ربيعة ومازن تميم ،والمراد في البيت مازن تميم ، المصدر نفسه ، ص٩. ومازن تميم هو: مازن بن مالك بن عمرو بن تميم ، وهم بطن من تميم ، انظر : نهاية الأرب ،٢: ٣٤٥. ونسب ابن سعيد الأندلسي الشعر إلى أبي الغول الطهوي : انظر نشوة الطّرب ، ١: ٤٦٠ .

(٤) الديوان ،ص٢٣ .

(٥) نهشل بن دارم وهم: بطن من تميم ، وأبناء نهشل : قطن وزيد وعبد الله وجندل وجرول ،وصخر ،وأبير ، انظر: جمهرة أنساب العرب ، ص٢٣٠. نهايه الأرب ، ٢: ١٥٢. نشوة الطرب ، ١: ٤٥٣ ، ٤٥٤.

(٦) الديوان ص١٢٦

(٧) فزارة بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار وهم: بطن عظيم من غطفان. انظر العقد الفريد ، ٣:٢٦٩. الأنساب ، ٩ :٢٩٧ . معجم ما استعجم ١: ٩٠ .

ويطلق الأعشى مفهومَ القوم على قبيلة بكر بن وائل فيقول [١] :

تقولُ ابنتي حَيْنَ جَدَّ الرَّحيـ ... ـلُ أبْرَحْتَ رَبّاً وأبْرَحْتَ جَارَا

فمن مُبْلِغٌ وائلاً قَوْمَنا ... وأعْني بذلك بكراً جِمارا

فدونَكمْ ربَّكمْ حالِفوهُ ... إذا ظاهرَ المُلْكُ قَوْماً ظِهارا

ويذكر الأعشى في موضع آخر أنّ قومه بنو قيس [٢] ، فهو منهم أصلاً وصليبة ، ويأخذه الشوق إليهم على ظهرِ مطيّته التي من عاداتها الترْحال يقول [٣] :

فعلى مِثلِها أزور بنيْ قيْـ ... ـسٍ إذا شطَّ بالحبيبِ الفراقُ

إنّني مِنْهُمُ وإنهمُ قوْ ... مي وإنّي إليهمُ مُشتاقُ

فبنو قيس هم قوم الأعشى ، وقيس هذا هو أحد حَفَدة بكر بن وائل، أما عمروبن قميئة فيطلق مفهوم القوم على أحد حَفدة قيس وهو مالك بن ضُبَيْعَة بنِ قيسٍ فيقول مُخاطباً ناقته [٤] :

تحنُّ حَنِينًا إلى مالكٍ ... فحنّي حَنِينَكِ إنّيْ مُعَالـ ... ـي

إلى دارِ قومٍ حِسَانِ الوُجُوهِ ... عِظامِ القِبابِ طِوالِ العَوالي

وفي موطن آخر يطلقُ عمرو بن قَمِيْئَةَ مفهومَ القوم على آل سعد ، وسعدٌ هذا هو جدُّ الشاعر ، فيقول على الرغم من ضغينة هؤلاء القوم وجَوْرِهِمْ :

أولئك قومـ ... ـي آلُ سَعْدِ بنِ مـ ... ـالكِ فمالوا على ضغْنٍ عليَّ وإلفـ ... ـافِ [٥]

أمّا قومُ حاجز بن عوف الأزدي فهم سلامان يقول [٦] :

قَوْمي سَلامـ ... ـان إمّا كنْتِ سَائلـ ... ـةً وَفي قُريش كريْمُ الحلفِ والحَسَبِ [٧]

---

(١) الديوان ،٤٩ .

(٢) «هم بنو قيس بن ثعلبة بن عكابة بن صعب ، بن علي بن بكر بن وائل، أما ولد قيس فهم: ضُبيعة وتيم وثعلبة وسعد؛ فولد ضبيعة بن قيس بن ثعلبة : مالك وربيعة وهو جحدر وعُباد وسعد رهط الاعشى واسم الأعشى ميمون بن قيس بن جندل بن شراحيل بن عوف بن سعد بن ضبيعة ، وقيل أيضاً : ميمون بن قيس بن شراحيل بن عوف بن ثعلبة بن سعد بن ضبيعة ؛ ومن بني مالك بن ضبيعة المرقش الأكبر ، واسمه عمرو بن سعد بن مالك بن ضبيعة والمرّقش الأصغر وهو ابن أخي المرقش الأكبر ، واسمه ربيعة بن قيس بن سعد بن مالك بن ضبيعة ومنهم طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد بن مالك بن ضبيعة وله أخ اسمه مَعْبدُ بن معبد ؛ ومنهم الشاعر عمرو بن قميئة بن سعد بن مالك » انظر : جمهرة أنساب العرب، ص٣١٩ ، ٣٢٠ . العقد الفريد ، ٣ : ٢٧٥. صبح الأعشى ، ١:٣٣٨ .

(٣) الديوان ، ص٢١٣ .

(٤) الديوان ، ص٥٣ .

(٥) المصدر السابق ،ص٧٧ .

(٦) قصائد جاهلية نادرة ، ص٨٠ .

(٧) «بنو سلامان بن مفرج بن مالك بن زهران ، بطنٌ ، منهم كان الشَّنْفَرَى الفاتك ، وكان يغير عليهم ، لأنهم قتل رجُلٌ منهم أباه ، فلم يطلبوا بثأره فَلحقَ ببني فَهْمٍ وكانوا أخواله » انظر : جمهرة أنساب العرب ، ص٣٨٦ ، ٤٧٤ .

أمّا قومُ زُهَيْرِ بنِ مَسْعُودٍ فَهُمْ بنو ضَبَّة :

إنّ بنـــي ضَبَّة قومي فَلـــــنْ أثـــرِبَهُمْ مـــا حَنَّتِ النِّيـــبُ [١]

ويفخرُ حاتمُ الطائيُّ بقومه بني ثُعَل ، ويؤكد أنه لن يَدَّعي لغيرهم يقول [٢] :

بنـــــو ثُعَلٍ قـــومـــي فمـــا أنا مُدَّعٍ سِواهُمْ إلى قَوْمٍ ، ومَا أنا مُسْنَـــدُ [٣]

ويقول السَّمَوْألُ بن عادياءَ يفخرُ بقومهِ ويهجوْ قبيلتيْ عامرٍ و سَلُوْلٍ:

وإنّا لقـــومٌ مـــا نَرى القَتْلَ سُبَّةً إذَا مَا رَآتْهُ عَامِـــــرٌ و سَلُـــولُ [٤]

فعامر قومٌ ، كما أن قبيلةَ سلول قوم .

وقال الفِنْدُ الزمانيُّ وهو شهْلُ بنُ شيبان [٥] :

صَفَحْنا عنْ بني ذُهلٍ وقلـــنا القـــومُ إخـــوانُ [٦]

عســـى الأيّامُ أن يَرْجِعْـــ نَ قوْماً كـــالـــذيْ كـــانُوا

فلمّـــا صَـــرَّح الشرُّ فَأمْسَى وَهْوَ عُـــرْيانُ

ولـــم يَبْقَ سِـــوى العُدْوا نِ دِنّاهُمْ كمـــا دانُـــوا

فبنو ذهلٍ قومٌ قدْ صُفِحَ عَنْهُمْ ، ولكنهم لم يتركوا الشرّ، وبقوا أعداءً فكان مصيرُهم الهزيمةَ ، وهذا الحُطَيْئةُ يهجو بني أنفِ النّاقةِ ويُطلقُ عليهم مفهوم القوم فيقول [٧] :

قومٌ هُمُ الأنفُ والأذْنَابُ غَيْرُهُمُ ومَنْ يُســـوِّي بأنْفِ النَّاقَةِ الذَّنَبـــا [٨]

---

(١) قصائد جاهلية نادرة ، ص٩٣. وبنو ضبة بن أدّ :بطن من طابخة من العدنانية ، كانت منازلهم في جوار بني تميم إخوانهم ، بالناحية الشمالية من نجد : انظر : العقد الفريد ، ٣: ٢٦٢. نهاية الأرب ، ٢:٣٤٦. الأنساب ، ٨: ١٤٤ ، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩. صبح الأعشى ، ١:٣٤٨ . جمهرة أنساب العرب ، ص٢٠٣ . وأشربَهُم : أخلط حبّهم بغيرهم .

(٢) الديوان ، ص٢٦٢.

(٣) ثُعل : بطن من طيءٍ من القحطانية كان لهم جبل أجأ . انظر : نهاية الأرب ، ٢:٢٩٩. العقد الفريد ، ٣ :٢١٣ .

(٤) شعر السموأل : ص١٢ . وعامر وسلول : يعني عامرَ بنَ صَعْصَعة ، وبنو سَلول : هم بنو مُرة بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن وهما : قبيلتان من قيسِ بن عيلان . انظر : شرح ديوان الحماسة ، ١:١١٢ .

(٥) شرح ديوان الحماسة : ص٢١ ، ٢٣ . مخطوطة منتهى الطلب ، ٥:١٥٨.

(٦) ذُهل بنُ شيبانَ ، قبيلةٌ من بكر بن وائل . انظر نهاية الأرب ، ٢ : ٣٣٢. الأنساب ، ٦: ٣٠ . وفي رواية أخرى صفحنا عن بني هند . وهي هند بنتُ مُرّ بن أدّ أخت تميم ، وهي أم بكر وتغلب – شرح ديوان الحماسة ، ١:٢١ .

(٧) الديوان ، ١٢٨ .

(٨) قال ابن الكلبي عن رجل من بني أنفِ الناقة يقالُ له إسماعيلُ قال : إنما سمّي جعفرُ بن قريع بن عوف بن كعب بن زيد مَناة بن تميم بن أنف الناقة ، لأن قُريعاً نحر جزوراً ، فقسّمها في نسائه ، وكان عنده ثلاثُ نِسْوةٍ منهن : الشَّموسُ بنت القمر من بني وائلٍ من قضاعة أمّ جعفر بن قريع فقالت : انطلق إلى أبيك ، فانظر هل بقي عنده شيءٌ ، فأتاه ، فلم يجد عنده إلاّ رأسَ الجزور ، فأخذ بأنفها يجرّه فقيل : ما هذا ؟فقال: أنف النّاقة فَسُمّيَ بذلك ، وكانوا يغضبون من ذلك فلمّا مدحهم الحطيئةُ الشاعرُ صار مدحاً ، انظر : الأنساب ،١: ١٢٣، ١٢٤.

ويذكر لبيدٌ أنّ قومَه هم أبناءُ مَجْدٍ فيقول [١] :

سَقى قومي بني مَجْدٍ وأسْقـــى نُمَيْراً والقَبَائِلَ مِنْ هِـــــلالِ [٢]

وفي موضعٍ آخرَ يجعلُ قومَه بني عامر و عامر هذا هو ابن مجد فيقول [٣] :

قَوْمِي بَنوْ عَـــامِرٍ وإنْ نطـــقَ الْـ أعْداءُ فِيهِمْ مَنَاطِقا كَـــذِبـــــا

ومن القبائل العربية التي مدحها الشعراءُ ، بنو شيبان [٤] ، فقد مدحهم الشاعرُ مَقَّاسُ العائذيُّ بقولهِ [٥] :

ألا أبْلِغْ بنيْ شيبانَ عنّي فَلا يَكُ مِنْ لقائِكُمُ الوداعَا

بِعَيْشٍ صَالحٍ ما دُمْتُ فيكمْ وعَيْشُ المرْءِيَهْبِطُهُ لِمَاعـــــا [٦]

إذا وَضَعَ الهزاهزُ آلَ قومٍ فَزَادَ اللـــــــهُ آلَكُمُ ارْتِفَاعَا [٧]

فَقَدْ جاوزْتُ أقواماً كثِيْراً فَلمْ أرَ مِثلكُمْ حَزْماً وَبَاعَا

فالشاعرُ يجدُ العَيْشَ الهنيءَ بين ظهرانيهم ، ولو عاشَ في غيرهم مِنَ الأقوام ،لنُغِّصَ عليه في حياتهِ ، فهم أهلُ الحربِ ، وبها يزدادون رِفعَةً ، فالشاعر قد تنقّل بين أقوامٍ كثيرة ، ولكنه لم يجدْ مثل آلِ شيبانَ قوماً ، وهذه الشاعرةُ صَفِيَّة تفخر بقومها شيبانَ الذين كان لهم الشّرَفُ العظيمُ ، والعزةُ القعساءُ حينما وقفوا أمامَ الفرسِ والمتأشبين من العرب تقول صفيةُ بنتُ ثعلبة الشيبانّيةُ [٨] :

شيبانُ قومي هلْ قَبِيْلٌ مثلُهم عِنْدَ الكِفاح وكرّةِ الفُرْسَانِ

لا والذّوائبِ مِنْ فُرُوْعِ رَبِيعةٍ مَا مِثْلُهُمْ في نائبِ الحَدثَانِ

قومٌ يُجيرونَ اللّهيفَ من العِدا ويُحاطُ عُمْري مِنْ صُرُوْفِ زَمَانِ

فقد كررت الشاعرة لفظة القوم مرّتين ، وأرادت بهما ، بني شيبان ، وفي موضع آخرَ من شعرها تطلق لفظة القوم على بني لجيمٍ فتقول[٩]:

---

(١) شرح ديوان لبيد ، ص٩٣ .

(٢) مجد ابنةُ تيم بن غالب بن فهْرِ بن مالك وهي أمُّ كُلابٍ وكعبٍ وعامرٍ بني ربيعة بن عامر بن صعصعة ، ويقال لولد ربيعة : بنو مجد . انظر : نشوة الطرب ،٢: ٥٥٢ .

(٣) شرح الديوان ، ص٣٣ .

(٤) هو شيبانُ بن ثعلبة بن عُكابة بن صَعب بن علي بن بكر بن وائل، وشيبانُ بطن من بكر. انظر : نهاية الأرب ، ٢:٣٣٢ . تاريخ ابن خلدون، ج٢ ، ق٣ ، ص٦٧٢ . صبح الأعشى ، ١: ٣٣٨. الأنساب ، ٦: ٣٠ .

(٥) المفضليات ، ص٣٠٥ .

(٦) لماع : جمع لُمْعَةٍ ، وهي القِطعةُ و المعنى تذهب نفسه قطعة قطعة ، أي ينقص عيشة.

(٧) الهزاهز : جمعُ هزهزةٍ وهي تحريك البلايا والحروب .

(٨) بشير يموت ، شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام ، ص١١.

(٩) المصدر السابق ، ص١٦ .

لُجَيْمُ قومي وبَنُو أُبَيْنَـــــا لَيْسوا لدى الهَيْجا مُغَلَّبِينا [١]

وإذا أُطْلِقَتْ كلمةُ القوم في الشعر لتخصص اسم القبيلةِ دونَ غيرها بشكل جليٍّ ، فإنها أطلقت أيضاً على القبيلة دون ذكراسمها، حيث يفهم من خلال المعنى أن الشاعرَ يتحدَّثُ عن قبيلته كقول زهير[٢] :

وَمَنْ يَكُ ذا فَضْلٍ فَيَبْخَلْ بِفضْلِهِ على قَوْمِهِ يُسْتَغْنَ عَنْه وَيُذْمَمِ

والشاعر الجاهليُّ يفخر دائماً بالقوم ، فهم أهلهُ وملاذُه ، ومن الصعوبة بمكان أن يعيش المرءُ وحيداً فريداً ، في مُجْتَمَعٍ قَبَليٍّ يفرض على الإنسان أن يلجأ إلى الحمايةِ من الغزو والغارات الدائمةِ ،فوجود القوم أو القبيلة واجتماعهم يداً واحدة تمنع أعداءهم من أن يتخذوهم هَدَفاً، فالرِّمَاحُ تأبى إذا اجْتمعْنَ تكسُّراً ، وقد ذكر عمرُو بنُ قميئة أن الركنَ الذي يأوي إليه الفتى الجاهليُّ هو : القوم لأنه ركنٌ يَعصِمُهُ من الآخرين يقول [٣] :

على أنّ قَوْمِيْ أسْلَمُوني وعُرَّتي وقومُ الفَتَى أظفارُهُ ودعائمُه [٤]

ويظهر مما سَبَقَ أنَّ كلمةَ القوم ، تُطلقُ على القبيلةِ ، سواء على اسم أب القبيلة كثقيف وجُذام ، وإياد ومازنٍ ، وفَزَارَة ، وبكر بن وائل ، ومالكٍ ، وسلاَمانَ أو يُعبَّرُ عنها بالآل كآل سعد بن مالك ، أو تُطْلَقُ عليها لفظ البنوة كبني ضَبَّة ، وبني شَيْبَانَ ، وبني لجَيْم ، وهذه القبائل أقوام لها تاريخها وأيامها ، ويمكن القول : إن الشاعرَ الجاهلي عندما يطلق كلمة القوم على القبيله إنما يريد رجالها، وليس ثمة إيحاء –يمكن الاطمئنان إليه– يعبر عن معنى القبيلة كلها سواء أكانوا رجالاً، أم نساءً أم أطفالاً ، فجُلُّ الشعر الذي ذُكِرَ سابقاً يدل على رجال القبيلة الذين يفتخر الشاعربهم وبانتمائه إلى أرومتهم أو أولئك الذين يهجون من القبائل الأخرى وهذا ما يؤكد أن كلمة القوم تَدُلُّ على معنى القوة والعزم .

---

(١) لُجَيْمُ بنُ صعب ، بطن من ربيعة بن نزار من العدنانية وهم بنو لجيم بن صعب بن علي بن بكر بن وائل . انظر : العقد الفريد ، ٣:٢٧٧. جمهرة أنساب العرب ص٣٠٩ . نهاية الأرب ، ٢: ٣٣١ . تاريخ ابن خلدون ، ج٢، ق٣ ، ص٦٢٦ ، ٦٢٧ .

(٢) شرح ديوان زُهَيْر ،ص ٣٠ .

(٣) الديوان ،ص٨٠ .

(٤) العُرَّة : الجرم والأذى .

جـ القوم : الأعيان

ومن دلالات القوم في الشعر الجاهلي الأعيان ، وهم : الرجال الذين يمتازون عن غيرهم بصفات تضعهم في عِلية الناس يقول النَّابِغَةُ الذُبيَانيُّ يمدحُ النُّعمانَ بنَ المنذرِ [١] :

ولا أرَى فَاعِلاً في النّاسِ يُشْبِهُهُ ... وَمَا أحَاشِي مِنَ الأقْوامِ منْ أحَدِ

إلاّ سُلَيْمانَ إذْ قالَ الإلهُ لهُ ... قُمْ في البريَّةفاحْدُدْها على الفَنَدِ [٢]

فالنابغة يقارنُ بينَ النعمانِ والأقوامِ الأخرى وهم الرجالُ الأعيانُ ، فهو يفضلهم جميعاً ، واستدرك الشاعر على قوله هذا أنْ استثنى النبيَّ سليمانَ الذي اختارَهُ اللهُ لهدايةِ البرية، ويقول أيضاً [٣] :

مَهْلاً فِدَاءً لَكَ الأقـــوامُ كلُّهُمُ ... وما أثمِّرُ مِنْ مَال وَمِنْ وَلَـــــدِ

فهو يفديه بالأشراف لا بالزُّعَانِفِ ، وبالأعيان لا بالسُّوقةِ من الناس، فالأقوام تعني الأعيان. يقول مَالك بنُ حَرِيْم [٤] :

وَمِنَّا رَئِيسٌ يُستَضَاءُ بِنُوْرِهِ ... سَنَاءً وحِلماً فِيْه فاجتَمعا مَعَا

وَسَارَعَ أقوامٌ لِمجْدٍ فقصَّروا ... وَقَارَبَها زَيْدُ بنُ قيسٍ فأسْرَعَا

فالأقوام عند مالك بن حَرِيم الأعيان الذين يسارعون إلى المجدِ ويغذون الخُطى ليدركوه ، ولكنهم أخفقوا في الوصول إليه والاستحواذ على ناصيتِهِ ، وكان إدراكُ المجد من نصيب زيدِ بنِ قيسٍ ممدوح الشاعر، أمّا أبو دُؤاد الإيادي فيصفُ كهُولاً من قومِه بأنهم أصحابُ فَعال ومكارم يخشاها غيرهم من الأقوام ويقصرون عن بلوغها:

وَكُهُولٌ بَنَـــى لهُمْ أوَّلُهُـــــمْ ... مـــأثُراتٍ يهَابُهـــاالأقْـــــوَامُ [٥]

وفي المعنى نفسه يقول زهيرُ بنُ أبي سُلمى [٦] :

على مُكثِريهم حَقُّ مَنْ يَعْتريْهُمُ ... وعِنْدَ المقلِّينَ السَّماحَةُ والبَذْلُ

سعى بعدَهُمْ قومٌ لكيْ يُدْرِكُوْهُمُ ... فلَمْ يَفْعَلُوا وَلَمْ يُلامُوا وَلَمْ يألُوا

فما كانَ مِنْ خيرٍ أتَوهُ فإنّما ... تـــوارثَهُ آباءُ آبائِهـــم قَبْلُ

---

(١) ديوانه ،ص١١٣ .
(٢) حَدَدَ عليه : ميز الشيء عن الشيء ، والفَنَد : الكذبُ وضعف الرأي .
(٣) الديوان ،ص٢١ .
(٤) الأصمعيات ، ص٦٦ .
(٥) المصدر السابق ، ص١٨٧ .
(٦) شرح الديوان ، ص١١٤ ، ١١٥ .

وفي مدحهِ هوذةَ بن عليٍّ الحنفي يقول الأعشى [١] :

أتَشْفِيكَ تيًا أمْ تُرِكتَ بِدَائكا ... وكانَتْ قَتُولاً للرِّجالِ كَذَلِكَا

ألـمَّتْ بأقْوَامٍ فَعَافَتْ حِياضَهُمْ ... فَلوْصِي وكانَ الشَّربُ منْها بمائِكا

ولم يَسْعَ في الأقوامِ سَعيكَ واحدٌ ... وليسَ إناءٌ للنَّدى كإنائكا

فالشاعر المعروف بتكسبه يرحلُ نحو أعيانِ القبائل وشيوخها ، ويستقرُّ به المطافُ عِندَ هوذةَ الذي لم يقاربُه أحدٌ من أولئك الأقوام في النَّدى ، والعطاء الوفير، فالأقوام هم الذين يرحل إليهم المتكسبونَ لأنهم أهل الجود والحلم و فلا عجبَ أنْ يمدحهم المادحون ، ونجد ربيعة بن مقروم الضَّبّي يمدحُ مسعودَ بنَ سالم بن أبي سلمى بن ربيعة فيقول [٢] :

وَقَدْ سَمِعْتُ بقومٍ يُحمدونَ فلمْ ... أسمع بِمثْلِك لاحِلماً ولا جُوداً

ولا عَفافاً وَلا صبراً لِنائِبةٍ ... وما أُنَبِّيءُ عنْكَ الباطلَ السيْدا[٣]

وفي حادثة قتل كليبٍ ،رحلت جَلِيْلةُ زوجُهُ ، فقالت أختُ كُلَيْبٍ : رِحلَة المعتدي وفراقُ الشَّامِتِ ، ويلٌ غداً لآل مرة مِنَ الكرَّةِ بَعْدَ الكرَّةِ ،فبلغ قولُها جليلةَ ، فقالت : وكيف تشمتُ الحرةُ بِهتكِ سِترِها ، وترقب وِترِها : أسعدَ اللهُ جَدَّ أختي أفلا قالت :نفرة الحَياءِ وخوْفُ الاعتداءِ ، ثم أنشأت تقول [٤]:

يا ابْنَةَ الأقوامِ انْ شِـئْتِ فَـلا ... تَعْجَلـي باللَّوْمِ حَتّى تَسْأَلِـي

فأخت كليبٍ هي ابنة سادةٍ كرامٍ ورجال تغلب وأعيانها .

ومن الشعر الذي تتضحُ فيه دلالة القوم على الأعيان من الرجال قول النابغة الذُّبياني في اعتذاره إلى النُّعمانِ بن المُنذر [٥] :

حَلَفْتُ فلمْ أترُكْ لنفسك ريبةً ... وليسَ وراءَ اللهِ للمرءِ مَذْهَبُ

لئنْ كُنْتَ قَدْ بُلِّغتَ عنِّي رِسالةً ... لمبلِّغُك الواشِي أغشُّ وأكْذَبُ

ولكنّني كُنْتُ امْرءاً لِيَ جَانِبٌ ... مِنَ الأرْضِ فِيْهِ مُستَرادٌ وَمذهَبُ

مُلوك وأقوامٌ إذا مَالقيْتُهُمْ ... أحَكَّمُ في أموالِهم وأقرَّبُ

كفعلِكَ في قومٍ أراكَ اصطنعتَهُمْ ... فَلَمْ تَرهُمْ في مِثْلِ ذَلك أذْنَبُوا

---

(١) ديوانه ،ص٩١ .

(٢) المفضليات ، ص٢١٤ . الحماسة البصرية ، ١: ١٧٥ .

(٣) السَّيِّدُ : هو ابن مالك بن بكر ، وهو الجد الأعلى للمادح والممدوح .

(٤) الأغاني ، ٥: ٥٤ .

(٥) الديوان ، ص٧٧ .

فقد قَدَّمَ الشاعر الملوك على الأقوام ، فهؤلاء أقلُّ مرتبةً من الملوك، فالأقوام من أصحاب الشأن والجاه، والملوك عند النابغة هم ملوك الغساسنة ، والأعيان هم بطانتهم وشيعتهم من ذوي المكانة، فالقوم في البيت الخامس هم بطانة النعمان بن المنذر الذين اصطفاهم لنفسه، وقد تأتي لفظة القوم لتدل على أعيان القبائل وشيوخها الذين يفدونَ إلى الملوك قال الأخنس بن شهاب التغلبي في قومه تغلب [١]:

فللهِ قومٌ مِثلُ قومي سُوقةً إذا اجتَمَعَتْ عِنْدَ الملوك العَصَائِبُ

أرَى كلُّ قومٍ يَنظرُونَ إليهمُ وتقْصرُ عما يَفْعَلونَ الذَّوائِبُ

وهناك شعر يظهر فيه تنافسٌ شديدٌ بين قائليه وغيرهم من الأقوام مما يدل على علوِّكعبِ هؤلاء فمن ذلك قول طُفَيْل الغَنَويِّ [٢] :

إنّي أعدُّ لأقْوامٍ أفاخرهُم إذاتُنُوزِعَ عِنْدَ المشْهَدِ القِيلُ

ولا أجلّلُ قومي خِزْية أبداً فيها القُرُودُ رُدَافاً والتّنابِيلُ [٣]

وكقولِ السّموأل[٤] :

وفَيْتُ بأدْرُعِ الكِنْديِّ إنّي إذا مـاذُمَّ أقْـــوامٌ وفَيْتُ

ومن ذلك قول الخنساء في أخيها صَخْرٍ [٥] :

إذا القومُ مَدُّوا بأيديهم إلـى المجْدِ مَدَّ إليــهِ يَدَا

فنال الذي فوقَ أيديهِم مِن المجــدِ ثمَّ انْتمى مُصعِدا

ويصور عباسُ بنُ مِرْداس في أبيات من شعره بأنه فاق غيرهَ مِنَ الأقوام :

إني حَوَيْتُ على الأقــوام مكرُمَةً قِدْماً وَحَذّرني مايتّقــونَ أبي [٦]

وليس أيُّ امرئٍ يُسألُ عن المكرُماتِ وأهلها ، إنما يسأل عنها من كان بها خبيراً وعليماً ، فلذلك يقول ابنُ مقبل [٧] :

فللعفو أقوامٌ ، وللمجهــلِ غـيرُهُم إذا لــم توَّفِ البُزَّلُ الكُومُ مِرْفَداً [٨]

---

(١) المفضليات ، ص٢٠٨ ، ٢٠٩ .

(٢) الديوان ، ٥٩.

(٣) القرود : الأنذال . رُدَافَا : بعض على بعض ، التنابيل : مفردها تنبل ، وهو الذميم .

(٤) شعر السموأل ، ص١٨ .

(٥) الديوان ، ص١٤٥ .

(٦) الديوان ، ص٣١ .

(٧) الديوان ، ص٥٩ .

(٨) الكُوم : جمع كوماء ، وهي الناقة العظيمة السنام ، المِرْفد : القَدَح الضخم تحلَبُ فيه الناقة .

فالقوم أعيان القبيلة هم أهل عفو وجود عندما تقلع السماء أبداً ،وتجدب الأرض زمنا ، وتهزل النوقُ ، فيقلّ حليبُها ساعتئذٍ يظهر أهلُ السَّخاءِ والكرم ، ويختفي البخلاء من أهل الجهل ، فجاءت كلمة أقوام لتدلَّ على أعيان القبيلة من ذوي العفو والجُودِ ، وقدْ تشتد المنافسة بين الأقوام ويشدُّ معها التحاسدُ والتباغض ، يملآن الصدور ضغينةً لا ينفع معها المجاملة والحياء كما يقول الشاعر :-

أجَامِلُ أقواماً حَيَاءً وَقَـــدْ أرى صُدورهُمْ تَغلِي عليَّ مِرَاضُها [1]

فالقوم في الشعر الجاهلي تدلُّ في بعض المواطنِ على الرجال الأعيان من ذوي الرفعة والشأن الرفيع ، وفي هذا دلالة على قوتهم وعلوِّ كعبهم في القبيلة .

د. القوم : المحاربون

ومن دلالاتِ القوم ومعانيها في الشعر الجاهلي المحاربون و ينقسم هؤلاء إلى ضربَيْن :

أولاً : محاربو القبيلة ؛ المدافعون عن حماها ، وفي ذلك يقول مُخرِزُ بن المُكعْبرِ الضَّبيُّ [2]:

فِدىً لقـومي ما جَمعْتُ مِنْ نَشَبٍ إذْ لفَّتِ الحربُ أقـواماً بأقْوامِ

ونجد شعراً يفخر بهؤلاء الرجال الذين يذودون عن القبيلة ويمتازونَ بالقوةِ والعزمِ والقدرة على هزيمة الأعداءِ ، فهؤلاء قوم عَمْرو بن كُلْثومٍ يلسبونَ الدروع زمنا طويلاً ،يحاربون حتى إذا وضعتِ الحربُ أوزارها، وخلعوا عن أجسامهم هذهِ الدروعَ الواقيةَ ، رأيت لها أثراً أسود:

علينا كلُّ سَابِغَةٍ دِلاصٍ تَرى فَوْقَ النِّجادِ لها غُضُوْنا [3]

إذا وُضِعتْ عَنَ الأبطالِ يوما رأيت لها جَلودَ القومِ جُونَا

وهم يفخرون بانتمائهم إلى مثل هؤلاء القوم ، ومن صفات القوم المحاربين أنهم طِوالُ الرِّماح كنايةً عن عزيمتهم واستعدادهم ، وهم يمنعون الحمى يقول ربيعةُ بنُ مَقْرومٍ عن قومِه [4]:

وقومي ، فإنْ أنـتَ كـذبتنـي بقـولي فاسألْ بقـومي عَلِيمـا

أليسُـوا الـذِينَ إذا أزمَـةٌ أطَّتْ على النّاس تُنسـي الحُلومَا

---

(١) ديوان الشَّماخ ، ص٢١٥ .

(٢) المفضليات ، ص٢٥٢ .

(٣) شرح القصائد العشر ، ص٢٨٢ . والسَّابغةُ : التامة من الدروع ، والدِّلاصُ: اللَّينة التي تزل عنها السيوف ، والنِّجادُ : حمائل السيف . والغُضُون : جمع غضن وهو تثنٍّ في الدرعِ .

(٤) المفضليات ، ص١٨٣ .الحماسة البصرية : ٤٧ .

يُهينُون في الحقِّ أموالهَم إذا اللُّزباتُ التحـيْنَ المُسيْمَا [1]

طِوال الرِّماح غداةَ الصَّباح ذوو نجدةٍ يمنعُون الحريْمَا

بنُو الحربِ يَوْماً إذا استْلأمُوا حَسِبْتَهُمُ في الحـديْدِ القُرومَا [2]

ويفخر عمرو بن امرئ القيس جدُّ عبدالله بن رواحة بانتمائه إلى عزمَنيْع صنعه قومُه ويذكر صفتهم :

إني لأنْمَى إذا ما انتميْتُ إلى عِزٍّ مَنيْـع وقـومُنا شُرُفُ [3]

بِيْضٌ جِعَادٌ كأنّ أعيْنَهم يكْحلُها في المـلاحِمِ السُّدفُ [4]

فهم في عز رفيع ، أشداء وفيهم صفاء ، وهم كرماء، ولهم عيون مكحلة بالظلمة ، ومن صفاتِ القومِ تبدلُ وجوههم ، قال أبو زُبَيْد الطائي [5] :

بَدَّلَ الغزوُ أوْجُهَ القومِ سُـوداً ولَقَدْ أبْدَوُا ولَسْنَ بسُـوْدِ

وقال حَاجِزُ بنُ عوفِ الأزديُّ [6] :

أوانَ سَمِعْتُ القومَ خَلفِي كأنّهُمْ حَرِيقُ أباءٍ في الرِّياح الثّواقِبِ [7]

سُيُوفُهُمُ تَغْشى الجبانَ وَنَبْلُهُمْ يُضيءُ لدَى الأقوامِ نارَ الحُباحِبِ [8]

وأكثر مايذُكرُ القومُ ويُحمدَوْنَ عندما يمتطون الخيلَ ، وتشرع أسنتهم ويلاقون أعداءهم قال خداشُ ابنُ زُهيْر[9]:

وإنا لِمَنْ قَوْم كِرَامٍ أعزَّةٍ إذا لحِقَتْ خَيْلٌ بفُرْسانها تجْري

وَكنَّا إذا ماالخيلُ أدْركَ ركضها لبسْنَا لها جلْدَ الأساوِدِ والنَّمْرِ

ويفخر عنترة بقوةِ قومه الذين يمتطون الخيلَ وهم يقبضونَ على أعنّتها :

---

(١) اللُّزبات ، بفتح الزاي : جمع لزْبة وهي القحط . التحين : قشرن ، يقال لحوت العود ولحيته : إذا قشر ما عليه من لحائه . المسيمُ : صاحب الإبل والغنم ، اشتق اسمه من السائمة . أي أن قومه ينفقون أموالهم في الشدائد وهي إحدى صفاتهم.

(٢) القُرُومُ : جمع قَرْم : وهو الفحل .

(٣) أبو زيد القرشي ،جمهرة اشعار العرب في الجاهلية والاسلام ، ص٥٣٣ .

(٤) الجعد : الكريم : والسّدف ، الظلمة .

(٥) شعره ، ص٥٥ .

(٦) قصائد جاهلية نادرة ، ص٨٠ .

(٧) الأباء : الكلأ الذي تأكله الماشية . الرياح الثواقب: الرياح التي تذكي النار وتزيدها اتقاداً .

(٨) نار الحُباحب : ما اقتدح من شرر النار في الهواء من تصادم الحجارة .

(٩) جمهرة أشعار العرب ، ٤١٦ .

ونعمَ فوارسُ الهَيْجَاءِ قَوْمي إذا عَلَقُوا الأعِنَّةَ بِالبَنَانِ [1]

وقال بِشرُ بنُ أبي خازم الأسدي [2] :

فَسَائِلْ بِقَوْمِي غَدَاةَ الوَغي إذا مَا العَذَارَى جَلَوْنَ الخِدَاما

وقال عَبِيدُ بنُ الأبْرَصِ :

تلكَ الجيادُ عليها القومُ قدْ سَبَحوا كانوا لهُنَّ غداةَ الرَّوع أحْلاسا [3]

والقوم هم المحاربونَ سواء أكانوا من الأقحاح في نسبهم إلى القبيلة أو مِنَ الموالي والمتأشبينَ لها كما يذكر عبد يغوث بن وقاص :

جَزَى اللهُ قَوْمي بالكُلابِ مَلامةً صَرِيحَهُمُ والآخرِينَ المَوَاليَا [4]

وقال بشر بن أبي خازم الأسدي في وقعة كانت في بني سعد بن زيد مَنَاة وبني حنظلة وهماقبيلتان من تميم :

وقدْ زارَكمُ صَلَتٌ مِنَ القَوْمِ حاشِدٌ وأنتمْ لهُ بَادي الضَّغِينةِ مُذنب [5]

وينصرنا قومٌ غِضَابٌ عليكمُ متى ندعُهُم يوماً إلي النصر يركبوا

وهؤلاء الرجال المحاربون أشداء في الوغي ،كرماء في أيام العُسرةِ كما يصف عمرو بن شأس الأسَدي قومَه [6] :

ألا أيُّهَا المرءُ الذيْ ليسَ مُنْصِتاً ولا قائلاً إنْ قالَ حَقّاً ولا عدْلاً

إذا قلتَ فاعلمْ ما تقولُ ولاتكنْ كحاطبِ لَيْلٍ يجمعُ الدِّقَ والجَزلا

فلو طِفْتَ بينَ الشّرقِ والغرب لم تجدْ لقومٍ على قومي ولو كرمُوا فَضلا

أعزَ وأمضى في الصُّباح فوارساً إذا الخيلُ جَالتْ في أعنّتها قُبْلا

إذا الشّولُ راحتْ وهي حُدْبٌ حدابرٌ وَهَبّتْ شَمالا حَرْجَفَا تحْفِرُ الفحْلا [7]

رأيْتُ ذوي الحاجاتِ يتّبعوننا نُهِينُ لهمْ في الحِجْرة المالَ والرِّسْلا [8]

(١) شرح ديوان عنترة ، ص٢٣٣ .
(٢) الديوان ، ص ١٨٨ .
(٣) الديوان ، ص٨٣. والأحْلاس جمع حِلس : وهو كساء على ظهر البعير تحت البرذعة .
(٤) المفضليات ، ص١٥٧ . والكُلاب : هو يوم الكلاب الثاني ، كلاب أهل اليمن وتميم وفيه أسر الشاعر عبد يغوث . وصريحهم : خالصهم . والموالي : الحلفاء هنا .
(٥) ديوان بشر ، ص١٠ . والصلتُ : المَاضي في الحوائج .
(٦) شعره ، ص٤٥ ، ٤٦ .
(٧) الحَرجَفُ : الرِّيحُ الباردة الشديدةُ الهبُوب .
(٨) الرِّسل : القطيع من الإبل .

نُقيمُ بدارِ الحَزْمِ ليسُ مُزيلُنا مُقاساتُنا فيها الشَّصائِصَ والأُزْلا [١]

لنا السُّورةُ العليا وأوّلُ شدةٍ إذا نحنُ لاقينا الفوارسَ والرِّجلا

وإذا كان القوم وهم رجال القبيلة المدافعون عنها يلقون الأعداءَ ليحققوا النصر ، فمن أعظم العيوب أن يُثبّطَ أحدهُم فيرضى بالقعود ، لأنه يُذمُّ وينتقصُ ، يقول قيس بن الخطيم [٢] :

إذا المرءُ لم يُفْضِلْ ولم يلقَ نجْدة مع القوم فليقعدْ بِصُغْرٍ ويَبْعُدِ [٣]

كما أنه لا يُقبلُ أن يهزمَ القومُ يقول عمرو بن معدي يكرب [٤]:

فلوْ أنّ قومي أنطقتْني رماحَهُمْ نطقتُ ولكنَّ الرماحَ أجرّتِ [٥]

ويَرد مفهوم القوم ليدل على الجماعة من الرجال التي تخرج للغزو «فقد ذُكِرَ أن تأبطّ شراً والمسيّبَ بن كُلاب قد خرجوا في ستةِ نفرٍ يريدون الغارةَ على بجيلةَ والأخذَ بثأر صاحبهم عمرو بن كلاب وسعد بن الأشْرَس، فخرج تأبّطَ و المُسَيّبُ ، وعامر بن الأخنس ، وعمرو بن برّاقة ومُرة بن خلف ، والشَّنْفَرى بنُ مالك ، والسَّمْعُ وكعبُ حُدار ابنا جابر أخوا تأبّط فقال كَعْبُ حُدار :

يا قومُ أمّا إذَ لقيتم فاصْبِرُوْا ولا تَخيْموا جَزَعاً فَتُدْبِرُوْا [٦]

وقال السَّمع أخو تأبط :

يا قَوْمُ كُونوا عِنْدَهَا أحرارَا لا تُسْلِموا العُوذَ ولا البِكَارَا [٧]

وقال حَسَّان بنُ ثَابت [٨] :

واللَّيلة الظلماءَ أدْجِلُها بالقومِ في الدَّيْمُومةِ القَفْرِ [٩]

---

(١) شَصَّتِ الناقةُ والشاة تشِصُّ وتشَصُّ شصاصاً وشُصُوصاً ، وأشصَّت قل لبنُها ، وقيل : انقطع البتّة ، والجمع شصائص وشِصا صٌ وشُصُصٌ والأزل : الضيق والشدة .

(٢) الديوان ،ص٧٣ .

(٣) النجدة : الكرب .

(٤) الأصمعيات ، ص١٢٢ .

(٥) ويقول : لو أنهم أبلوا في الحرب بلاءً حسنا لمدحتهم وذكرتُ بلاءهم ، ولكنهم قصروا فأجرُّوا لساني فما أنطق بمدحهم والافتخار بهم . والإجرار : أن يُشقَّ لِسانُ الفَصيل لئلا يرضع أمّهُ ، ويجعل فيه عُويدٌ ، وجعل الفعلين للرماح ؛ لأن المراد مفهوم في أنّ التقصير كان منهم لامنها ؛ انظر : شرح ديوان الحماسة ، ص١٦ .

(٦) لا تخيموا : لا تنكصوا و لاتجبنوا .

(٧) الأغاني ، ٢: ١٨٢ . والعُوذ : جمع عائذ و وهي الحديثة النتاج من الظباء .

(٨) الديوان ، ص٢٢٤ .

(٩) دجَلَ : قطع نواحي الأرض سيراً . والدَّيْمُومَةُ : الصحراءُ الواسعة.

وهذا دُرَيْدُ بن الصِّمَّة يحذر قومه الذين خرجوا معه [١] :

وقلتُ لعُراضٍ وأصْحَابِ عَارِضٍ ... ورَهْطِ بني السَّوداءِ والقومُ شُهَّدي [٢]

علانيةً : ظنُّوا بألفيْ مُدَجَّجٍ ... سَراتُهُمُ في الفارسيِّ المُسَرَّدِ

أمَرْتُهُمُ أمْري بمنعرج اللِّوى ... فلم يستبينوا الرُّشْدَ إلا ضُحى الغدِ

فَلمَّا عَصَوْني كنْتُ مِنْهُمْ وقدْ أرَى ... غَوايتَهم وأنَّنـــي غيرُ مُهْتَدِ

والقوم المحاربون هم مضربُ المثلِ في الاستجابة لتحدي الطبيعة ، فقوم تأبّط شراً قد خرجوا معه في طريق صعبة ، وتخطوا العقباتِ ، وذللوا الأخطار كي يصلوا إلى بغيتهم ونهب مايمكن نهبه :

وشِعْبٍ كشلِّ الثَّوْبِ شكسٍ طريقُهُ ... مَجامعُ صَوْحَيْهِ نِطَافٌ مَخاصِرِ [٣]

بهِ مِنْ سُيولِ الصَّيفِ بيضٌ أقرُّها ... جُبَارٌ لِصُمِّ الصَّخرِ فيهِ قَراقِرُ [٤]

تبطنتُه بالقومِ لم يَهْدِني لهُ ... دَلِيْلٌ ولم يُثْبِتْ ليَ النَّعْتَ خَابِرُ

وقوم قيس بن جَزْءٍ هم الذين خرجوا معه للحرب كما يقول لبيد [٥] :

وقيس بن جَزْءٍ يومَ نَادى صحابَهُ ... فَعَاجُوا عليْهِ مِنْ سَوَاهِمَ ضُمَّرِ

طَوَتْهُ المنايا فوْق جرداءَ شَطْبَةٍ ... تَدفُّ دَفِيفَ الرَّائحِ المُتمطِّرِ [٦]

فباتَ وأسْرَى القومُ آخرَ ليلِهِمْ ... وَمَا كانَ وَقافاً بِدارِ مُعَصَّرِ [٧]

وقال زهير بن أبي سُلمى [٨] :

وَخالي الجَبا أوْرَدْتُه القومَ فاستقوا ... بسفرَتِهِمْ مِنْ آجِنِ الماءِ أكْدَرا [٩]

وهذا أبو دؤاد الإيادي يبعث في نفس المتلقي عجبا عندما يصل إلى منهل يصعب على القوم أن يصلوا

---

(١) الأصمعيات ، ص ١٠٧ . جمهرة أشعار العرب ، ص٤٦٧ .

(٢) وقوله : « نصحتُ لعارض : وعارض قوم من بني جشم ، كان دريد نهاهم عن النزول حيث نزلوا ، وبنو السوداء : منهم » البغدادي ، خزانة الأدب ، ١١: ٢٨٢ .

(٣) الأصمعيات ، ص١٢٥. وشَلُّ الثوب : خياطته خياطةً خفيفةً . والطريق الشكس الذي يصعب الذهاب فيه . والصَّوْحَان : جانبا الجبل . مَخاصِر : باردة .

(٤) البيض : الغدران . أقرّها : تركها . الجُبَار : السَّيْلُ . القَراقِر : الأصوات ، أرادَ أنَّ السيل عظيم قد قلع الصخر من مواضعه .

(٥) شرح الديوان ، ص٤٩ .

(٦) الشَّطْبَةُ : الطويلة . تدفّ : كأنها تطير قريباً من الأرض . المتمطر : الذي أصابه المطر .

(٧) المُعَصَّرُ : الملجأ المنجاة ، يقول : إن قيس بن جزءٍ لم يُقم إلاّ لأمر أصابه، فقد لسعته حيّةٌ فسرى أصحابهُ وأقام هو .

(٨) شرح الديوان ، ص٢٦١ .

(٩) الجبا : ما حول البئر والجمع أجباء . والماء الأجن : المتغير الطعم واللون .

إليه فيقول :

ومنهـــل لا يبيتُ القــومُ حَضْرَتَهُ مِنَ المخافةِ أجْنٍ مــاؤُه طــامِي [١]

وقد بقي مفهوم القوم يعني الجماعة المحاربة حتى أصبح في شعر عَبَدة بن الطبيبِ يعني الجيش الإسلامي الخارج لمحاربةِ الفرس قال يصف الجيش الإسلامي :

أوْردْتُه القومَ قدْ ران النّعاسُ بِهِـمْ فقلتُ إذْ نَهلوا مِنْ جَمّهِ قُيلــوا [٢]

ولكل قومٍ مِنَ المحاربين أميرٌ يقودهم كما يقول عَبّاس بن مرْداس السُّلَمي [٣] :

وبئس الأمْر أمرُ بني قِسِيٍّ بِوَجٍّ إذ تقسمــتِ الأمــورُ [٤]

أضَاعوا أمرَهُمْ ولَكُلِّ قوْمٍ أمــيرٌ والــدّوائرُ قَدْ تَدورُ

رأينا أن مفهوم القوم في الشعر الجاهلي يدلُ على جماعة الرجال المحاربين الذين يأخذون على أنفسهم مهمة الدفاع عن كيان القبيلة ، أو الأخذ بوترهم ، والنيل من خصومهم، والقوم إما يكونون خميسا ذا عددٍ كبير أو يكونون عدداً معدوداً من الرجال يدعوهم داع للفتك بأعدائهم لايقلون عنهم بأساً ، وكل قوم لهم أمير يسوسهم ، ويدير أمرهم ، ويجتاز بهم الوِهَادَ والقفارَ ، والمسالكَ المُوحِشة ، والوصولُ الى الماءِ أمر لا يقلُّ شأناً عن خوض المعركة والفتك بالأعداء ، وهم قادرون على ذلك لأنهم يمتازون بالقوّةِ والعزمِ على تحقيق أهدافهم ينضافُ إلى قوتهم وعزمهم استعدادُهُمْ لملمّاتِ الخطوب من غزوات دائمة وأيام عِجَافٍ .

ثانياً : أمّا الضّربُ الثاني فهم : المحاربون الأعداء و ثمة شعر يتحدث عن هؤلاء الأعداءِ ، ويطلق عليهم مفهوم القوم ، وقد جاء ذلك صريحاً في قول الأعشى يخاطب ناقته :

فَمــا أجْشِمْتِ من اتْيانِ قَــــومٍ هُمُ الأعــــداءُ والأكبادُ سُوْدُ [٥]

فالقوم في البيت تدل دلالة واضحة على أنهم أعداء ، ذوو أكباد سود ، وفي هذا كناية عن العداوة والضغينة الملازمة لهم ، وتقول الخِرْنَقُ في رثاءِ زوجها بِشْربن عمرو [٦] :

ألا ذَهَبَ الحــلالُ فــي القَفَراتِ وَمَنْ يَمْلأ الجِفــانَ فــي الحَجَراتِ

---

(١) ديوانه في دراسات في الأدب العربي ، ص٣٣٤ .

(٢) شعره ، ص٧٢ .

(٣) الديوان ، ص٥٠ .

(٤) وَجٌّ : اسم وادٍ بالطائف .

(٥) الديوان ، ص٣٢٣ .

(٦) الديوان ، ص٤٨ ، ٤٩ .

ومَنْ يَرْجِعُ الرُّمْحَ الأصـــمَ كُعُوبُه عليـــهِ دِمَاءُ القومِ كالشُّقَرَاتِ [١]

وهذا الأعشى يُخاطِبُ أعْدَاءَه متحدياً لهم ، فقومه قد حاربوا أقواماً كثيرة فتركوهم يتخبطون في دمائهم ، فإذا كان قائد قوم الأعشى قَدْ قُتل فلن يسلم قائدهم و لم يكتفِ بذلك بل أضاف القوم الأعداء إلى «ناء» المتكلم لما في ذلك من تهكّم وسُخْرية يقول [٢] :

لئن قتلتُمْ عميداً لم يكنْ صَدَداً لنقتلنْ مثله منكـــــمْ فنمتثِلُ [٣]

لئن مُنيتَ بنَا عَنْ غِبِّ مَعْرَكَةٍ لا تُلفِنَا عِنْ دِمَاءِ القوم نَنْتَقِلُ

لا تنتهونَ ولنْ يُنْهَى ذوي شططٍ كالطَّعْنِ يَهْلِكُ فيه الزيتُ والفُتُلُ

حتى يظلَّ عَمِيدُ القومِ مُرْتفقا يدفعُ بالرّاح عنهُ نِسْوَةٌ عُجُلُ

أصَابَهُ هُنْدُوانيٌّ فأقْصَده أو ذابلٌ مِنْ رِمَاحِ الخطِّ مُعْتدِلُ

كلاَّ زَعَمْتُم بأنَّا لا نُقاتلُكم إنّا لأمثالِكُمْ ياقومَنا قُتلُ

نَحْنُ الفوارسُ يومَ الجِنْوِ ضاحيةً جَنْبَـــيْ فُطَيْمَةَ لامِيلٌ ولا عُزُلُ [٤]

ويصف عمرو بن كلثوم أعداءه الذين يكونون في الحربِ طحينا لرماحهم [٥] :

مَتى تُنْقَلْ إلى قومٍ رَحَانَا يكونوا في اللقاءِ لها طحِينَا

ويقول عنترة [٦] :

لَمّا رأيْتُ القَوْمَ أقْبَلَ جَمْعُهُمْ يَتذامَرُونَ كَرَرْتُ غيرَ مُذَمَّمِ

ويذكر طرفةُ أنّه عندما تحينُ ساعةُ اللقاءِ تجده مُسْرِعاً إلى سِلاحِهِ ليمْنَعَ نفسَه من القوم يقول [٧] :

إذا ابْتَدَرَ القومُ السِّلاحَ وَجَدتني مَنِيعاً إذَا بَلَّتْ بِقائِمِهِ يَدِي

ونجدُ الشَّنْفرى يصفُ أعداءَهُ بني سَلامان بالقوم [٨] :

---

(١) الأشقر من الدم : الذي صار عَلَقاً يقال : دم أشقر ، وهو الذي صار علقا و لم يَعلُهُ غبارٌ.

(٢) الديوان ، ص٦٣ .

(٣) صدد الشيء : المقابل له أو القريب منه . نمتثلُ : نختار الأمثلَ والأحسنَ .

(٤) يوم الجِنو : من أيام العرب ، وهو حنوذي قار . فُطَيْمَةُ : تصغير فاطمة وهو موضع بالبحرين كانت به وقعة بين بني شيبان وضُبيعة وتغلب من ربيعة ظهرت فيه تغلب على بني شيبان.

(٥) شرح القصائد العشر ، ص٢٦٤ .

(٦) الديوان ، ص٢١٦ .

(٧) الديوان ، ص٤٣ .

(٨) المفضليات ، ص١١٢ .

جَزَينَا سلامَانَ بنَ مُفرِج قَرْضَهَا بمـــا قدَّمـــــتْ أيْدِيهُمُ وأزَلَّتِ [١]

وهنِّيءَ بي قومٌ وَمَا إنْ هَنَأْتُهمْ وأصْبحتُ في قومٍ وليْسُوا بِمُنيَتي

ويقول بِشْرُ بنُ أبي خَازِمٍ الأسَدِي [٢] :

وَكَمْ مِنْ جَمْعِ قَوْمٍ قدْ تَرَكْنا ضبَاعَ الجوُّ فِيهِمْ والنُّسُوْرَا

ويقول عامربن الطفيل [٣] :

وإنْ مَرَّتْ على قَوْمٍ أعَادٍ بِساحَتِهِمْ فَقَدْ خَسِرُوا وَ خَابُوا

ويقول :[٤]

وإذ قَومي لأسْرَتِهَا عَدُوّ لتُبْلـــي بَيْنَنَا سَجْلاً وِخَامـــا [٥]

فإن يمنعْكِ : قومُكِ أنْ تبيني فـقـــد نَغْنَى بِعَارِمَةٍ سِلامَا [٦]

فقوم الشاعر لقومها عدو والحرب بينهما سجال ، ويقول المهلهل [٧]:

ومِنّا إذا بَلَغَ الصَّبيُّ فِطامَهُ سَاسَ الأُمُوْرَ وَحَارَبَ الأقْوامَا

ويقول عبدُ قيس بن خُفَاف [٨] :

وإذا لقيتَ القومَ فاضْرِبْ فيهِمُ حتَّى يَرَوْكَ طِلاءَ أجْرَبَ مُهْمَلِ

ويقول الأخنسُ بن شِهَابٍ التغلبي [٩] :

وإن قَصُرَتْ أسْيَافُنا كان وَصْلُها خُطَانَا إلى القَومِ الذِيْنَ نُضَارِبُ

ويقول لبيد في أخيه أرْبَد[١٠] :

---

(١) بنو سلامان بن مُفرج بن مالك بن زهران ، بطن منهم كان الشنفرى الفاتك ، وكان يغير عليهم ، لأنهم قتل رجلٌ منهم : أباه فلم يطلبوا بثأره فلحق ببني فَهْم بن عمرو بن قيس بن عيلان بن مُضر ، وكانوا أخواله . انظر : جمهرة أنساب العرب ، ص٣٨٦ ، ص٤٧٤ .

(٢) الديوان ، ص٩٣ .

(٣) الديوان ، ص ٢١.

(٤) المصدر السابق ، ص١٠٧ .

(٥) السَّجلُ : الدَّلو . والوِخَام ، جمع وَخْم وهو الوبيءُ .

(٦) السِّلام : السِّلم . وعارِمَة : أرض لبني عامر .

(٧) الأصمعيات ، ص١٥٦ .

(٨) المفضليات ، ص٣٨٥ .

(٩) المصدر السابق ، ص ٢٠٧ .

(١٠) شرح الديوان ، ص١٦٣ . وذكر الطُّوسي في شرح هذا البيت: « أنّ القوم : الجماعة من الرجال دون النساء ، والمراد هنا الأعداء » شرح ديوان لبيد ، ص ١٦٣ .

ويصدُّ عنّا الظالمين إذا لقينَا القومَ صيْدا

ويذكر لبيد أنه يرمي أعداءه بالسِّهَامِ التي لا تخطيءُ هدفَها :

ورميْتُ القومَ رِشْقاً صَائباً ليْسَ بالعُصْـــلِ ولا بالـمُقْتَعِلْ [1]

وقال لبيد يصف قوة قومهِ وبطشهم بالقوم الأعداء الذين يريدون انتقاصَ فَعالهم وهدم مابنوه من عزٍّ سَامِقٍ [2] :

ضَرَبْنَا سَراةَ القَومِ حتّى توجهوا سِرَاعاً وقَدْ بلَّ النجيعُ المحَامِلا

نُؤدِّي العظيمَ للجوارِ، ونبْتَني فَعالاً وقد تُنْكِي العَدُوَّ الـمُسَاجِلا

لنا سُنَّةٌ عَادِيَّةٌ نقتَدِي بها وسَنَّتْ لأخرانا وفاءً ونائلاً

يُذَبذِبُ أقواماً يُرِيْدُوْنَ هَدْمَها نيافٌ يَئِدُّ الواسعَ المتطاوِلا

صَبَرْنا لهم في كلِّ يومٍ عظيمةٍ بأسْيَافِنَا حتَّى عَلَوْنَـــا المـــنَاقِلا [3]

ويذكر عنترة فعله بأعدائهِ حتى تركهم بين جريح وصريع يقول [4] :

إمّا تريني قدْ نَحلتُ ومَنْ يكنْ عَرَضاً لأطرافِ الأسنَّةِ يَنْحَلِ

فَلربَّ أبْلجَ مثلَ بَعْلكِ بادنٍ ضخْمٍ على ظَهْرِ الجوادِ مُهبَّلِ [5]

غادرتُهُ مُتعفِّراً أوْصَالُه والقومُ بينَ مُجرّح ومُجدَّلِ

ويقول خُفافُ بنُ نُدبَة السُّلميُّ [6] :

فلما رأيْتُ القومَ لاوُدَّ بينهمْ شَرِيحيْنِ شتَّى طالباً وَمُوَاشِكا [7]

تيممْتُ كبشَ القومِ حتّى عرفتُهُ وجَانبْتُ شُبانَ الرِّجالِ الصُّعَالِكا

فكبشُ القومِ هو قائدُ الأعداء ، فالشاعر عرف أن قوة القوم ، وهم الأعداءُ تكمن في قائدِهم ، ولابدَّ من هزيمة هؤلاءِ القومِ ، ولايكون ذلك إلاّ بمعرفةِ قائدِهم فالقضاءُ عليه هو مصدرٌ من مصادرِ إضعاف القوم

(١) المصدر السابق . ص ١٩٤ . والعُصْلُ : المُعْوَجَّةُ . المقتعلُ : هو السَّهمُ الذي لم يُبْرَ بريا جيّداً .

(٢) شرح الديوان ، ص٢٥٢ .

(٣) المناقل : الثنايا ، أي أن قومَه طلاعو الثنايا .

(٤) الديوان ، ص٢٥٦ ، ٢٥٧ .

(٥) المهبَّلُ : اللَّحيمُ المورَّمُ الوَجهِ .

(٦) شعره ، ص٦٥ .

(٧) الشَّرِيْحانِ : النوعان . والمواشك : السَّريعُ .

وتشتيتهم وكان الجاهليون يحرصون على حمايةِ المحارم من غارات القوم الأعداء وفي ذلك يقول الطُّفَيْل الغَنَوي [١] :

مَحـارمَك امنعْهـا مِنَ القومِ إنّني أرَى جَفْنَةً قدْ ضاعَ فِيْها المحَارِم [٢]

ونجدُ الحطيئة في مدحه عُيَيْنَة بن حصن الفَزَارِي لما قتلتْ بنو عامرٍ ابنَه مالكاً فغزاهم فأدرك ثأرَهُ وَغَنِمَ يصف بني عامر الأعداء بالقوم فيقول [٣] :

وقـومٍ لحـا لخوالعِصِيِّ فأصْبَحَوا مَرَامِيـلَ بَعْدَ الوَفْرِ بِيْضَ المَبَارِكِ [٤]

ويذكر الأعشى أن إياس بن قبيصة يوم ينوي غزو قومٍ يذيقهم الموت يقول [٥] :

إذَا مَا سَارَ نَحْوَ بِـــلادِ قَـــوْمٍ أزارَهُمُ المنـــيَّةَ والحِمَامَـــا

وحربُ الأقوام هي مهِمَّةٌ عَسِيرَةٌ ولذلك يقولُ حَاجِزُ بنُ عَوْفِ الأزديُّ [٦]:

عَدَانِي أنْ أزورَكِ حَرْبُ قَـــوْمٍ كحـــرِّ النَّارِ ثاقِبَـــةٌ عَذَوْمُ [٧]

ونجدُ عمروَ بنَ براقة يُصر على حرب القوم الذين يغزونه ، فهم أعداء ولذلك يرفضُ الصّلحَ حتى يحاربَهم يقول [٨] :

وكنتُ إذا قومٌ غَزَوْني غزوتُهم فهلْ أنا في ذا يآل هَمْدَانَ ظالمُ

فلا صُلحَ حتى تُقْرعَ الخيلُ بالقنا وتُضربَ بِالبيضِ الرِّقابُ الجماجمُ

فالقوم الذين يغزون عمرو بن براقة هم الجماعة من الرجال المحاربين ، وإذا كانت هذه حال عمرو فإن أوس بن حجر يتوجه إلى الله ليحميه من أولئك الأقوام الذين يريدونَ قتله يقول [٩] :

فـــإن يَهْوَ أقوامٌ رَدَايَ فإنمـــا يقينـــي الإلهُ مَا وَقَـــى وأُصَادِفُ

---

(١) الديوان ، ص١١٠

(٢) حُرمة الرجل : حَرَمُهُ وأهله ، وحَرَمُ الرجل وحريمه : مايقاتل عنه ويحميه .

(٣) الديوان ، ص٣٠ .

(٤) بيض المبارك : أي ليس في أعطانهم سَوَادُ إبل : أي أخذ كل شيءٍ لهم فَصَارت مباركهم لا إبل فيها .

(٥) الديوان ،ص١٩٩ .

(٦) قصائد جاهلية نادرة ، ص٧١ .

(٧) عذم : عضّ ، وفرسٌ عَذِمٌ وعَذُومٌ : عَضُوضٌ .

(٨) الأغاني : ٢١ :١٩٩. العقد الفريد ، ١: ١٠٧. الحماسة البصرية ، ١: ١١٢ . الهمْدَاني ، صفة جزيرة العرب ، ص١٨٧ . قصائد جاهلية نادرة ، ص١٠١ .

(٩) الديوان ، ص٦٤ .

والقوم الذين يُراد بهم الأعداء ينصفون أحياناً ، ولا ينقص من قدرهم ، وهذا يدخل في شعر المُنصِفات، وفي هذا دلالةٌ على قوةِ القوم الأعداء ، وشدةِ بأسهم يقول عامربن الطفيل [١] :

إنْ أغزُ زُبَيْداً أغزُ قوماً أعِزَّةً مُرَكَّبُهُمُ في الحيِّ خيرُ مُرَكَّبِ

ويقول الطفيل الغنوي [٢] :

فَذُوقُوا كما ذُقْنَا غَدَاةَ مُحجِّرٍ من الغيْظِ في أجْوافِنا والتحوّب [٣]

أبَأنا بقَتلانَا مِنَ القومِ مِثلِهِمْ وَمَا لا يُعَدُّ مِنْ أسيرٍ مُكلَّبِ

وقال قيْسُ بنُ الخَطِيم [٤] :

وَقَوماً أبحْنا حِمَى مَجْدِهِمْ وَكانوا لمَنْ يعتريْهِمْ سَناما

ويُذكرُ أنَّ ثمةَ شعراً يعزو قوة القوم إلى ما يدّرعون به كما يذكر العباسُ بنُ مِرْداس [٥]:

ولو ماتَ مِنْهُمْ مَنْ جَرحْنا لأصبحتْ ضِباعٌ بأكنافِ الأراكِ عَرائسَا

ولكنّهم في الفارِسيِّ فلا يُرى من القومِ إلا في المضَاعفِ لابِسَا

ونرى مما سبق أن من دلالات القوم في الشعر الجاهلي الأعداء المحاربين الذين يُخشى جانبهم ، ويمتازونَ بالقوةِ والبأسِ الشديدين ، ولذلك وجِدَ بعضُ الشعرِ الذي ينصفهم .

هـ. القوم : الصحب

وثمة دلالة أخرى للقوم في الشعر الجاهلي ، هي الصحب فلكل امرئٍ أصحاب يصطفيهم لنفسه ، ويطمئن إليهم في أيام اليسر ، وساعات العسر ، وهؤلاء الأصحاب قد يكونون مخلصين في صداقتهم يؤثرون على أنفسهم ولو كانَ بِهم خَصَاصَةٌ لا يتغون من وراء ذلك جزاءً ، وقد يكونون غير ذلك ، يتنكرون للعهد ، ولا يوفون بشيءٍ مما تقتضيهِ الصداقةُ ومن خير الوصايا التي يوصى بها لاختيار الصحب ما وصّى به عديُ بن زيد العباديُّ في قوله [٦] :

---

(١) الديوان ، ص٢٧ .

(٢) الديوان ، ص٣٢ .

(٣) مُحَجّر : مكان الموقعة التي كانت بين غَنيٍّ وطيءٍ.

(٤) الديوان ، ص١٥١ .

(٥) الديوان ، ص٧٠ .

(٦) الديوان ، ص١٠٧ .

إذا كنتَ في قَوْمٍ فَصَاحِبْ خيارَهُمْ ولا تَصْحَبِ الأَرْدَى فَتَردَى مَعَ الرَّدي

فالقوم وهم الصحب يكون فيهم الحسن والرَّديءُ ، ولا شك أنّ مُصَاحَبَةَ الرَّديءِ تودي إلى التهلكة ، أما عباس بنُ مِرْداسٍ فهوَ يأخذ بوصيةِ والده فيقول على لسانه [١] :

لا تبخلنّ بمالٍ عَنْ مذَاهِبِهِ فـي غَيْرَ زلَّةِ إسْرَافٍ ولا تَغَبِ [٢]

فإنّ ورّاثَهُ لن يحمْدوكَ بهِ إذا أجنـوك بين اللـبنِ والخَشَبِ [٣]

واتْرُكْ خلائِقَ قَومٍ لاخلاق لهم واعمدْ لأخْلاقِ أهْلِ الفضْلِ والأدَبِ

فخلائق الذين لا نصيب لهم من الأخلاق غير مرغوب في صداقتهم لأن طبائعهم تنغّصُ على صحابهم، فهي كالمرض الذي يُقْعِدُ صاحبَه فلا يقوى على النهوض ومساعدة الآخرين كما يقول قيس بن الخطيم [٤] :

وما بَعْضُ الإقامَةِ في دِيارٍ يَكونُ بها الفَتَى إلا عَنَاءُ

ولمْ أرَ كامرئٍ يدنُو لخسْفٍ لهُ في الأرضِ سَيْرٌ وانتواءُ

وبعضُ خلائقِ الأقوامِ دَاء كَدَاءِ الكـسْحِ ليْسَ لهُ شِفاءُ [٥]

ومن الأصحاب الندامي والشُّربُ حيث يجلسون في نادٍ يلهون ويشربونَ الخمرةَ المعتقةَ ، ويطربون لصوت فتاةٍ جميلةِ الوجه واللسان ، فتشدو لهم ، غير حافلين بالوقت إنما همهم أنْ يستمتعوا ما وسعهم ذلك، وهذا مايذكره الأسْودُ بنُ يعفُرٍ النهْشَليُ فيقول [٦] :

وقدْ سَبَأتُ لِفتيانٍ ذويْ كَرَمٍ قبْلَ الصَّباحِ ولمّا تُقرَعُ النُّقُسُ [٧]

صِرْفاً وممزوجة كأنّ شَارِبَها وإن تشدَّدَ أنِ يَهْتَابَهُ هَوَسُ

ثُمَّ ظللنا تُغني القومَ داجنةٌ لعـساءُ لا تَعلُ فيها ولا كَسَسُ [٨]

---

(١) الديوان ، ص٣١ ، ٣٢. وينسب هذا الشعر إلى خفاف بن ندبة ، انظر : شعره ، ص١٢٥ .

(٢) التَّغَبُ : السقط وما يعاب على المرء، وهو جمع تُغبة .

(٣) أجنوك : دفنوك .

(٤) الديوان ، ص٩٦ ، ٩٧ .

(٥) الكسحُ: العَجزُ .

(٦) الديوان ، ص٤١ ، ٤٢ .

(٧) النُّقُسُ: جمع نَقْسٍ وناقوس .

(٨) اللعسُ : سوادٌ مستحسَن في الشفةِ . والعَلُ : السِّنُّ الزائدة خلف الأسنانِ . والكسَسُ : قِصَرُ الأسنان وصغرها .

والأخوة هي أعلى درجات الصداقة ، فنجد النَّمِرَ بنَ تَوْلَبَ – وهو مَن المخضرمين – يطلق مفهوم القوم على الإخوة ، فيقول في رثاء إخوته [١] :

وَمَقَابِرٍ بَيْنَ الرُّسَيس وعَاقِل دَرَسَتْ وفيهـا منجبـون كِرامُ

جَزَعاً جَزَعْتُ عليهمُ فَدَعَوْتُهمْ وَسَرى فَقَدْ يتفـرَّقُ الأقْوَامُ

فالموت مُفَرِّقُ الإخوان ، ومُشتِّتُ الصحبِ ، فلا مناصَ مِنْ عِقالهِ ولا مهربَ مِنْ أسبابهِ .

و . القوم: الجنس

كان العرب في شبه الجزيرة العربية قبائلَ متنافرةً ، وطرائقَ قِدَدا ، لا تضمُهم وحدةٌ سياسيةٌ ولا يجمعهم مُلك واحدٌ يجمعُ أمرهم ليكوّن منهم دولةً عربيةً واحدةً ، وشعباً ملتئما مُتحداً كدولتي الفرس والروم «وذلك أنّ الإنسان العربيَّ لم يستخدمْ جنسيتَه ليكوِّنَ على أساسِها وحدةً شاملةً تتناولُ عشائره جميعا فيصبح ذا شعبٍ أو دولةٍ رئيسة ، وإنما كان يعيش في أفقٍ ضيِّقٍ غالباً هو القبيلة التي انطوت عليه وفني فيها فحصرت أفقه ورسمت له عصبيته[٢]» فكانت كل قبيلة تعتبرُ نفسَها أمةً برأسِها «وهذا هو السبب فيما شجر بينهم من الغاراتِ والحروبِ لكنهم بالنسبةِ للأجنبي أمةٌ واحدةٌ »[٣] فقد كانت لفظة العرب وهي بمعنى التبدي والأعرابية في كل اللغاتِ الساميةِ تشملُ أكثر العرب على اعتبار أنهم أهل بادية ، وأنّ حياتهم حياةُ أعراب ، ومن هنا غلبتْ عليهم وعلى بلادهم ، وأطلق لذلك كتبةُ اللاتين واليونان على بلاد العرب لفظة (ARABIA) أي العربية بمعنى بلاد العرب[٤] . فكانت الأقوامُ غيرُ العربية تنظر إلى العرب على أنهم شعبٌ واحدٌ ، وأمةٌ ذاتُ جُرثومةٍ واحدةٍ وقومٌ يملكون أسباب التآلفِ والتقارب الشديد « وعلى الرغم من تشتت العربِ السياسيِّ ، ربطتْ بينهم قَبْلَ الإسلام وَحَدَةٌ معينة في أفكارِ الديانةِ والعاداتِ وجعلتْ منهم أمَّةً واحدةً »[٥]

لقَدْ كانت النظرةُ القبليةُ متغلغلة في وجدانِ العربيِّ عَبْرَ التاريخ ، ولكنها في العصرِ الجاهليِّ أكثرُ عمقاً وظهوراً من أي عصر آخرَ ، ومن هنا كان الهمُّ القبليُّ هو المسيطرُ فكان الشاعرُ لسانَ القبيلة ، الناطق بمآثرها، والذائد عن أنسابها وأيامها ، والمصوِّر لماضيها وحاضرها ، والمستشرفَ لمستقبلها ، ومن الحق أن يقال : إن

(١) شعره ، ص٩٨ .

(٢) أحمد الشايب ، تاريخ الشعر السياسي ، ص٢٤ .

(٣) حمزة فتح الله ، المواهب الفتحيه ،ص ٢٢٧ .

(٤) جواد علي ، المفصل ، ١: ٢٦ ، ٢٧ .

(٥) كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، ١: ٤٢ .

الانتماء القومي كان مظهراً مستتراً وراء ستار العصبية القبلية لا يظهر إلا لماما خاصة عندما يواجه العربيُ الأقوام الأخرى ، فيشعر بالانتقاص من كبرياء الشخصية العربية ، فحينما غضَّ كِسْرَى من شأن العرب وفضل الأقوام الأخرى عليها ردّ عليه النُّعْمَان بنُ المُنذِرِ مدافعا عن العرب ومفضلاً إياهم على تلك الأقوام وذلك «بعزة العرب ومنعتهم وحسنِ وجوههم وبأسِهم وسخائهم وحكمة ألسنتهم وشدةِ عقولهم وأنفَتِهم ووفائهم»[1] ، ولم يكتفِ النعمانُ بذلك بل ردَّ اتهامات كسرى ، «فعندماقدم الحيرةَ وفي نفسه ما فيها مما سمع من كسرى من تنقص العرب وتهجين أمرهم ، بعث إلى أكثم بن صَيْفي وحاجِب بن زُرارة التميميين ، وإلى الحارث بن عُباد ، وقيس بن مسعود البكريّين ، وإلى خالد بن جعفر وَعَلقَمة بن عُلاثة ، وعامر بن الطفَيْل العامريّينِ ، وإلى عمرو بن الشّريد السُّلمي ، وعمرو بن مَعْد يكْرِب الزُّبيدي ، والحارث بن ظالم المُرّيّ ؛ فلما قدموا عليه في الخورنق ، قال لهم : قدْ عرفتم هذه الأعاجم وقُرْبَ جوارِ العرب منها ، وقد سمعتُ من كسرى مقالاتٍ تخوَّفتُ أن يكون لها غور ، وأن يكون إنما أظهرَها لأمْرٍ أرادَ أنْ يتخذ به العرب خَوَلاً كبعض طماطمتهِ في تأديتهم الخراج إليه ، كما يفعل بملوك الأمم الذين حوله »[2] وبعث هؤلاء الأعيان إلى كسرى ليذودوا عن العرب ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . وعلى الرغم من ذلك الشعور لم يصل إلينا شعرينطلق من رؤية عربيةٍ ممتدة ، وهم جماعي ، ونجد شعراً يصف كُلاً من الفرسِ والروم بالقومِ ،كقول لقيط الإيادي يحذر قومه إياداً من غزو الفرس [3] :

بل أيُّها الراكبُ المُزْجي عَلَى عَجَلٍ ... نحوَ الجزيرَةِ مُرْتَاداً ومُنتَجعَا

أبلغ إياداً وخلِّلْ في سراتِهم ... إنّي أرى الرأي إن لمْ أعْصَ قدْ نَصَعا [4]

يالهفَ نفسيَ إن كانتْ أمورُكمُ ... شتّى ، وأحْكِمَ أمرُ النّاسِ فاجْتمعا

ألا تخافونَ قوماً لاأبا لكمُ ... أمسَوا إليكمْ كأمثالِ الدُّبا سُرُعا [5]

أبناءُ قومٍ تأووكمْ على حَنَقٍ ... لا يشْعُرُونَ أضرَّ اللهُ أمْ نفعا [6]

أحرارُ فارسَ أبناءُ الملوكِ لهمْ ... مِنَ الجُموعِ جموعٌ تزدهيْ القَلعا [7]

فالفرس قوم مجتمعون قد أحكم أمرهم ، واستعدوا لمحاربة إياد والقضاءِ عليها ، بعد أن جمعوا الجموعَ

(١) العقد الفريد ، ١: ٢٢٩.

(٢) المصدر السابق ، ص٢٣١ .

(٣) الديوان ، ص ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ .

(٤) خَلِّلْ : أي خُصَّ بإبلاغك إياهم رسالتي . نصع : لا شبهة فيه .

(٥) الدُّبا :صغار الجراد ، و الواحدة : دُباة ، شبههم بالجراد في سرعتهم .

(٦) تأووكم : من أويت إلى الرجل ، أي : أووا إليكم على غيظ وغضب .

(٧) تزدهي : تستخفُّ . والقلع : الصخور العظام ، والواحدة : قلعة .

فأضحوا قوةً عظيمةً ، تهتزّ لمسيرها الجبالُ ، ويُحترَز من لقائها ، فقد أطلقَ الشاعرُ على الفرس مفهومَ القومِ ، وهو مفهومٌ مرتبطٌ معناه بالقوة والعزم ، وقد وصفتهم صفيةُ بنتُ ثعلبة الشيبانيةُ أيضاً بالقوم ، فقالتْ تخاطبُ بني يشكرَ وعليهم ظليمُ بن الحارثِ [١] :

احمل ظليمُ في العَجاج الأسْودِ ... فـفيهِ عـروٌ كـالهِزَبْرِ الأربَدِ [٢]

يَضْرِبُ بالـمُشَطَّبِ المهنَّدِ ... بسـاعدٍ ذيْ نَجْدَةٍ مُؤيدِ

أدركْ فأنتَ غايةُ المستنجدِ ... واعدُ على القومِ كعدوِ الأسَدِ

بذيْ جَنانٍ كالصَّفاءِ الأصْلدِ ... باليشكريينَ كِرامِ الـمُحتَدِ [٣]

وَ مما ينسبُ لامرئِ القيسِ قولهُ حينما هلك بأرضِ الروم ، فوصف الروم بالقوم قائلا [٤] :

ألا أبلغْ بنيْ حُجْرِ بنِ عمْرو ... وأبـلغْ ذلك الحـيَّ الحريْدا [٥]

بأنّيْ قَدْ بقيتُ بقاءَ نَفْسٍ ... ولـم أخلقْ سِلاماً أو حَدِيْدا [٦]

فَلو أنّي هَلكتُ بدارِ قوميْ ... لقلتُ الموتُ حَقٌّ لا خُلودا

ولكنّي هَلكتُ بدارِ قومٍ ... بَعيـدٌ مـن دِياركـمُ بَعيدَا

وعلى الرغم مما أثير من شك حول رحلة امرئ القيس إلى بلاد الروم إلاّ أنَّ دلالة القوم في البيتِ الرَّابع لغةً تعني بلادَ الروم ، ونخلص إلى أن كلمة القوم قد اطلقت على الفرسِ والرومِ وهم من الأجناس غير العربية، ومن الباحثين الذين اطلقوا كلمة القوم على الأجناس الدكتور نصرت عبد الرحمن فجعل الفرس والروم والهنودَ والأنباطَ أقْواماً [٧] .

---

(١) بشير يموت ، شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام ، ص١٩ .

(٢) العرو : الذي يغشي غيره . والأربد : الأغبر .

(٣) الصَّفاء الأصلَدُ: الصَّخرُ الأملسُ . وكرام المحتد : كرام الأصل .

(٤) الديوان ، ص٢١٤ .

(٥) الحي الحريد : المنفرد المعتزل .

(٦) السِّلام : الحجارة الصُّلبةُ .

(٨) الصورة الفنية في الشعر الجاهلي ، ص٢٣٠ ، ٢٣٥ ، ٢٤٠ .

ز. القوم : دلالة خاصة

ومما يلفت ويغري بالوقوف والنظر ما وردَ في لآمية الشنْفَرَى من دلالة القوم على الحيوان ، وهذه دلالة غريبةٌ وطريفة، تعد لآمية الشنفرى من عيون الشعر العربي ، فهي تصوّر حياة الصعاليك في العصر الجاهلي تصويراً دقيقاً ، وتظهرُ فلسفة خاصةً لأولئك النفر من الصعاليك ، وقد حظيت القصيدةُ بعناية العلماءِ قديماً وحديثاً ، وكان أوّل من ذكر ذلك أبو علي القالي في الأمالي فروى عن أبن دريد قوله :« إن القصيدة المنسوبة إلى الشنفرى التي أولها : أقيموا بني أمي صدورَ مطيكم ..لخلفِ الأحمر »[1] وتابع ابن دريد في هذا القول بعضُ الباحثين المحدثين ، وأقاموا إلى جانبه أدلة تنفي نسبة اللآمية للشنفرى ومن هؤلاء الباحثين المستشرق كرنكو الذي ذكر « أن القالي استقى نحو ثلثي كتابه من ابن دُرَيْدٍ ، وكان ابنُ دُرَيدٍ حَسَنَ الدِّرَاية بنشاط علماء مدرسة البصرة ، ولم يكن يفصل بينه وبين خلفِ الأحمرِ سوى قرنين من الزمان ، ومن ثمَّ نستطيع أن نقول بصفة عامة : أن معلوماته مستقاة من تلاميذ الأصمعي أي من خلف »[2]

ويذكر كرنكو « أن العلماء الأولين لم يكن لديهم علمٌ بهذه القصيدة كابن قتيبة والأصْبَهَاني »[3] ويرى أن القصيدة «تفتقر إلى أسماء المواضع وأسماء الأعلام وهذا غير مألوف في الأشعار القديمة »[4] ويختم حديثه بقوله :« وهذا يثير فينا الشك لأن القصيدة التي بين أيدينا ليست قطعة وإنما قصيدةٌ كاملةٌ متجانسة»[5]

ويضيفُ الدكتور يُوسُف خُليف إلى ذلك : « أنَّ هذه اللاميةَ طويلة طولاً ليس مألوفاً في شعر الصعاليك، وأن لسان العرب على كثرة ما نقل من شعرالصعاليك لم يرد فيه أيُّ ذكرٍ لها ولا أي بيت لها»[6] ويرجح أن واضعها خلف الأحمر .

ومع قوة هذه الأدلة إلا أنها لا تصل إلى درجة اليقين فمصدرها هو ما أورده أبو علي القالي من حديث ابن دريد الذي رأى أن القصيدة تُنسبُ لخلف الأحمر ، ومما يشككُ في هذه الرواية أن القالي نفسه قد أورد القصيدة كاملة في النوادر[7] ونسبها للشنفرى دون أن يورد رأي ابن دريد في هذا الموضع .

وإذا كان ابن دريد (– ٣٢١هـ) نسبها لخلف الأحمر (–١٨٠هـ) عن تلاميذ الأصمعي (–٢١٦هـ) فإن الأصمعيَّ تلميذَ خلف الأحمر ومعاصره كان على دراية بهذهِ القصيدةِ ، فقد «روى الأصمعي أنّه كان بين يدي الرشيد في يوم قُرٍّ ، فدخل سعيد بن سليم ، فقال الرشيد لسعيد:«أنشدني في البَرْدِ» فأنشده لمُرَّةَ بنِ مَحْكان السُّعديِّ[8] فقال الرشيدُ:«غَيْرُ هذا » فأنشده الأصمعي ، فقال الرشيد: «أريد أبلغ من هذا » فأنشده :

---

(١) الأمالي ، ١: ١٥٦ .
(٢) دائرة المعارف الاسلامية ، ١٣ : ٣٥٦.
(٣) المصدر السابق ، ص٣٩٥ .
(٤) نفسه ، ص٣٩٦ .
(٥) نفسه ، ص٣٩٦ .
(٦) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، ص١٧٨ .
(٧) ص ٢٠٣ .
(٨) هو مُرَّةُ بن مَحْكان السُّعْدي التَّميمي (٠٠٠ – ٧٠هـ) شاعرٌ مُقِلٌّ يكنّى أبا الأضياف كان بينه وبين الفرزدق مُهاجَاةٌ ، قتله صاحبُ شرط مصعب بن الزبير.

وليلةِ قُرٍّ يصْطلي القوسَ ربُّها وأقْدُمُهُ الـلاتيْ بها يتنبّـــل

فقال الرّشيدُ : يا أصمعي حَسْبُك ما بعد هذا شيء» [1] وهذا البيت من لآمية الشنفرى .

ومن الباحثين المحدثين الذين نفوا نسبة اللامية لخلف الأحمر المستشرقان كارل بروكلمان وجورج ياكوب ، فيذكر بروكلمان: « أن القصائد التي وضعها خلفُ الأحمرُ تحتفظ دائماً بعمود الشعر القديم وطابعه، أما في لآمية الشّنْفَرى فيواجُهنا مذهبٌ شعريٌ مستقلٌ كما أكدّ ذلك بحق جورج ياكوب في تقديمه للآمية، وعلى حين يجعل الشعرُ الجاهليُ وصفَ الطبيعةِ من الجبالِ ، والفيافي وغيرها ، عرَضاً مقصوداً لذاته، يتخذ شاعر اللآمية هذا الوصفَ بمثابةِ منظر أساسي بهيج لتصوير الإنسان نفسه وأعماله وإذاً فليس هناك ما يحملنا على موافقة قدامى اللغويين الذين اقتفى أثرهم كرنكو »[2] .

وإذا كان الأصفهاني وابنُ قتيبة لم يوردا هذه القصيدة عند الحديث عن الشنفرى ، فإنهما لم ينسبا القصيدة لخلف الأحمر أو لغيره من الوضاعين ، وإذا كان ابن منظور لم يذكر أي بيت من اللآمية ، فإن غير هؤلاء العلماء قد اختاروها في مُصنّفَاتهم مثل الخالديين [3] ، والقالي [4] وابن ميمون [5] وابن الشجري [6] وعبد القادر البغدادي [7] كما توالى على شرحها اللغويون والنحاة ومن هؤلاء» ثعلب (-٢٩١هـ) وابن دريد (٣٢١هـ) والتبريزي (-٥٠٢هـ) والزمخشري (-٥٣٨هـ) والعكبري (-٦١٦هـ)، وابن زاكور المغربي (-١١٢١هـ) وعطاء الله بن أحمد المصري المكي (-١١٨٦هـ) وغير هؤلاء من العلماء»[8] وقد نالت لآمية الشنفرى شهرة واسعةً حتى عدّها كرنكو من أجمل آيات الشعر العربي ، وترجمت إلى عدة لغات أوروبية كما ترجمت إلى اللغة البولندية [9] . ومع أن الدكتور يوسف خليف يرجح أن اللآمية ليست للشنفرى إلا أنه يذكر أن « اخصَّ مايميز أسلوب الشنفرى الفني تلك الخشونة اللفظية التي تمثل اللغة البدوية الجاهلية أصدق تمثيل ، ثم تلك القوة التعبيرية التي تجعلُ أسلوبه أسلوباً محكماً لا رخاوة فيه ، هذا إلى جانب ما يمتاز به من صدق التصوير والصَّراحةِ في النقل عن الحياة »[10] والذي يُطالعُ قصيدة الشّنفرى يجد الخصائص التي ذكرها الدكتور يوسف خُليف مُتوافرة فيها ينضاف إلى هذا أنه لا يوجد فيها مايشكك في نسبتها إلى العصر الجاهليّ

(١) اليعْمُوري ، نور القبس ، ص١٣٤ .

(٢) تاريخ الأدب العربي ، ١: ١٠٥ .

(٣) الأشباه والنظائر ، ١: ٥١ .

(٤) النوادر ، ص ٢٠٣ .

(٥) مخطوطة منتهى الطلب لابن ميمون ، ٣ : ٢١١ .

(٦) مختارات ابن الشجري ، ص١٨ .

(٧) خزانة الأدب ، ٣ : ٣١٦ .

(٨) بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، ١: ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ .

(٩) دائرة المعارف الإسلامية ، ١٣ : ٣٩٥.

(١٠) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، ص٣٣٦.

فهي تعبر عن هذا العصر أصدق تعبير مما يجعلنا نطمئن إلى أنها آتيةٌ من العصر الجاهلي وأنَّ صاحبها من أهل ذلك العصر يقول الشنفرى في مطلع هذه اللآمية [1] :

أَقِيْمُوا بَنِيْ أُمِّيْ صُدورَ مَطِيِّكُمْ ... فإنِّي إلى قَومٍ سِوَاكُمْ لأَمْيَلُ

فَقَد حُمَّتِ الحَاجَاتُ والليلُ مُقْمِرٌ ... وَشُدَّتْ لطِيَاتٍ مَطَايا وأَرْحُلُ

وَفي الأَرْضِ منأىً للكريمِ عن الأذَى ... وفيها لِمَنْ خَافَ القِلى مُتَعَزَّلُ

لَعَمْرُكَ ما في الأرضِ ضِيقٌ على امْرئٍ ... سَرَى راغباً أَوْ راهباً وَهوَ يعقِلُ

ولِيْ دُونَكُمْ أَهْلُونَ سِيْدٌ عملَّسٌ ... وأَرقَطُ زُهلُولٌ وعَرْفَاء جيألُ [2]

فقد جَعَلَ الشَّنْفرى من الذئاب والنمور والضِّباع قوماً ، فاصطفاهم أهْلاً من دون قبيلتهِ ، فأنْ يتخذَ شاعرٌ مثل الشنفرى هذهِ الحيوانات قوماً ليسَ أمراً عسيراً ، وهو أحدُ الشعراءِ الصعاليكِ الذين خلعتهم قبائلهُمْ فخلعوها ، وآثروا حياة الصعلكة وتمردوا على الواقع الحياتي القبلي ، فكان الخروجُ إلى القِفارِ ، والإغارةُ على الأغنياءِ الموسرينَ ، وأخذُ حقوقهم وحقوقِ الفقراء جعلهم يشعرون باللاانتماء القبلي مما دَفَعَهُم إلى الاستئناس بالحيواناتِ المفترسة التي تعتمدُ قوتها الذاتية في الوصولِ إلى فريستها ، ولعل الشعراء الصعاليك، ومنهم الشَّنفرى نظروا إلى هذه الحيوانات نظرةً تأمليةً ، فوجدوا أن ثَمةَ عواملَ تجعلهم يشعرون بأن حياتهم تشبهُ حياة تلك الكائناتِ ومِنْ ثمّ وجدوا استعداداً نفسيا وجسمياً يدفعهم دَفعاً إلى التقرب منها ، ويغريهم ليتخذوها قَوماً فتكون خيراً من أولئك القوم أو الأهل من البشر .

وجاءت دعوة الشَّنفرى للخروج إلى الوحوش بَعْدَ أن شعر بالحَيْفِ من قبيلتهِ وبعد أن بدأت الضَّغينةُ تزدادُ فكان الملجأ هذه الوحوشَ لأنها لاتُذيْعُ سِرّ صاحبِها ولا تخذله في الخطوب ، ولأنّها أيضاً تمتاز بالقوة والإقدام ولهذا اتخذها الشَّنفرى قوماً يأنسُ بها كما تأنس بهِ .

---

(١) نوادر القالي ، ص ٢٠٣ . الأشباه والنظائر ،١:٥١. مخطوطة منتهى الطلب من أشعار العرب ، ٣ : ٢١١ . مختارات ابن الشجري ، ص ١٨ . خزانة الأدب ، ٣ : ٣١٦ . أعجب العجب في شرح لآميه العرب ، ص ، ي . العكبري ، شرح لآمية العرب ، ص١٦ - ٢٠ ، وفي النوادر ومنتهى الطلب : فإني إلى أهل سواكم لأميل .

(٢) السِّيْدُ : الذئب . العملسُ : السريع . الأرقط : النمر . الزهلول : الأملس . العرفاء : الضبع ذات الشعر الكثيف . والجيألُ : من أسماء الضبع.

٣

موازنةٌ بينَ مفهومِ القومِ في معَاجمِ اللّغةِ والشِّعْرِ الجاهلي

إنّ الموازنةَ بينَ مفهومِ القومِ في معاجم اللغة والشّعرِ الجاهليّ تبدو مطلباً ليسَ بدٌّ من تناوله بعد دراسةِ هذا المفهوم في معاجم اللغةِ والشعر الجاهلي كما اتضح مِنْ خِلال الصّفحاتِ السابقةِ .

يؤخذُ على معاجمِ اللغةِ التي تناولتْ لفظَ القومِ الإيجازُ أثناءَ شَرْحِ هذا اللفظ ، وقلةُ الشواهد اللغويةِ ، وعدمُ استقراء هذا اللفظ وتتبع تطورهِ الدّلالي في عصورِ الاحتجاج المتلاحقةِ ، فقد أخذتْ تكرّرُ وتعيدُ ما جاءَ في كتابِ العين للخليلِ بنِ أحمد ، وما جاء في جمهَرَةِ اللّغةِ لابنِ دُريدٍ باعتبارهما من أوائل المُعْجَميينَ.

ولعلَّ مَصْدَرَ التباينِ الذي نجدهُ في معاجمِ اللغةِ حولَ لفظِ القومِ يعودُ إلى تداخلِ هذا اللفظِ وعدمِ الفصلِ بينَ معناه في العصرِ الجاهليّ وهو عصرُهُ خصائصه المعبرةُ عن منظومتِه الفكريةِ والأدبيةِ واللغويةِ وبين العصر الإسلامي وما تلاهُ مِنْ عُصُور الاحتجاج ، فقد صَقَلَ الإسلامُ تلك المنظومةَ وثقّفَها بثقافهِ الجديدِ ضمنَ إطارٍ شاملٍ من معطياته الروحية والحياتية .

ومما لاشكّ فيه أن مفرداتِ اللغةِ تتطورُ بتطورِ الزّمنِ لتعبر عَنْ رُوحِ العَصْرِ ، فليسَ بينَ مَعَاجمِ اللغةِ العربيةِ مُعْجَمٌ تاريخيٌّ يبحثُ في نشأةِ الألفاظِ وتطورها ، ويدرسُ العلاقةَ بين الظواهر اللُّغويةِ والظواهرِ النفسيةِ والاجتماعيةِ باعتبارِ اللغة نتاجاً للعقلِ الجمعي كله «ولعلَّ السِّرَّ في انصرافِ اللغويينَ عن الترتيبِ التاريخي لدلالة الألفاظ العربية أنهم نظروا إلى عصورِ الاحْتِجاج على أنها عَصْرٌ واحِدٌ وأنّه يكفي في اللفظِ أن يكون عربياً فَصيحا كان أو غيرَ فصيح ليستحق التدوين والتسجيلَ في المعاجِم» [١]

لقد رأينا أنّ لفظ القوم عند أكثرِ المعجميين يرادُ بهِ الرجالُ دون النساءِ وقدِ استشهدَ أصحابُ هذا الرّأي ببيت زهير بن أبي سُلمى وهو قولُه [٢]

وما أدري وَسَوفَ إخَالُ أدري ... أقَوْمٌ آلُ حِصْـــــنٍ أم نِســـــاءُ

كما استشهدوا بقوله تعالى :«يا أيُّها الذينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أنْ يكونوا خيراً مِنْهُمْ ولا نساءٌ مِنْ نساءٍ عَسى أنْ يَكُنَّ خَيراً مِنْهُنَّ» [٣] وما جاءَ في الحديثِ النبوي :«إنْ نسّاني الشيطانُ شيئاً مِنْ صَلاتي فليُسَبِّحِ القومُ وليُصَفِّقِ النّساءُ»[٤] فدلالةُ القومِ في هذهِ الشواهدِ على الرِّجال لا لبْسَ فيها ، وهذا الرأيُ

(١) د. إبراهيم أنيس ، مقدمة كتاب الزينة في الكلمات الإسلامية العربية ، ص ١٢ .

(٢) الديوان ، ص٧٣ .

(٣) سورة الحجرات ، آية ١١ .

(٤) لسان العرب ، قوم ، تاج العروس ، قوم .

يتفقُ مع دلالةِ مفهوم القوم في الشعرِ الجاهليِّ فحينما دُرِسَ هذا المفهومُ في الشعرِ الجاهليِّ تبين أنّه يُطلقُ في هذا الشعر على الرجال دون النساءِ، ورجالِ القبيلة والأعيانِ و المحاربين سواء أكانوا من القبيلة أو من الأعداءِ والصُّحب، والجنس ويُستنتج من دلالةِ القومِ على الجنسِ من خللِ السياق أنه قصد بها الرجال أيضاً .

أما الرأي الثاني لبعضِ المعجميينَ فهو دلالةُ القوم على الرجال و النساء جميعا، ويستند أصحاب هذا الرأي إلى ما ورد في القرآن الكريم من آيات كثيرة يدل فيها لفظُ القوم على الرجال و النساءمعاً ، فقو م كلِّ رسولٍ أو نبيٍّ الرجالُ والنساءُ ويمكن الإشارة إلى أن ثمة آيات يدل فيها لفظُ القوم على الرجال دون النساءِ كقولهِ تعالى على لسَانِ لوطٍ « قَالَ ياقَوْم هؤلاء بَنَاتِي هُنَّ أطهَرُ لكُمْ »[1] وهذا يَعني أنّ لفظ القوم في القرآن الكريم يدلُّ على الرجال أحياناً كما يدلُّ على الرجال والنساء في أحيان كثيرة ، ويلاحظ أن أصحابَ هذا الرأي القائلِ بدلالة القوم على الرجالِ والنِّساء لم يستَشْهِدوا بشيءٍ من الشِّعرِ الجاهليّ ويعود ذلك إلى أنه ليس ثَمّةَ شاهدٌ من الشعرِ الجاهلي يؤيد ما ذهبوا إليه فدلالة لفظ القوم في هذا الشعر تدلُّ على الرجالِ فَحسْب ، أمّا دلالته على الرجال والنساء فهي دلالة إسلامية إذا جاز التعبيرُ .

وأشرتُ أثناء الحديث عن مفهومِ القومِ في معاجمِ اللغة أن ثَمةَ رأياً لأبي عليٍّ القالي أوردَهُ ابنُ سِيدة في المخصَّصِ وهو أن القومَ قد يكونون زنْجاً أو روماً أو عرَبا أو هنوداً ،و المعروفُ أنّ القاليّ لم يكن من المعجميين ولكنه من الجَهابِذَة اللغويين ، فهو عالم لغويٌّ وخبير بأسرار اللغة وفن القول العربيِّ ، وكتابه «الأمالي» أعظمُ شاهد على هذا ولكنّ أبا عليٍّ حينما يُستشهدُ برأيه في دلالة القوم على الأجناس لا نلحظ شاهداً شعرياً يسنُد ما ذهبَ إليه. وعند دراسة مفهوم القوم في الشعر الجاهلي وجدتُ بعضَ الأشعارالتي تدلُّ على جنسٍ من الأجناس وأمةٍ من الأمم، ودلالة القوم على جنس من الأجناس أو أمة من الأمم تمثلُ مدخلاً لما يأتي من دراسة لاحقة باعتبار أنّ العربَ والفرسَ والرومَ والنبط والتّركَ والأحباشَ أقوامٌ .

ومن دلالاتِ القومِ في الشعرِ الجاهليِّ الدلالة على الحيوان في بيت الشنفرى :

أقِيْمُوا بَني أمّي صُدُورَ مَطِيِّكم فَإنّي إلى قَومٍ سِواكُم لأمْيَلُ[2]

فهذه دلالة خاصة تتفق مع ماذهبت إليه مِنْ أن اشتقاقات لفظ (قوم) في اللغة تنتظمُ معانيها في خيطٍ واحد لتُشكلَ عقداً متماسكا يوحي ظاهره وباطنُه بالقوة والعزم فالشنفرى يريد أنْ يرحل إلى حيوانات مفترسةٍ قويّةٍ .

---

(١) سورة هود آية ٧٨ . وانظر كذلك : سورة الأعراف ،الآيات ٨٠ ، ٨١ ، ١٥٥ . سورة العنكبوت آية ٢٨ .

(٢) الأشباه والنظائر ، ٥١:١ .

يمكن القولُ: إنّ الدلالة العامة لمفهوم القوم في اللغة والشعر الجاهلي هي القوة والعزم ، ويكفي أن نقرأ الشعر الذي اوْرَدتُه وفصلته تحت عنوان مفهوم القوم في الشعر الجاهلي لنرى أن دلالته هي القوة والعزم ، ويمكنني أن أذكرَ في هذا الموطن قليلاً من ذلك الشعر دفعاً للتكرار يقولُ ربيعةُ بنُ مقروم الضّبّيُ [1] :

وقَومِيْ فإنْ أنتَ كذّبتني ... بِقَوْلي فاسألْ بقومي عَليمَا

طوالُ الرِّمَاحِ غَداةَ الصَّبَاحِ ... ذَوو نجدةٍ يمنَعُونَ الحريما

بَنُو الحَرْبَ يوماً إذا استْلأموا ... حَسِبْتَهُم في الحَديدِ القُرُوْمَا

ويقو لُ خِداشُ بنُ زُهَيْرٍ [2] :

وإنّا لِمن قومٍ كرامٍ أعِزَّةٍ ... إذا لحقَتْ خَيلٌ بِفرسَانِها تَجرِيْ

وكنّا إذَا مَا الخيلُ أدرَكَ رَكضُها ... لبسْنَا لها جَلدَ الأساوِدِ والنُّمْرِ

فقوم ربيعة بن مقروم : طوالُ الرِّماح أهل نجدَةيذودونَ عن الحمى كي لا يُهَدَّمَ حوضُهم، وهُمْ أبْناءُ الحرب ، وسادتها. أما قوم خِداشِ بن زهيرٍ فَهُم كِرَامٌ أعزَّةٌ ، يمتطون الخيلَ بقوةٍ ولشدة بأسهم تراهم لابسين جلود النُّمر وفي هذا كنايةٌ عن قوتهم وعزمهم على الحربِ .

---

(١) المفضليات ،ص ١٨٣. الحماسة البصرية ١: ٤٧ .

(٢) جمهرة أشعار العرب ، ص ٤١٦ .

الفصل الثاني

الفَرسُ في الشِّعرِ الجاهليِّ

١

عوامل الاتصال بين العرب والفرس

ثمة صلاتٌ ربطتْ بينَ العربِ والفرسِ من قبلِ التّاريخ الميلادي ، فقد أصبحت الجزيرةُ العربيةُ مما يلي العراق من القرن التاسع قبلَ الميلادِ مَسْرَحاً لملوك أشور يكتسحها الواحد بعد الآخَر ، وقبائلها تؤدي الجزية ولو موقتاً على غير نظام . فلما انتقلت أشور إلى الفرس على يدِ كورش [١] دخل جيرانها العرب في ما دخلت فيه ، فكانوا يؤدون الجزية للفرس من بخورهم كل سنةٍ ألفَ وَزْنَةٍ » [٢] ، ويبدو أنّ العربَ أصبحوا حلفاء للفرس بعد ذلك فحينما قام قمبيز [٣] الثاني بغزو مصرَ سنة (٥٢٥ ق.م) وطلبَ معونة العرب أمدّوه بالجمال وبالماء وساعدوه مساعدةً كبيرةً لولاها لما تمكّنَ من الوصولِ إلى مصرَ [٤] .

ومن الأخبار الطريفةِ ما زعمه المسعودي[٥] : أن أسلاف الفرس كانت تقْصِدُ البيتَ الحرامَ وتطوفُ به تعظيماً له ، ولجدها إبراهيمَ عليه السلامُ وكانتِ الفرسُ تهديْ إلى الكعبةِ أمْوَالاً وجَواهِرَ وذهباً كثيراً وفي ذلك يقولُ الشاعرُ في قديمِ الزمان :

زَمْزَمَتِ الفُرْسُ عَلَى زَمْـــزَمِ وَذَلِكَ فِيْ سَالِفِهَا الأقْـــــدَمِ

وهذا الخَبَرُ لا يعدو أنْ يكونَ مِنْ وَضْعِ المتأخّرِينَ من الفرسِ حينما نظروا إلى تاريخهم فلم يجدوا فَضْلاً يرفعهُم في الإسلام فأرادوا أنْ يقدّموا لأجدادهم فَعَالاً تربطُهُمْ بالأنبياء والكعبةِ المشرفةِ .

وحينما ضَعُف الفرثيون حكامُ فارس استغل العرب هذا الضعفَ ، فصاروا يهاجمون أطراف الدولة الفارسية ويبسطون نفوذَهم على مناطق منها ، فسارَ لحربهم الملك الساساني أرْدَشِيْر الأول مؤسسُ الدولةِ الساسانية (٢٢٤ – ٢٤٠م) واستطاع الوصول إلى البحرين وذكر الطبري أنّ أرْدَشِيْر بَنى مدينة فيها اسمها : فنياذ أرْدَشِيرْ [٦] . وهذه الرواية تدل على استيلاء أرْدَشِير على البحرين حيث أصبحت تابعة للدولة الساسانية.

وبين عامي (٨٥ ق.م – ٢٤١م) أقامت بعض القبائل العربية مملكة في شَمال العِرَاقِ عاصمتها الحَضْر ، وكان لها مع الفرس علاقاتٌ وِدّيةٌ حيناً ، وعدائيةٌ حيناً آخر ، وبدأت هذه المملكة تدخل في المحنة التي أوْدَتْ بحياتها إلى الأبدِ على أيدي الساسانيين بسبب ارتباطها مع الرومان ، فقد حاصرها الملك السّاسَاني شَابُور

---

(١) كورش : ملك فارسيٌّ (ت ٥٢٩ ق.م) وهو أحدُ أعظم المحاربين في العالم القديم استطاع أنْ يؤسسَ أوّلَ أمبراطورية عظيمة في التاريخ واحتل بابل عام ٥٣٨ ق.م .

(٢) جرجي زيدان ، العرب قبل الإسلام ، ١ : ١٠١ .

(٣) قمبيز : ابن وخليفة كورش (٥٢٨ – ٥٢١ ق.م)

(٤) جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ١ : ٦٢١ .

(٥) مروج الذهب ، ١ : ٢٤٢ .

(٦) تاريخ الطبري ، ٢ : ٤١ . وذكر الطبري أن فنياذ أرْدشير هي مدينة الخط .

الأول لسنة كاملة من ١٢ نيسان من عام ٢٤٠م إلى ١ نيسان من عام ٢٤١م على ما تذكر وثيقة اكتشفت حديثاً [١] . « وبعد القضاء على مدينة الحضر عمل الفرس على إنشاء مملكة عربية في الحيرة وكان ذلك حوالي سنة ٢٤١م وأمّروا عليها عمروَ بنَ عديٍّ اللخميّ ، وكان النظامُ المُتّبعُ أن عربَ الحِيْرَةِ يقدمونَ الطاعةَ لملكِ فارس ، وهو يولّي عليهم أميراً من أنفسهم ، وعليهم أن يحموا فارس من كلّ مُغيرٍ من نواحيهم ، والفرس مقابل ذلك يعفونهم من دفع الإتاوة »[٢] وتُعَدّ الحيرةُ بحكم مَوْقِعها الجغرافيّ مَركزاً مُهِمّاً للنفوذ الفارسيّ وللقوافل التجارية [٣] ، ولهذا فإنّ ملوك فارس ؛ كانوا يسعونَ دائماً لتبقى الحيرةُ تحتَ سيطَرتِهمْ ، ولا شك أنّ الحيرةَ تأثرت بالتمدّنِ الفارسيّ وحضارتهم المزدهرةِ آنذاك ، فقد كانت الحيرة مَرْكَزاً علمياً وفكرياً يحوي أخبارَ العربِ والفرسِ وفي ذلك يقول صاعد الأندلسي : « إن الذين سكنوا الحيرة حووا علم الأعاجم وأخبارهم وأيام حمير ومسيرها في البلاد » [٤].

وفي أوائل القرن الرابع الميلاديّ ، نجدُ عربَ البحرَيْنِ والساحل يعبرونَ الخليجَ الفارسيّ للإغارةِ على الإمبراطورية الفارسية في أيّام سَابُوْر ذي الأكتاف ، وكان هذا صغيراً فاستضعفوه ، فسارَ جَمْعٌ غفيرٌ من عبدِ القيس عبروا خليجَ العجم على بلاد فارس وسواحل أَرْدَشِيْرْ خَرَّه ، وغلبوا أهلها على مواشيهم ومعايشهم ، فملكوا حيناً لا يغزوهم أحدٌ فلما كَبُرَ سَابُوْر واشتدّ عُوْدُهْ ، أَوْقَعَ في أولئك وقتل وأسرَ وقطعَ الخليجَ إلى البحرين واليمامةِ والقطيف والإحساء وشرع لا يقبل فِداءً وَصَارَ يَنْزِعُ أَكْتَافَ العَرَبِ فَسُمِّيَ بذي الأكتافِ [٥].

ومن القبائل العربية التي قارعت الفرس حيناً من الدهر قبيلةُ إياد ، فبعدَ نزوحها من تِهامةَ في أوائل القرن الثالث بسبب حرب وقعت بينها وبين مضر ، نزلت في سواد العِرَاقِ قُرْبَ الكوفة فأقاموا هناك ، وكانوا يَغْزُوْنَ أطراف السَّوادِ ، والفرسُ يتحملون منهم ذلك حتى تولّى كسرى أَنُوشِرْوَانَ فأغارت إيادٌ على نساءٍ من الفرس ، فأخذوهنّ فغزاهم كسرى فقتلَ منهم عَدَداً كبيراً ، فخرجوا من العراق ، ونزل بعضهم تكريتَ وبعضهم الجزيرة وأرضَ الموْصِلِ [٦].

---

(١) فؤاد سفر ومحمد علي مصطفى ، الحضر مدينة الشمس ، ص٣٤ . وانظر : Oleary, Arabia Before Muhammad, p. 155

(٢) Arabia Before Muhammad, P. 155 . وانظر : تاريخ الطبري ، ٢ : ٢١٣ ، ٢١٤ . تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء ، ص٩٦. المناقب المزيدية ، ١ : ١٠٣ . أحمد أمين ، فجر الإسلام ، ص١٦ .

(٣) أصبحت الحيرة بعد موت إياس بن قبيصة الطائي (٦١٤م) – وهو آخر ملك عربي يحكم الحيرة – مشكلة تقضُّ مضاجع الفرس إذ نزلت مرتبتها إلى مجرد كورة صغيرة وعين لها مرزبان فارسي اسمه زاديه . انظر : (Arabia Before Muhammad, P. 161) .

(٤) طبقات الأمم ، ص٥٩ .

(٥) تاريخ الطبري ، ٢ : ٥٥ – ٦٠ تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء ، ص٤٧ . مروج الذهب ، ١ : ٢١٦ . كريستينسن آرثر ، إيران في عهد الساسانيين ، ص ٢٢٥ . وفي تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء ، ص٤٧ : « أن اسمه شابور هُوَيَة سَبْا ؛ هوية : اسم للكتف . وسبا : نقاب » . فالتسمية فارسية ، ولعل تفسير المؤرخين العرب للَقَبِ سابور ضربٌ من التفسير الأسطوري المتكلف .

(٦) انظر : الأغاني ، ٢٢ : ٣٩٣ . مروج الذهب ، ١ : ٢٥٤ – ٢٦١ . التنبيه والإشراف ، ص١٧٥ ، ١٧٦ . الكامل في التاريخ ، ١ : ١٥٦ – ١٥٧ . معجم ما استعجم ، ٢ : ٥٧٣ . تاريخ ابن خلدون ، ج٢ ، ق٢ ، ص٣٥١ .السويدي ، سبائك الذهب ، ص ٦٣ ، ٦٤ . دائرة المعارف الإسلامية ، ٣ : ١٦٦ . جرجي زيدان ، العرب قبل الإسلام ، ١ : ١٧٦ .

ومن الأحداث التاريخية في تاريخ العلاقات العربية الفارسية موقعة ذي قار[١] التي نشبت بين قبيلة شيبان ومن ناصرهم من البكريين من ناحية والفرس من ناحية أخرى وكان ذلك بعد البعثة النبوية واستطاع الشيبانيون أن يهزموا الفرس في تلك الموقعةِ التاريخية ، وتُعَدُّ هزيمَةُ الفرسِ بدايةَ أُفُولِ الإمبراطورية الفارسية التي كانت تسيطر على البحرين وسواحل عمان حيث أقامت لها حاميات عسكرية في هذه المناطق[٢] ، وكانت أرْضُ البحرين من مملكة فارس وكان على العرب بها من قبل الفرس على عهد الرسول عليهِ السلام المنذر بن ساوي،[٣] وكان والي هجر على عهد الرسول عليه السلام أحد مَرَازِبةِ الفرس .[٤]

ومن العوامل التي زادت من اختلاط العرب بالفرس : التجارة ، فقد أخذَ نَوفَلُ بن عبدُ مناف العَهْدَ من الفرس لحماية قوافل قريش التجارية[٥] ، وكانت الحِيْرةُ مَعْبَراً للقوافلِ واللَّطَائم الفارسيةِ ، أثناءَ مُرُوْرِهَا في نظير جُعْلٍ كبير يأخذونه من الفُرْسِ . وكان هَوْذَةُ بن عليٍّ الحَنَفيُّ سَيِّدُ بكرٍ في اليَمامَةِ يُجْيرُ لطيمة كِسْرَى في كلِّ عام .[٦]

ويُرْوَى أنَّ أبَا سفيان بنَ حَرْبٍ كانَ تاجراً يُجهِّزُ التُّجارَ بمالهِ وأموالِ قريش إلى أرْضِ العجم[٧] ، ومن التجار الذين كانوا يفدون على كِسْرَى غَيلان بنُ سَلَمة بن مُعَتِّب الثَّقَفيُّ ، وقد اشْترى كسرى منه التجارةَ بأضْعاف ثمنها[٨] ، ووفد على كسرى سادة العرب مثل : حاجب بن زُرَارَة سيدِ تميم[٩] وأبي سُفيان بن حرب[١٠] ، ورهط من أعيانِ القبائل العربية بعثه النُّعْمَانُ بنُ المُنْذِرِ ليذودوا عن مآثرِ العربِ أمام كِسْرَى[١١] ، فأُعْجِبَ هذا بحديثهم وما أدْلَوْا بهِ من حجج .

ولتقدم العلوم ببلاد فارس ، اخْتَلَفَ إليها بعضُ العرب طلباً للعلم والمعرفة ، كالحارث بن كَلَدة الثَّقَفيُّ فتعلم هناك الطِبُّ والضربَ على آلآت الموسيقى[١٢] . وإذا كانت العرب تختلف إلى أرض فارس ، فإن

---

(١) انظر : الأغاني ، ٢ : ١٢٥ ، ٢٣ : ٢٢٥ - ٢٣٥ . تاريخ الطبري ، ٢ : ١٩٣ - ٢١٢ . مروج الذهب ، ١ : ٢٧٨ . أسد الغابة ، ١ : ٥٣ . الأمالي ، ١ : ٦٩ . المحبر ، ص٣٦ . الكامل في التاريخ ، ١ : ١٩٦ - ٢٠٠ . العقد الفريد ، ٦ : ٩٦ - ١٠٢ . معجم البلدان ، ٤ : ٢٩٤ . المناقب المزيدية ، ١ : ٤٠٣ . دائرة المعارف الإسلامية ، ٩ : ٣٩٨ . سبائك الذهب . ص٤٤٩ . المفصل ، ٢ : ٢٩٤ . شعراء النصرانية قبل الإسلام ، ص ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ . نواح مجيدة من الثقافة الإسلامية ، ص١٤٠ .

(٢) انظر : د. سامي سعيد الأحمد ، تاريخ الخليج العربي من أقدم الأزمنة حتى التحرير العربي ، ص٤٠٦ .

(٣) فتوح البلدان ، ص٨٩ .

(٤) المصدر السابق ، ص٨٩ .

(٥) القالي ، ذيل الأمالي ، ص٢٠٠ . نشوة الطرب ، ١ : ٣٢٨ .

(٦) العقد الفريد ، ٢ : ٩٢ .

(٧) الأغاني ، ٦ : ٣٢٢ .

(٨) المصدر السابق ، ١٣ : ٢٠٩ .

(٩) العقد الفريد ، ١ : ٢٣٩ . نشوة الطرب ، ٢ : ٢٤٠ .

(١٠) العقد الفريد ، ١ : ٢٤٠ .

(١١) المصدر السابق ، ١ : ٢٧٥ - ٢٨٧ .

(١٢) طبقات الأمم ، ص٦٣ . ابن أبي أُصَيْبَعَة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ص١٦١ .

الفرس كانوا يفدون إلى أرضِ العرب ، فكان ثمة جالياتٌ فارسيةٌ في الحيْرةِ والبحْرَيْنِ ، وذكرَ الخطيْبُ البغْدَاديُّ « أنّه كان للفرس قريةٌ يتجمعُ فِيْها رأسَ كلِّ سَنَةٍ التّجارُ ، ويقوم بها للفرس سُوقٌ عظيمة » .[١]

وكانت الفرس تقطع البحرَ إلى المُشْقَرِ بهجر التي تقام بها السوقُ في شهر جُمَادي الآخر لتوافي بها العربَ بعروضهم[٢] ، وقد وَصَلَ بعض الفرس إلى يَثْرِبَ كسَلْمَان الفارسي [٣] وإلى مكة كإحدى الإماء الفارسيات [٤] .

وعمل الفرسُ على نَشْرِ المجوسيَّةِ في بِلادِ العَرَبِ خاصة الشرقية منها فدخل في هذه الديانةِ بعض القبائلِ العربية[٥] ، ولأبي الحسن المدائني كتاب اسمُه : كتاب من تزوّجَ فارسية [٦] .

وينضاف إلى هذه الروابط ، تبادلُ الرسائلِ بين أهْلِ الحَضَرِ من العرب والأكاسرة ، فقدْ أرْسلَ المُنْذِرُ الأكْبَرُ ملكُ الحِيْرةِ إلى كِسْرَى أنُوشِرْوَانَ رسالةً يَصِفُ بها محاسنَ جاريةٍ كان أصابها إذ أغَارَ على الحارث ابن أبي شمِرٍ الغسّاني [٧] ، وكتبَ النُّعْمَانُ بنُ المُنذرِ رِسَالةً إلى كِسْرَى حينما نَدِمَ على قَتْلِ عَديِّ بن زيد [٨] ، وحينما بَعَثَ النُّعْمان رَهْطاً من سادة العرب إلى كِسْرى كتب معهم كتاباً [٩] ، كما أنّ عدي بن زيد كان يلي المُكَاتَبةَ عن كِسْرى إلى ملوكِ العرب .

فهذه بعضُ مظاهرِ الاتصالِ بينَ العربِ والفُرْسِ ، فالعرب كغيرهم من الأمَم تُؤثِّرُ وتتأثر بالحضارات القائمة ، فلم تكن تستطيع أنْ تَتَبِذَ لنفسها مكاناً قصياً من دون الشعوب المجاورة .

وكان لمجاورة العرب للفرس أثرٌ كبيرٌ في زيادةِ سُبُلِ ذلك الاتصال عبر حِقَبٍ تاريخية طويلةٍ ، فطوراً تكون العلاقات بينهما عِدائيةً وطوراً آخرَ تكون سِلميّةً ، وكان يحكم هذه العلاقات المنافع الخاصة لكلٍ من الشعبين .

فكانت العربُ تَسْعَى نَحْوَ الفرسِ كما أنّ الفرسَ تسعى نحو العرب ، ولا مندوحة مِنْ أنْ يكونَ العربُ على معرفة بالحضارة الفارسية ، ولم يكن الشعراء في العصْرِ الجاهليِّ يَهِيْمُوْنَ في أوْدِيةٍ نائيةٍ عن مجتمعاتِهم القبليةِ ، بل كانوا يعيشون في منظومة ذلك العصر الجاهلي ، ويعلمون من أمرِ الفرس ما تعلمه العرب ، وهذا ما يُغري بدراسةِ نِتاجهم الشعريِّ الذي يتناول الفرس ومظاهر حضارتهم .

---

(١) تاريخ بغداد ، ١ : ٢٥ .
(٢) المُحبّر ، ص٢٦٥ .
(٣) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ١ : ١٩٨ .
(٤) أُسْدُ الغابة ، ٥ : ٤٠٢ .
(٥) جمهرة أنساب العرب ، ص٤٩١ . المستطرف في كل فنٍّ مستظرف ، ٢ : ٨٨ .
(٦) الفهرست ، ص١١٤ . معجم الأدباء ، ١٤ : ١٣٣ .
(٧) أحمد زكي صفوت ، جمهرة رسائل العرب ، ١ : ١٠ .
(٨) المصدر السابق ، ص٢٠ .
(٩) المصدر نفسه ، ص٢١ .

٢

أسماء الفرس في الشعر الجاهلي

أ - الفرس

عُرِفَ الفرسُ في التّاريخ بِهذَا الاسْمِ من بَدءِ نشأتهم التاريخيةِ ، وتكوينهم الاجتماعي إلى عصرنا الحاضر ، بغض النظر عن أسماءِ دولهم وممالكهم المتتابعة ، وللتاريخ أن يُسميَ هذه الدولَ والممالكَ الأسماءَ التي تُعَبِّرُ إبّان حقبة تاريخية معينة عن طبيعة الحكم ، ونوع النظام السياسي ؛ أمّا الشعبُ فهو شعبٌ فارسي ، وأمّا البلاد فهي بلاد فارس ، وقد وَرَدَ اسمُ « الفُرْسِ » في الشّعْرِ الجاهليِّ ليدُلَّ على ذلك الشعب ومن ذلك قول تَمِيْم بنِ مُقْبِلٍ يصفُ عِنَايةَ الفرسِ بالنّخيل واهتمامهم برعايتها يقول [١] :

طَافَتْ بها الفُرْسُ حَتَّى بَذَّ ناهِضَهَا ... عُمٌّ لُقِحْنَ لِقَاحاً غَيْرَ مُبْتَسِرِ [٢]

ولعلَّ كَثْرَةَ ورودِ اسم « الفرس » في الشّعْرِ الجاهلي [٣] تُسوِّغ القولَ : إن هذا الاسم كان الأكثر شُيوعاً ودلالةً بين العرب على أولئك القوم الذين ربطتهم روابط الجنس والأرض واللغة والمنافع المشتركة فكوّنت منهم شعباً فارسياً كما أنّ لفظ « العرب » هو الأكثرُ شيوعاً ودلالة على سكان الجزيرة العربية إبّان العصر الجاهليِّ .

ب - العجم

وإلى جانبِ الاسم الأصلي وهو الفرس نجد الشعر الجاهلي يطلق عليهم اسمَ « العجم » ، وقد يبدو هذا الاسم مخالفاً لتراكماتنا المعرفية التي يدل فيها اسمُ العجم على غير العرب « فالعجم خلاف العرب » [٤] ويذْكُرُ أبو حَيّان التوحيديُّ « أنَّ الأمم عندَ العلماءِ أربعٌ : الروم، والعرب، وفارس، والهند؛ ثلاث من هولاء العجم » [٥] . وإذا ما أُنعِمَ النَّظَرُ في هذا اللَّفْظِ في الشعر الجاهلي وُجِدَ أنّهُ يدلُّ على الفرس دون غيرهم من الأمم والأقوام ، فمن المعروف أنّ معركةَ ذي قار وقعتْ بين بني شيبان والفرس ينضاف إلى هولاء المتأشبون من ذوي المآرب الخاصةِ من بعض العرب ، ويطلقُ الأعشى اسم العجم على الفرس في شعرهِ ومِنْ ذلك قولُه [٦] :

---

(١) الديوان ، ص٩٢ .

(٢) بَذَّ : غَلَبَ . العُمُّ : جَمْعُ عَمِيْم ، وهي النَّخْل الطِّوال .

(٣) انظر مثلاً : ديوان الحارث بن حلزة ، ص١٨ . ديوان الأعشى ، ص٢٨٩ ، ص٢٣٧ . ديوان طَرَفة ، ص١٦٦ . شعر خُفاف بن نُدْبة السلمي، ص٩٠ . المفضليات ، ص٢٢٩ . الأصمعيات ، ص٦٣ . الأغاني ، ١١ : ١١٥ . شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام ، ص١٣ .

(٤) لسان العرب ، عجم .

(٥) الإمتاع والمؤانسة ، ١ : ٧٠ . وانظر : صبح الأعشى ، ١ : ٣٦٦ . وفيه أن العجم غير العرب .

(٦) الديوان ، ص٣١١ .

وَجُنْدُ كِسْرَى غَدَاةَ الحِنْوِ صَبَّحَهُمْ مِنّا كَتَائِبُ تُزْجِي الموتَ فانْصَرَفُوا

جَحَاجِحٌ وَبَنُو مُلْكٍ غَطَارِفَةٌ مِنَ الأعَاجِمِ فِيْ أذَانِها النُّطَفُ [1]

ومن ذلك قولُه يمدحُ الشيبانيين [2] :

هُنَالِكَ فِدًى لَهُمْ أُمِّيْ غَدَاةَ تَوَارَدُوْا العَلْمَا

بِضَرْبِهِمُ حَبِيْكَ البِيْـ ـضِ حَتَّى تَلَّمُوْا العَجَمَا [3]

وثمة تفريقٌ دقيق بين العجم وهم الفرس والنَّبِيْطِ في قول الأعشى يخاطب ابنتَه [4] :

لَقَدْ طُفْتُ لِلمَالِ آفَاقَهُ وأرْضَ النَّبِيْطِ وأرْضَ العَجَمْ

ويَصِفُ عبدُ المسيح بنُ عَسْلَةَ عادةً من عاداتِ الفُرْسِ وهيَ التناومُ على اللَّهْوِ والغِنَاء فيقول :[5]

وَسَمَاعٍ مُدْجِنَةٍ تُعَلِّلُنا حَتَّى نؤوبَ تناومَ العُجْمِ

ويرى الأبْشيهيُّ أنّ هذه العادةَ من عاداتِ ملوك فارس [6] ويقول قَيْسُ بنُ مَسْعُودٍ ينذرُ قومَه من بأسِ الفرس وهو مسجونٌ في بلاد فارس [7] :

وإنَّ جُنُودَ العُجْمِ بَيْنِي وبينَكُمْ فيا فَلَجِيْ يا قَوْمُ إنْ لمْ تُقَاتِلوا

ونجد هذا الاسمَ عند غير هؤلاء من الشعراء [8] ، وفي ذلك دلالة على أنّ العجمَ اسمٌ من اسماء الفرس ، ومما يؤكد أن هذا الاسم يطلق على الفرس ، أنه لم يردْ ليَدُلَّ على غيرهم من الأقوام الأخرى [9] ، فكان مُحَدَّداً تحديداً دقيقاً لا يدعُ مجالاً للدارس ليرى غير ذلك ، فالعجم في الشعر الجاهلي هم الفرس .

جـ - بَنُو الأحْرَار

من الأسماء التي أطلقت على الفرس « الأحْرَار » أو بنو الأحرار ، ويرتبط هذا الاسم بحروب الفرس

---

(١) الجحاجح وتجمع أيضاً جحاجحة وجحاجيح : جمع جَحْجَاح و جَحْجَح ، وهو السيّد . والغطارفة : جمع غِطْرِيف ، وهو السيد الشريف .

(٢) الديوان ، ص٣٠٣ .

(٣) الحبيك من الثياب : المحبوك والذي فيه أثر الصَّنْعَة الحسنة . والبيض : جمع أبيض ، وتعني هنا : ألبسة الفرس البيض .

(٤) الديوان ،ص٤١ .

(٥) المفضليات ، ص٢٧٩ .

(٦) المستطرف في كل فن مستظرف ، ٢ : ١٦٦ .

(٧) الأغاني ، ٢٣ : ٢٢٤ .

(٨) انظر : ديوان أوْس بن حجر ، ص١٢٥ . شرح ديوان عنترة ، ص١٢٧ . المفضليات ، ص١١٥ . بشر بن مروان الآمدي ، حرب بني شيبان مع كسرى أنوشِروان ، ص٨٣ .

(٩) لعل دلالة العجم على غير العرب ضَرْبٌ من التطور الدلالي للفظ بعد العصر الجاهلي .

مع القبائل العربية في أكثر الشواهد الشعرية كقول أبي دؤاد الإيادي [١] :

فَنازَعْنَـــا بَنـــي الأَحْرَارِ حَتَّى عَلَفْنَا الخَيْلَ مِنْ خُضْرِ السَّوادِ

ومن ذلك قول الأعشى يمدحُ بني شيبان في موقعة ذي قار [٢] :

تَناهَتْ بنو الأحرارِ إذْ صَبَرتْ لَهُمْ فَوارِسُ مِنْ شَيْبَانَ غُلْبٌ فَوَلَّتِ

ويقول أصَمُّ بني الحارثِ بن عُبادٍ يمدحُ بني شيبان [٣] :

ضرَبوا بني الأحْرار يوْمَ لقوْهُمُ بالمشـــــرفيِّ علـــى مَقيلِ الهَامِ

ويصفُ أُميَّةُ بنُ أبي الصَّلْتِ الفرسَ الذين أتوا مع سيف بن ذي يزن ببني الأحرار فيقول [٤] :

حَتَّى أَتَى بِبَنِي الأَحْرَارِ يحملُهُمْ إنَّك عَمْري لَقَدْ أَسْرَعْتَ قِلقَالا [٥]

وفي وصفه لجموع الفرس يقول لَقيط الإيادي مُحَذِّراً قَوْمَهُ من أولئك القوم [٦] :

أَحْرَارُ فَارِسَ أَبْنَاءُ المُلُوْكِ لَهُمْ من الجُمُوْعِ جُمُوْعٌ تزْدَهِي القَلَعا

أمّا الخنساءُ فتُسَمِّي الفرسَ أحْراراً في قَوْلِها [٧] :

كُلُّ ابنِ أُنْثَى بِرَيْبِ الدَّهْرِ مَرْجُوْم وَكُلُّ بَيْتٍ طَوِيلِ السَّمْكِ مَهْدُومُ

لا سُوْقَةٌ مِنْهُمُ يَبْقَى وَلا مَلِكٌ مِمَّنْ تُمَلِّكُهُ الأَحْرَارُ والرُّوم [٨]

ويظهر من هذا الشعر أن تسمية الفرس ببني الأحرار تعبّرُ عن معاني الأصل الكريم والقوة ، والأبيات التي ذكرت سابقاً تعبّرُ أيضاً عن مراحل النضال التي خاضتها الفرس ضد بعض القبائل العربية ، فلا غروَ أن يُوْصَفَ الفرسُ وهم الدولةُ العظمى حينذاك ببني الأحْرَارِ فقدْ دخلوا في حروبٍ كثيرةٍ مَع الأُمَمِ المجاورةِ وكان النَّصرُ لها في أكثر تلك الحروب ، وأن تقف بعض قبائل العرب أمامهم ليس أمراً بسيطاً ، ولا ننسى أنّ هذه القبائل حينما تواجهُ الفرسَ إنما تَستَجيبُ لتحدٍ تُحْجِمُ عنه كثيرٌ من القبائل والقوى الأخرى ، ومن المشروع لشعراء تلك القبائلِ أن يفخروا بثباتهم أمام الرَّهْبُوْتِ الفارسيّ ، ويمكنُ القولُ : إن تسميةَ الفرس ببني

---

(١) ديوانه في دراسات في الأدب العربي ،ص٣١٠ .

(٢) الديوان ، ص٢٦١ .

(٣) الأغاني ، ٢٣ : ٢٣٨ . تاريخ الطبري ، ٢ : ٢١١ .

(٤) الديوان ص٤٥٩ .

(٥) القِلقال : مصدر قَلْقَل : أي تحرك .

(٦) الديوان ، ص٣٠ .

(٧) ديوان الخنساء ، ص١٢٣ .

(٨) تُمَلِّكُهُ : أي يرضونه ملكاً عليهم .

الأحرار توحي بنظرةٍ إنصافية لهؤلاء القوم من قِبَلِ شعراء الجاهلية .

وينبغي التفريقُ بين بني الأحرار وهم فرسٌ أصلاً وصليْبةً واسم الأبناء وهو اسم أُطْلِقَ على أبناء الفرس الذين بعثهم كسرى مع سيف بن ذي يزن بقيادة وَهْرِزْ للقضاء على الحبش ، واسترجاع اليمن إلى العرب فناصروا سيفاً وملكوا اليمنَ وتَدبَّرُوْهَا وتزوجوا في العرب فقيل لأولادهم الأبناء ، وغُلِبَ عليهم هذا الاسمُ لأنّ أمّهاتهم من غير جنس أبائهم »[1] ولا نجد لاسم هؤلاء « الأبناء » ذكراً في الشعر الجاهليّ .

(١) لسان العرب ، بني . المُحبَّر ، ص٦٦ . المفصل ، ٤ : ٥٥ .

٣
ديانةُ الفرس في الشعر الجاهلي

كانت المجوسيّةُ ديانةَ الفرس ، والمجوسُ هم الذينَ يقولون بإلهين اثنين ؛ أحدهما فاعل الخير وهو النورُ ، والآخر فاعلُ الشرِّ وهو الظّلامُ ، ويُقَالُ لَهُمْ الثّنيويّةُ أيضاً ، واتخذوا لهم بيوت نيران لا تزال تَقِدُ أبداً ، ونارُ البيتِ لا يجوزُ أنْ تخبوَ ، ولا يجوز أنْ تقع الشمس على النار ولا يجوزُ أنْ يقتربَ الماءُ والنارُ وآنيةُ المعدنِ ، وكانتْ إلى هذه النّيران صلواتُهمْ وقرابينهُم ، ويعتقدون أنّ في النارِ النّفعَ والضّرَّ ، وعلى هذا الاعتقادِ كانت الأكاسرةُ ملوكُ فارس ، فالنارُ عندهم أساسُ الحياةِ وأصلُ الوجود . (١)

وكان لاتصال العربِ بالفرسِ أثرٌ في انتشارِ هذهِ الديانةِ في ديارِ العَرَبِ ، فاعتنقها بعضُ العرب ، « فقد ظهرت في بني تميم وقيل : إن لَقِيطَ بنَ زُرَارَةَ كانَ قَدْ تَمجَّسَ ، وكذلك الأقْرَع بن حابس التّميميّ » (٢) وكان لا يزال هناك مَجُوْسٌ في أوّلِ الإسلام في عمانَ (٣) والبحرينِ (٤) وقَبِلُوْا بدفع الجزيّةِ للرسول عليه السلامُ، وقَدْ توسّعَ نفوذُ المجُوْسيّةِ بعد تدخل الفرسِ في اليمن ، وفي أوّل الإسلام « فَرَضَ الرّسُوْلُ على كلِّ مَنْ بَلَغَ الحِلْمَ مِنْ مَجُوْسِ اليمنِ مِنْ رَجُلٍ أو امْرأةٍ دِيْنَاراً أوْ قِيْمَةً مِنَ المَعَافِرِ » (٥) ويبدو أنّ المجوسيّةَ لم تجدْ إقْبالاً كبيراً من العرب ، فلمْ يَعْتنقْهَا إلاّ ذوو المنافعِ والمآربِ ، ولعلّ ذلك يعودُ إلى مَقْتِ العرب لبعض الطُّقُوْسِ المجوسيةِ ومظاهِرِهَا كالزّوَاجِ من المحْرَّمَات ، فهذا أوْسُ بن حَجَرٍ يهجو قوْماً انتشرتْ فيهم هذهِ العادةُ المشينةُ فيقولُ فيهم (٦) :

طُلْسُ العِشَاءِ إذَا مَا جَنَّ لَيْلُهُمُ ... بالمُنديَاتِ إلى جَاراتِهِمْ دُلُفُ

والفَارسيَّةُ فيهـــمْ غَيْرُ مُنْكَرَةٍ ... فَكُلُّهُمْ لأبيْهِ ضَيْزَنٌ سَلِفُ (٧)

ينضاف إلى ذلك أنَّ أكثرَ العربِ كانوا عَبَدةَ أوْثانٍ ، أو أتباعَ النصرانية « كإياد وربيعة وبكر وتغلب وغسّان وبني الحارث بن كعب بنجران وطيّءٍ وتَنوخ ، وكثير من كَلْب ، وكلٌ من سكنَ الحيرةَ من تميم ولَخْم وغيرهم ، وكثيرٍ من حِمْيَر وكِنْدَة » (٨) .

---

(١) إيران في عهد الساسانيين ، ص١٠٨ ، ١٠٩ . وانظر : المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، ١ : ١٠ ، ١١ . جميل صليبا ، المعجم الفلسفي ، ص٣٨٠ . عبد المنعم الحفني ، الموسوعة الفلسفية ، ص١١٧ .

(٢) جمهرة أنساب العرب ، ص٤٩١ . المستطرف في كل فن مستظرف ، ٢ : ٨٨ . وانظر : فون كريمر ، الحضارة الإسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية ، ص٧٣ .

(٣) فتوح البلدان ، ص٨٨ .

(٤) المصدر السابق ، ص٨٩ ، ٩٠ .

(٥) المصدر نفسه ، ص٨٣ . والمَعَافِرُ : نَوْعٌ مِنَ الثِّياب نسبة إلى بلدة في اليمن .

(٦) الديوان ، ص٧٥ .

(٧) الضَّيْزَن : هو الذي يخلف على امرأة أبيْهِ ، وهو أشْنَعُ ماكانت تفعله العرب .

(٨) جمهرة أنساب العرب ، ص٤٩١ .

ويُلمَسُ في الشعرِ الجاهلي صورةُ نارِ المجُوسِ العظيمة التي تستعرُ استعاراً كما يصفها التَّوأم اليشْكُرِيُّ في تمكيته صدرَ بيت امريء القيس وهو قوله : أحَارِ تَرَى بُرَيقاً جَنَّ وَهْنَا .

فقال التَّوأمُ اليشكُرِيُ : كنارِ مَجوسٍ تَستَعِرُ استِعَارَا[1]

وكقول تَميم بنِ مُقْبل [2] :

غَدَتْ أظْعَانُ طِيَّةَ لـــم تُودِّعْ ... وَخَيْرُ وَدَاعِهِنَّ عَلـــى قَرَارِ

وأدَّيْنَ العُهُـــودَ كمـــا تُؤدَّى ... أدَاةُ المُسْتَعَارِ مـــن المُعَـــارِ

وَلاحَ بِبُرْقَةِ الأمْهَارِ مِنْهَا ... بعَيْنِكَ نازِحٌ من ضَوْءِ نَارِ [3]

إذَا ما قُلْتُ زَهْتَهَا عِصِيٌّ ... عَصِيُّ الرَّنْدِ والعُصُفُ السَّوَاري [4]

لمشْتَـــاقٍ يُصَفِّقُـــه وَقُـــودٌ ... كنَارِ مَجوسٍ في الأجَمِ المطَارِ

وفي شِعْرِ أوْسِ بن حَجَر ذكرٌ لنار المهُول وهو المحلِّفُ فكان إذا وقع بين الرجلين خُصُومَةٌ يأتيان إلى هذه النَّار فيحلفانِ عِنْدَهَا ، وفي وصف أوسٍ لحمارِ الوحْشِ يقول [5] :

إذَا استَقْبَلْتَهُ الشَّمْسُ صَدَّ بوَجْهِـــه ... كمـــا صَدَّ عَنْ نَارِ المُهَوِّلِ حَالِـــفُ

وتعظيمُ العربِ لنارِ المهوِّلِ يَكادُ يكونُ مظهراً من مَظَاهِرِ التأثر بالمجوس وتقديسهم للنَّار ، ويرى الدكتور نصرت عبد الرَّحمن « أنَّ كثْرَةَ الحديْثِ عَن النَّارِ في الشِّعْرِ الجاهليِّ وَشِدَّةَ الاعتزاز بها وإنْ تَبدَّتْ في مَعْرِضِ الكرَمِ قد تكونُ مَظْهَراً مِنْ مَظَاهِرِ هَذِهِ الدِّيانة »[6] ولذلك « فما زال البُدَاةُ حَتَّى اليوْم يجعلون للنَّارِ قَدَاسَةً فإنَّ لَحْسَ المِقْلاةِ المُحَمَّاةِ لإثباتِ براءةِ المُتهَم أو تذنيبِه بقيةٌ منْ بقايا هذه القداسةِ ، ويُطْلَق على الاحتكام للنارِ عندهم اسمُ البَشْعَةِ »[7] .

---

(١) ديوان امرىء القيس ، ص١٤٧ .

(٢) الديوان ، ص١٤٩ ، ١٥٠ .

(٣) بُرقة الأمْهَار : موضع .

(٤) زهتها : حرَّكتها . العُصُفُ والسَّواري : صفتان للرياح الشَّديْدَة .

(٥) الديوان ، ص٦٩ .

(٦) الصورة الفنية في الشعر الجاهلي ، ص٢٨ .

(٧) المرجع السابق ، ص٢٨ .

٤
ملوكُ الفرس في الشعر الجاهلي

١. علامات الملك

أ - التـــاج

مِنْ أمارات الملكِ الفارسيِّ التَّتوُّجُ بالتَّاج والزَّهْو به ، وكان الأكاسرة يحرصون على لبْسِ التَّاج مثل حِرْصِهِمْ على الحُكْم ، ومما يُرْوى أنَّ « أرْدَشيرَ بن بَابك كان إذا وَضَعَ التَّاجَ على رأسِه لم يضَعْ أحَدٌ في المملكَةِ على رأسِه قضيبَ رَيْحَان مُتَشبِّهًا به » (١).

ومما وَرَدَ في ذِكْرِ التيجانِ الكسْرَويَّةِ في الشعْر الجاهلي قولُ عَديِّ بن زَيْد العِبادِي أثناء حديثِه عن سَابُور الجنود وذلك قوله (٢) :

وَلَقَدْ كانَ ذَا جُنُودٍ وَتَـــــاجٍ تَرْهَبُ الأُسْدُ صَوْلَهُ والزُّئيـــرَا

ومن ذلك قول أبي دؤادِ الإيادِيِّ في حديثه عن قُبَاذِ بنِ فَيْرُوز :

أيْنَ ذو التَّاج والسَّرِيرِ قُبَـــاذٌ خَبَّنَتْهُ فَبَادَ إحْدَى الخُبُـــونْ (٣)

وهذا الشَّمَّاخُ يُشبِّهُ العيْرَ الذي يملك أمْرَ الأتُنِ ويقودُها بالملك الفارسي صاحبِ التَّاج الذي يتولَّى أمْرَ رعيته فيقول (٤) :

يَظَلُّ بِصَحْرَاءِ البسيـــطةِ قَائِمًا عَلَيْهَا قِيـــــامَ الفَارِسِيِّ المُتَوَّجِ

ونجدُ الأعْشَى يَهْجُو كِسْرَى أبْرَوِيز طَالباً منه القُعُودَ والتَّعصُّبَ بتاجه لأنَّه لا يستطيع مقارعةَ شَيْبَانَ :

فاقْعُدَ عَلَيْكَ التَّاجُ مُعْتَصِبًا بِـهِ لا تَطْلُبَنَّ سَوَامَنَا فَتَعَبَّـــــدَا (٥)

فالأعشى يرى أنَّ التاجَ يكونُ أحياناً مَنْقَصَةً لِصَاحبِه حينما يَعْجَزُ عَنْ تَثبيتِ مُلْكِه ، ويَبدو أنَّ العربَ كانَتْ تُعظِّمُ التيجانَ إلاَّ أن شيوخَها لم يكونوا يلبسونها ، ولعلَّ ذلك يرجع إلى طبيعة عَيْشِهِمْ وتنقلهم في البادية بحثاً عن الماءِ والكلأ ، فلم يكونوا يبالون بلبس التيجان لاعتقادهم بأنها خاصةٌ بملوك الأمم الأخْرى ولهذا انتهرَ عبدُ الملكِ بنُ مروانَ عَبْدَاللهِ بنَ قَيْسِ الرُّقيَّاتِ حين أنشدَه في مديحه له :

---

(١) التَّاج في أخْلاقِ الملوك ، ص٤٧ .

(٢) الديوان ، ص٦٥ .

(٣) ديوانه في : دراسات في الأدب العربي ، ص٣٤٩ . وَخَبَّنَتْهُ خَبُونٌ : مات .

(٤) الديوان ص٩٤ .

(٥) الديوان ، ص٢٣١ . والسَّوَام : الإبل الراعية .

يأتلِقُ التَّاجُ فَوْقَ مِفْرَقِـــــهِ علـى جَبِيْنٍ كأنَّهُ الذَّهَـــــبُ

فقالَ له عبدُ الملك : أتقولَ في مُصْعَبِ بن الزُّبَيْرِ :

إنما مُصْعَبٌ شِهَابٌ مِنَ اللـ ـهِ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظَّلْمَاءُ

وتمدَحُنِي بِمَا تمدَحُ بِهِ الأعاجِمَ [١] . فَعبدُ الملك لا يُرِيْدُ أنْ يُمْدَحَ بلبس التاج وتوهُّجه فوْقَ رأسِه ، لأنَّ ذلك مِنْ شأنِ مُلُوْكِ العَجَم ، ولكونهِ عربياً وخليفةَ المسلمين وحاملَ لواءِ الإسلام ، الذائِد عن شرعتهِ لا يُؤثر أنْ يُمْدَحَ بذلك .

ب - المـــــال

ومن خصائِصِ الأكاسِرةِ أنّهم كانوا ذوي أمْوَالٍ وخزائنَ مملوءةٍ بالذهبِ والفضةِ ، فكان الملكُ قُبَاذُ بن فَيْرُوْزَ يملك الجواهَر الكثيرةَ والأسحلة كما يقول أبو دؤاد الإيادي :[٢]

ولَقَدْ عَاشَ آمِنا لِلدَّوَاهِـــي ذا عَتَادٍ وَجَوْهَرٍ مَخْـــزُوْنِ

أمّا الملكُ هُرْمُزُ بنُ أنُوْشِرْوان فَكانَ صاحبَ خزائن عظيمةٍ كما يقول ورقة بن نوفل [٣] . وتوافرُ تلك الخزائنِ في بلاط الأكاسِرَة كان أمْراً ضرورياً في البلاط الكسروي لتوفير حياة البذخ والإنفاق على ملكهم ليستمر سلطانهم ، ويذكر الجاحظ أن ملوك فارس كانت تأكل وتشربُ بأواني الذَّهَب والفضة [٤] ، وكان لِجَامُ فَرسِ بَهْرَامِ بن سابور من الذهب[٥] ، ومن القصص التي تؤثر عن كسرى ووفادة شيوخ العرب عليه ، قولُ أبي سفيان بن حرب : « أهديتُ لِكسْرى خَيْلاً وأُدْماً ، فقبل الخيْلَ وردّ الأُدْمَ ، وأُدْخلْتُ عَلَيْهِ فكأن وجهَه وجهانِ من عظمتهِ ، فَألقى إليّ مِخدَّةً كانتْ عندهُ ، فُقُلْتُ : واجُوْعَاهُ ! أهذه حظّي من كسرى بن هُرْمُزَ ؟ قال : فخرجتُ من عنده ، فما أمُرُّ على أحَدٍ من حَشَمِهِ إلاّ أعْظَمَهَا ، حتى دُفِعْتُ إلى خَازِنٍ لهُ : فأخَذَها وأعْطاني ثمانمائةِ إنساء من فضة وذهب . قال الأصمعي فحدثتُ بهذا الحديثِ النَّوْشجَانَ [٦] الفارسي، فقال : كانتْ وظيفة المِخدَّةِ ألفاً إلاّ أنّ الخازنَ اقتطعَ مِنْها مائتين » [٧] .

---

(١) انظر : المناقب المزيدية ، ص٨٣ ، ٨٤ .

(٢) ديوانه في : دراسات في الأدب العربي ، ص٣٤٩ .

(٣) الأغاني ، ٣ : ١١٥ .

(٤) التاج في أخلاق الملوك ، ص١٠١ .

(٥) المصدر السابق ، ص١٠٠ .

(٦) النَّوْشجان : نسبة إلى نَوْشَجَان وهي مَدِيْنَةٌ بفارس .

(٧) العقد الفريد ، ١ : ٢٤٠ .

٢. صراعهم مع الموت

يحدثنا الشعرُ الجاهليُّ عن طائفةٍ من ملوك فارس كانوا ذوي نفوذ حاولوا الخُلدَ وتحدّوا الموتَ حينما كانو يقبضون على صَوْلَجان الملك ، لكنّ المنون صرعتهم واختطفهم الدهر من أعزّ مكانٍ في الدُّنا . ومن هَولاء الملوك سَابُوْر الذي ملك فارس حيناً مِنَ الدَّهْر وحاولَ البَقَاءَ فاطاح بهِ الدّهْرُ وفي ذلك يقول عَديّ بنُ زَيْد العِبَادي [١] :

فاسْأَلِ النَّاسَ أينَ آلُ قُبَيْـــــسٍ ... طَحْطَحَ الـــدَّهْرُ قَبْلَهُمْ سَابُوْرا [٢]

خَطَفَتْهُ مَنيَّةٌ فَتَـــــــــردّى ... وَهْوَ في ذاكَ يأْمُلُ التعمـــــــيرا

ومن الملوك الذين صارعوا المنيّة فصرعتهم الملك قُبَاذ [٣] :

فَبِتُّ أُعَدِّي كَـمْ أَسَافَتْ وَغَيَّرتْ ... وقُوعُ المَنُوْنِ مـــن مَسُوْدٍ وسَائِدِ [٤]

صَرَعْنَ قَبَاذاً رَبَّ فَـــارِسِ كُلِّهَا ... وَمَشَّتْ بأَيْدِيْهَا بَوارِقَ آمِـــــدِ [٥]

وفعلت المنون كذلك بكسرى أنُوشِرْوَان أشهرِ الأكاسرة عند العرَبِ وفيه يقول عديُّ بن زَيْد العبـادي [٦] .

أيُّهـا الشـــامِتُ المُعَيِّرُ بـــا ... لدَّهْرِ ! أنـــتَ المَبْرأُ المـــوْفُورُ

أَمْ لدَيْك العهـــدُ الوثيْقُ من الـ ... أيّام بَلْ أنْتَ جَاهِلٌ مَغْرُوْرُ

مَنْ رأيـــتَ المَنُوْنَ خَلَّدْنَ أَمْ مَنْ ... ذَا عليـــه مِنْ أنْ يُضَامَ خَفِيْرُ

أيـــنَ كِسْرَى الملـــوكِ أنُوْ ... شِرْوَانَ ، أَمْ أَيْنَ قَبْلَهُ سَابُوْرُ

فكِسْرى أنُوْشِرْوَان لم يخلدْهُ الدَّهْرُ فقد أطاحَ به بعد أن سار ملكُه في الخافقين ، ومن ذلك قول أبي الطمْحَانِ العَيْنيُّ يحذر من غَلَبَةِ الأيام وقهر الموت [٧] :

فَمَنْ يأْمَنِ الأيّامَ بَعْدَ ابـــنِ هُرْمُزٍ ... وبَعْدَ أبي قـابوسَ مُذْكي القَنَابِلِ [٨]

---

(١) الديوان ، ص٦٧ .

(٢) هو سابور ذو الأكتاف .

(٣) قباذ : هو قُباذ بن فَيروز بن يَزْدَجَرْد والد كِسْرى أنوشِرْوَان .

(٤) ديوان عدي بن زيد ، ص١٢٤ . وأساقت الريحُ الرملَ : ذرّته .

(٥) آمد : مدينة عظيمة في ديار بكر .

(٦) الديوان ، ٨٧ ، ٨٨ .

(٧) قصائد جاهلية نادرة ، ص٢١٨ .

(٨) ابن هرمز : هو كِسْرى أبرويز . وأبو قابوس : هو النعمان بن المنذر . والقنابل : الطوائف من الخيل .

نتبين من هذا الشعر أنّ الأكاسرةَ كانوا ينعمون في ملكهم ، فآثروا الحياة والبقاء في ذلك النعيم ، ولكنّ الموت صورة لقوةٍ أعظم من قوة الأكاسرة ، كانوا يحاولون إبعاد الموت ليتركهم مُخلّدينَ في الأرضِ ، فتسلل إليهم رسولُه (المنيّة) فاختطفهم مِنْ حضن الملك ليكونوا عبرة لمن هم مثلهم ودونهم .

إنّ الملوك الذين ورد ذكرهم في هذا الشعر أشهر ملوك الفرس ، وفي عهدهم وقعت أكثرُ المعارك بين الفرس والعرب ، ولهذا فهم يمثلون في الذاكرة العربيةِ رَمْزَ القوة وفخامة السُّلطان ، فهؤلاء الملوك العظام تحدّوا الموت بعظمتهم وجبروتهم فَهُزِمُوا ولهذا فالشعر يبين أن صِرَاعَ الإنسانِ مع الموتِ صراعٌ أزليٌّ ، والتَّسْليمُ بهزيمة الإنسان مهما بلغ من قوة أمام الموت أمْرٌ حتمي مهما تباعدتْ بينهما المسافاتُ . فانهزامُ الأكاسرةِ أمام الموتِ وسيلةٌ لجأ إليها الشعراءُ السابقون كي يؤمن الإنسانُ في أي زمان بِقَدَرِيّةِ الموت وغلبتِهِ .

٣. عـادةُ القتـل

ثمةَ عادةٌ كانت خَصِيْصَةً من خصائص البلاط الكِسْرَويِّ وهي عادة قتل الملوك[١] ، وليس هذا القتل نتيجة ثورة يقوم بها الشعبُ ولكنه يتم على أيديْ أحدِ أبناءِ الملكِ ليتولّى الحكمَ بدلَ أبيهِ الملك ، وأصبحتْ هذهِ العادةُ في أواخرِ الدُّوْلَةِ الفارسية أمراً طبيعياً فيذكرُ الطبريُّ أنّ بعضَ ملوكهم « لا يَجلِسُ على العَرْشِ أربَعينَ يَوْماً »[٢] ومِنَ الشعرِ الذي وَصَفَ قتلَ الأبناء لآبائهم الملوك قولُ عدي بن زيد حينما قتل شِيْرُوْيهِ وإخوتُه أباهُم الملك أبْرَويز فتقاسموه بأسيافهم كما يتقاسمون لحم الذّبح يقول عدي[٣] :

وكِسْرَى إذْ تقـــــــسّمَهُ بَنُوْهُ ... بـأسْيَافٍ كمـــا أُقْتُسِمَ اللَّحَامُ

تمخّضَتِ المَنُوْنُ لـــــــه بيَوْمٍ ... أتـــــى وَلِكُلِّ حَامِلـــــةٍ تَمَامُ

ولقسوةِ أولئك الأبناء فإنهم حرموا أباهم لبس الكفَنِ بعد أن قطّعُوْه أشلاء :

قَتَلـــــوا كِسْرَى بِلَيْلٍ مُحْرِمًا ... فَتَوَلَّى لمْ يُمَتَّعْ بِكَـــــــفَنْ[٤]

---

(١) يذكر الجاحظ : « أنّ قتل الملوك كان سنة عند ملوك الفرس » (التاج في اخلاق الملوك ، ص١٠٩) . ويورد الطبَري عدداً من الملوك الذين قتلوا . انظر تاريخ الطبري ، ٢ : ٦٣ ، ٨١ ، ١٨٦ ، ١٩٣ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ .

(٢) تاريخ الطبري ، ٢ : ٦٣ .

(٣) الديوان ، ص٢٠٣ . ويُنسبُ البيتان لخالد بن حُقٍّ الشيباني . انظر السيرة النبوية ، ١ : ٦٣ . البداية والنهاية ، ١ : ١٦٧ . وينسبان لعمرو بن حسان أخي بني الحارث بن همام ، انظر : شهاب الدين الخفاجي ، ريحانة الألبّا وزهرة الحياة الدنيا ، ص٤٥٧ .

(٤) ديوان عدي ، ص١٧٨ .

٥
أعيان الفرس في الشعر الجاهلي

١. المرزُبَان

من رجالات الفرس الذين ذُكِرُوا في الشِّعْرِ الجاهليِّ المرزُبَان ، « والمرزُبان لَقَبٌ للوالي الذي يحكم إحدى مناطق الثغور »(١) ، وفي أثناء الحرْبِ يعملُ قائداً في الجيش(٢) ، وتكونُ صورتُه في الشعر الجاهلي صورةَ القائد الذي خرج لِتوّهِ مِنَ المعركةِ مُنْتصِراً فهو مَحْبُورٌ وجَذِلٌ بهذا النَّصْرِ ، يقول أَوْسُ بنُ حَجَرٍ يُشبِّه الثوْرَ الوحشي بالمرزُبَاني(٣) :

فَشكَّهَا بِذَلِيقٍ حَدُّه سَلَـــبٌ كـــأنَّهُ حِينَ يَعْلُوهُنَّ مَوْتُورُ(٤)

ثُمَّ اسْتَمَرَّ يُبـــاري ظِلَّهُ جَذِلاً كـــأنَّهُ مَرْزُبَانيٌّ فَازَ مَحْبُورُ

فالشاعر يُصَوِّر لنا الثوْرَ الوحشيَّ الذي تمكّنَ من قتلِ كلابِ الصيْد دِفَاعاً عن أُتُنِهِ ، فكأنّ له ثأراً يريد أن ينجزَه حين يعلو تلك الكِلاب بقرْنَيْهِ الماضيتين ، وحينما فاز في المعركة خرج منها فرِحاً يُسابقُ ظلَّهُ من نشوةِ النَّصْرِ ، فهذه الصورةُ تُضَاهي صورةَ المرْزُبَانِ الفارسيِّ ، فهو يقودُ جيشه نحو الأعداء ويقاتل ما وسعه القتالُ مدافعاً عن جيشه كما يدافع الثورُ الوحشيُّ عن أُتُنِهِ ، وإذا كانَ الثَّوْرُ في أكثرِ معاركه مع كلاب الصيد يخرج مُنْتَصراً فإنّ المرزبانَ كذلك ، فهما يَبْذُلان نفسيهما في القتال وحينما تنتهي المعركة يفرح كلاهما بهذا النصر ، لأنهما السببُ في الظفرِ .

فَالمرْزُبَانُ يملك قوةً تُضَاهي قُوَّةَ الثوْرِ الوحشيِّ وتُضَاهِي قوة الأسدِ ومن ذلك قولُ أوس بن حَجر يشبه فَضَالَةَ بن كَلَدَةَ(٥) بالأسد(٦) :

لَيْثٌ عَلَيْهِ مِنَ البَرْدِيِّ هِبْرِيَـــةٌ كالمـــرْزُبَانِي عَيَّالٌ بآصَالِ(٧)

فالشاعر يُشبِّهُ فضالةَ بن كَلَدَةَ باللّيث ، ومن ثمَّ يشبه هذا بالمرزبان الفارسي الزاهي بنفسه ساعة الأصيل ولاشكَّ أنّ هذا الوقتَ هو الوقتُ الذي يخلد فيه الجيش للراحةِ بعد قتال شديد في صَباحِ اليوم ، فالمرزبان

---

(١) إيران في عهد الساسانيين ، ص١١ .
(٢) المرجع السابق ، ص١١٩ .
(٣) الديوان ، ص٤٣ .
(٤) الذَّلِيقُ : القَرْنُ . والموتُورُ : الذي قُتِلَ لَهُ قَتِيلٌ فلم يدرك بدمه ، وهو من الفعل : وَتَرَ يَتِرُ وَتْراً وَتِرَة .
(٥) هو فَضَالة بن كَلَدَة الأسدي ، شاعر جاهلي كان صديقاً للشاعر أوْس بن حَجَر التميمي .
(٦) الديوان ، ص١٠٥ .
(٧) البَرْدي : ضرب من النَّبات واحدته : بَرْدِيَّةٌ . والهِبْرِية : ما تَعلّق بأسْفَلِ الشَّعْرِ مثل النُّخالةِ وعنى بالهِبْرية هنا ما يتناثر من القصب والبَرْدي فيبقى في شعره مُتلبداً . والعيّال المنبختر . والآصال جمع : أصيل .

قائد الجيش ضَارَبَ الأعداءَ وأرضى نفسه وجيشه فأخذَ يزهو بنفسهِ وتزهو نفسُه بهِ بعد أن حققَ الظفرَ ، فهو كالأسَدِ الذي يزهو بقوتهِ على سائرِ الحيواناتِ ، فجمعت بينهما القوةُ والكِبْرُ والزَّهْو بالنفس .

٢. العـزيـــز

يُعَدُّ الرجل العزيز من عِلِّيَةِ القوم ، فهو شريف كريم منيع في قوْمِهِ ، والعَزِيزُ الفارسي هو من أشْراف الفرس وأعيَانِها وتَدُلُّ صورتُه في الشعر الجاهلي على الرِّفعةِ والسمو ، ومن ذلك تشبيه امرىء القيس فرسه بالعزيز الفارسي في قولهِ [١] :

وَظَلَّ غُلامِي يُضْجِعُ الرَّمْحَ حَوْلَهُ ... لِكُلِّ مَهَاةٍ أوْ لأحقـــب سَهْوَقِ [٢]

وَقَامَ طُوالَ الشَّخْصِ إذْ يخْضُبُونَهُ ... قِيَامَ العَزِيزِ الفَارســـيِّ المُنطَّقِ [٣]

ففرَسُ امرىء القيس أدْرَكَ غايته وفاز باللَّذَة بعد أنْ لحق طريدته فقام واقفاً يُخضبُه القوم بدم تلك الطريْدةِ ليُعْلَمَ أنَّهُ قَدْ صادوا به فهو لذلك أكثر زهواً ، فهذهِ الصورة تشبِهُ صورةَ العزيز الفارسي الذي يشد وُسْطه بالنِّطاق وفي ذلك دِلالة على عزمهِ لتحقيق ما يسعى إليه ، ولعّله أدْرَك طِلبَتَهُ كما أدْرَك فرسُ امرىء القيس طريدته بعد عزم وجُهدٍ عظيمين .

ولعـل العزيزَ الفارسيَّ هو صاحب البيـت المعلقِ الذي يُشبِهُ مَرْقَبَةَ الطّير في قول خُفَافِ بن نُدْبة السُّلمـي [٤] :

وَمَرْقَبَةٍ طَيَّرْتُ عَنْهَا حَمَامَهَـــا ... نَعَامَتُهَا مِنْهَا بِضَـــاحٍ مُزَلَّقِ [٥]

تَبِيْتُ عِتَاقُ الطَّيْرِ فـــي رَقَبَاتِهَا ... كطُرَّةِ بَيْتِ الفَارســـيِّ المُعَلَّقِ [٦]

فالعزيز الفارسيُّ رجل من كبار الفرس ، دائم الزَّهو والكبرياء ، يعظمه قومه ، وهو رَجُل موسر يبنى البيوت المعلقةَ، وإخالُ أنَّ هذه البيوتَ قصورٌ مقامةٌ على التلال وفي ذلك دَليل على أن صَاحبَ هذا البيت من أعيان الفرسِ المُوسِرين الذين يبنون القُصُوْرَ المنيفة .

---

(١) الديون ، ص١٧٥ .

(٢) المهاة : البقرة الوحشية . الأحقب : حمار الوحش . والسَّهْوق : الطويل .

(٣) المُنَطَّق : الذي شدَّ وَسطَه بمِنْطَقَة .

(٤) شعره ، ص٣٤ .

(٥) المَرْقَبَة : هي الموضع يُرْقب عليه . النَّعامة : الصَّخْرَة الملساء . والضاحي : الظاهر . والمزلّق : الأملس الذي لا تثبت عليه قدم . أيْ أنّ المرقبة على صخرة ناشزة ملساء في مكان ظاهر .

(٦) الطُّرَّة : طرف كل شيء ، يشبهُ الشاعر مايظهر من المَرْقَبَة وهي على صخرة ملساء بالطَّرفِ الظَّاهرِ من بيت الفارسي القائم على مكان مرتفع .

٦
أيام العرب مع الفرس في الشعر الجاهلي

١. بينَ الحَضْرِ والفُرسِ

في الفترةِ الممتدَّةِ بين عامي (٨٥ ق.م - ٢٤١ م) أقامت بعضُ القبائلِ العربيةِ مملكةً في شَمالِ العراق، وتُعْرَفُ هذه المملكة باسم « عَرَبَايا » أيْ بلاد العرب وكانت عاصمتها مدينةَ الحَضْر ، وتمتد حدودها من دِجْلةَ شَرْقاً إلى الفُرات غَرْباً ومن مشارف المدائن جنوباً إلى سِنْجار شمالاً .

وعلى الرَّغْمِ مِنْ مَوْقِعِها المنعَزِلِ في البَادِيةِ كان لها مكانةٌ دينيةٌ بين القبائلِ العربيةِ ، فكانت هذه القبائل تهرع لِنَجْدَتِهَا في أوْقاتِ الشِّدَّةِ دِفَاعاً عن أصنامها ومعابدها ، كما أنّ موقعها جعل لها دوراً تجارياً في السيطرة على طرق التجارة بين الدولة الفرثية الفارسية والخليج العربي من ناحية والإمبراطورية الرومانية من ناحية أخرى ، وكانت هذه المملكة العربية ترتبط في أكثر الحِقَب مع الروم [١]. ولهذا حينما « آلت السلطة السياسية في بلاد فارس بعد الفرثيِّينَ إلى السَّاسَانيين عام (٢٢٤م) أخذ ملوكهم يعملون للقضاء على هذه المملكة ، فتمكن سَابورُ الأوّلِ من دخولها بعد محاصرتها » [٢] وفي ذلك يقول الأعْشَى [٣] :

أَلَـــمْ تَرَي الحَضْرَ إذْ أَهْلُهُ ... بِنُعمَى وَهَلْ خَالِدٌ مَنْ نَعِمْ

أَقَامَ بِهِ شَاهْبُورْ الجُنُـــو ... د حَوْلَيْنِ تَضْرِبُ فِيهِ القَدُمْ

فَمَـــــا زَادَهُ رَبُّهُ قُوَّةً ... وَمِثْلُ مُجاورِهِ لم يُقِمْ

فَلَـــــمَّا رَأَى رَبُّهُ فِعْلَهُ ... أَتَاه طُرُوقاً فلمْ يَنْتَقِمْ [٤]

وكَـــانَ دَعَا رَهْطَهُ دَعْوَةً ... هَلُمَّ إلى أَمْرِكُمْ قَدْ صُرِمْ

فَمُوتُوا كِرَاماً بِـــأَسْيَافِكُمْ ... وَلِلموتُ يَجْشِمُهُ مَنْ جَشِمْ [٥]

وَلِلْمَوْتُ خَيْرٌ لِمَنْ نَـــالَهُ ... إذا المرْءُ أَمَّتْهُ لم تَدُمْ [٦]

فَفِـــي ذَاكَ لِلمؤتَسِي أُسْوَةٌ ... وَمَأْرِبُ قَفَّى عَلَيْهَا العَرِمْ

---

(١) انظر : الحَضْر مدينة الشَّمس ، ص١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ .

(٢) Arabia Before Muhammad, P. 155

(٣) الديوان ، ص٤١ ، ٤٣ .

(٤) الطُّرُوقُ : الاتيان ليلاً .

(٥) جَشِمَ الأمرَ : تكلّفه على مشقة .

(٦) الأُمّة : النّعمة وغضارةُ العيش .

ونتبيّنُ من شعر الأعشى أن أهلَ الحَضْر كانوا يعيشون حياة مُطْمئنةً هادئةً حتى قَدِمَ إليهم سابور الجنود [١] مزمعاً فتحها فكان الحصن الذي أُقِيْمَ حولها مانعاً وقوياً ، مما جعل الفرس يقيمون حوله عامين حتى استطاعوا أن يفتحوا المدينة ؛ وأن يقيم الملك سابورُ وجيشهُ حول حِصْن الحَضْر عامين فترة زمنية مبالغ فيها كثيراً [٢] ، وتبدو نظرةُ إعجاب الأعشى بسابور واضحةً في قوله « ومثل مُجاوره لم يُقِمْ » ، ويظهر من شعر الأعشى كذلك أن سابور لم ينتقم مِن أهلِ الحضْر الذين قاوموا الحصارَ وثبتوا في مدينتهم المحصّنة ، وبعد دخول الفرس مدينة الحضرِ لم تعدْ مُزْدَهِرَةً كما كانت وفي ذلك يقول عَديُّ بن زيد : [٣]

وأخو الحَضْرِ إذْ بَناهُ وإذ دِجْلَةُ يُجْبَى إليهِ والخابورُ
شَادَهُ مَرْمَراً وَجَلَّلَهُ كِلْساً فَللطيرُ في ذُرَاهُ وُكُوْرُ
لمْ يَهَبْهُ رَيْبُ المنونِ فَبَانَ المُلْكُ عَنْهُ فَبابُهُ مَهْجُوْرُ

أمّا الملك الذي كان يتولى أمْرَ الدِّفاع عن مدينةِ الحَضْر فقد اضطربت آراءُ المؤرخين فيه فبعضهم جعله عربياً اسمُه « الضَّيْزَن » [٤] واستشهد بعض هؤلاء بقول عمرو بن إلة بن الجُدّي وكان مع الضَّيْزَن [٥] :

أَلَمْ يَحْزُنْكَ وَالأَنْبَاءُ تَنْمَى بما لاقَتْ سَراةُ بني عَبِيْدِ
ومَصْرع ضَيْزَنٍ وَبَني أَبِيهِ وأحْلاس الكتائب مِنْ تَزِيْدِ
أتاهُمْ بالخيولِ مُجلّلاتٍ وبالأبطَالِ سابُور الجنودِ
فَهَدَّمَ مِنْ أواسِي الحِصْنِ صخراً كأنّ ثِغَالَهُ زُبَرُ الحديدِ [٦]

وذهب بعض المؤرخين إلى أنّ ذلك الملكَ غيرُ عربي واسمه « الساطرون » وشاهدهم في ذلك قول أبي دؤاد الإيادي [٧] :

وأرَى الموْتَ قَدْ تَدلّى مِنَ الحَضـْ ـرِ عَلَـــى رَبِّ أهْلِهِ السَّاطِرُوْنِ

---

(١) ثمة خلط عند بعض المؤرخين بين سابور الجنود وسابور ذي الأكتاف ففي السيرة النبوية ، ١ : ٦٥ . والأخبار الطوال ، ص٤٩ . ومعجم البلدان ، ٢ : ١٠١ .أنّ الذي هاجم الحصن هو سابور ذو الاكتاف . والصحيح أنّه سابور الجنود بن أرْدَشير المؤسس الأول للدولة الساسانية، أمّا سابور ذو الاكتاف فهو الذي قتل قبيلة إياد .

(٢) وزعم ابن الكلبي أن الحصار دام أربع سنين . انظر تاريخ الطبري ، ٢ : ٤٧ . وذكرتْ وثيقة حديثة اكتشفت في مصر : أن الحصار دام سنة كاملة من ١٢ نيسان عام ٢٤٠م إلى ١ نيسام من عام ٢٤١م . انظر : الحَضْر مدينة الشمس : ص٣٤ .

(٣) الديوان ، ص٨٨ .

(٤) رأي ابن الكلبي في تاريخ الطبري ، ٢ : ٤٧ . الأخبار الطوال ، ص٤٨ . معجم البلدان ، ٢ : ١٠١ .

(٥) تاريخ الطبري ، ٢ ، ٥٠ . ويُنسبُ هذا الشعر لجدي بن الدلهاث . انظر : معجم البلدان ، ٢ : ١٠١ .

(٦) الأواسي : جمع أوس : وهو ما عرف من آثار الحصن . والثِّغال : ما استقرّ تحت الحجر . والزُّبَر : جمع زَبَرَة وهي القطعة من الحديد .

(٧) السيرة النبوية ، ١ : ٦٥ . تاريخ الطبري ، ٢ : ٤٧ . والرأي للطبري نفسه .

أمّا الصّوابُ فهوَ أنّ ملوك الحضرِ كانوا عرباً ، وكان الملك الذي تم في عهدهِ الحصار هو « سنطروق » ويُفَسِّر فُؤاد سَفر ومحمد علي مصطفى مصدر الالتباس الذي وقع فيه المؤرخون بقولهما : « إنّ الضَّيْزَنَ كان على رأس العرب الذين ذهبوا إلى الحَضْر بعد أن هزمهم سابور الجنود في الحيرة التي اتخذوها مركزاً مَرْحليا بعد نزوحهم إلى العراق من الغرب ، ويتراءى لنا احتمال أنّ الضَّيْزَنَ ومن مَعَهُ احتموا بأسْوَارِ الحَضْرِ برضى مِنْ ملكها سنطروف أو بالتحالف معه و يُرَجِّحُ أنّ ذلك كان بعد عام (٢٣٨م) الذي فيه بلغَ ازدهارُ الحَضْر أوْجَه وقد حاربَ الملكان سنطروق والضَّيْزَن في صفٍّ واحد للدفاع عن المدينة ، الأمر الذي يفسر لنا الالتباس الحاصل بين اسميهما لدى بعض المؤرخين ، وما الساطرون إلاّ صيغةٌ محوّرةٌ عن اسم سنطروق » [1] .

ويُخلصُ من هذا إلى أنّ أهلَ الحضْرِ بقيادةِ الملك سنطروق ثبتوا أمام الجيش الفارسي سنة كاملة ، وهذا الصمود الطويل من قبل أهْل الحضر لم يفتّ في عضد ملك الفرس سابور الذي استطاع أن يدخل مدينة الحضْر بقوة جيشهِ وصبره الطويل [2] ، وبعد ازدهار تلك المدينة حُوِّلتْ بذلك الغزو الفارسي إلى مدينة ليس لها من الملك والنفوذ شيء فكان احتلال الحضْرِ حلقةً من حلقاتِ الحملات العسكريّة الفارسية ضد العرب .

(١) الحضر مدينة الشمس ، ص٣٥ .

(٢) نسج خيال بعض الشعراء الجاهليين قصة خيالية لسقوط الحضر، وذلك أن ابنة الضيزن واسمها النضيرة قد عشقت سابور الجنود فأخبرته بطريقة دخول الحصن ، فلما دَخلَه قتل النّضيرة لخيانتها أبيها . انظر ما قيل في هذه القصة من شعر في : السيرة النبوية ، ١ : ٦٧ . تاريخ الطبري ، ٢ : ٥٠ .

٢. بين إياد والفرس

في أوائل القرْنِ الثالثِ الميلاديِّ تنازعت إيادٌ ومُضَر بعد انتصارهما على قبيلةجُرْهم وإجلائها عن مكة، فهزمت إياد وهاجرت إلى العراق وكان أكبر موطن لها عينَ أُبَاغ كما أنها استقرت في منازل متفرقة في جنوبي الحيْرة ، واعترفت بسيادة الأمراء اللّخميّين على الحيرة[١] ، ويبدو أن كثرة غاراتهم على سَوَاد[٢] العراق وأطراف فارس كان سبباً دفع ملوك الفرس إلى تأديبهم والقضاء عليهم ، ففي عهد سابور بن هُرْمُز الذي يلّقب بذي الأكتاف - وكان صغيراً - غلبت إياد على سواد العراق وأكثروا الفسادَ فمكثوا حيناً لا يغزوهم أحدٌ من الفرس لِصغَر سابور ، فلما ترعرع سابور وكَبُرَ جهّزَ لهم الجيوش وأوْقَعَ بهم موقعة عظيمة[٣].

ولعلَّ إياداً بَعْدَ هذه الوقعةِ لم تَضْعُفْ ولم تهدأ فاستمرتْ في غاراتها على أطراف فارس وأرضِ السواد، وعادوا قوةً لا تخشى الفرسَ ، ففي ملك سابور بن سابور ابن أخي سابور ذي الأكتاف يذكر أحَدُ شعراء إياد أنّ قبيلته أرْغمتْ أنف ذلك الملك حينما أخَذَتْ تقوى وتبني القباب وتعد نفسها لمواجهة أي اعتداء من قِبَلِ الفُرْسِ ، وفي ذلك يقول[٤] :

قِبَابُ إيَادٍ حَوْلَهَا الخَيْلُ والنَّعَمُ
على رَغْمِ سَابُورِ بنِ سَابُورَ أصْبَحَتْ

ومن ذلك قول أبي دؤاد الإيادي[٥] :

وإخوتَهُمْ كِنَانَةَ عن إيَادِ[٦]
ألا أبْلِغْ خُزَاعَةَ أهْلَ مَرٍّ
وَكُنَّا أهلَها مِنْ عَهْدِ عادِ[٧]
تركْنا دارَهُمْ لَمَّا ثَرَوْنا
بجُرْدِ الخيلِ مُشْنفةَ القِيَادِ[٨]
وَأسْهَلْنَا وسَهْلُ الأرْضِ يُخْشَى
عَلَفْنا الخيْلَ من خُضْرِ السَّوَادِ
فَنَازَعْنَا بنِي الأحْرَارِ حتى

ونتبين من هذا الشعر أنّ قبيلةَ إيادٍ كانت كثيرةَ العدد والخيل والسِّلاح وهي لِذلك قويةٌ تستطيع أنْ تذبَّ عن بيضتها وتحمي ذمارها ، ولم يكتفِ أبو دؤاد بهذا الاستعداد الإيادي بل إنه أشار إلى ما كان بين إياد

(١) دائرة المعارف الإسلامية ، ٥ : ٢٥٤ .

(٢) سمي السواد بذلك لسواده بالزروع والنخيل والأشجار ، لأنّه حيث تاخم جزيرة العرب التي لازرع فيها ولا شجر ، وحدُّ السواد من المَوْصِل طولاً إلى عبّادان ومن العُذَيب بالقادسية إلى حُلْوَان (وهي مما يلي الجبال من بغداد) .

(٣) الكامل في التاريخ ، ١ : ١٥٧ . مروج الذهب ، ١ : ٢٥٤ .

(٤) التنبيه والإشراف ، ص١٧٥ . مروج الذهب ، ١ : ٢٦٠ .

(٥) ديوانه في دراسات في الأدب العرب ، ص٣٠٢ .

(٦) مَرٌّ : موضع يبعد عن مكة خمسة أميال ، سكنته خزاعة حين أقبلوا من مأرب يريدون الشام فنزلوا به ويقال له : مر الظهران .

(٧) ثرونا : كثرنا .

(٨) مشنفة : مزمومة في حال الاستعداد .

والفرس من منازعات ، ويجعل الشاعر قبيلته غازيةً غيرَ مَغْزوّةٍ ومُغيرَةً غير مُغارٍ عليها ، يتجلّى ذلك في قوله «فنازعنا» وكانت نتيجة تلك الغارات الإيادية أنّهم تمكنوا من الإقامة في السّواد والسّيطرة عليه .

ولا بدَّ منَ الإشارة إلى أنّ المنازعات التي ذكرها أبو دؤاد هي ضرب من المناوشات البسيطة، والغارات السريعة، ولم تكن مواجهاتٍ حربيةً بين إياد والجيش الفارسيّ ، ويخال أنها كانت أيّامَ انشغال الأكاسرة بالاضطرابات الداخلية ، وأن تلك الغارات كانت على الأعاجم الذين يقيمون في السواد ولا بدَّ مِنْ أنّ تلك الغارات تقلقُ الأكاسرة وسائر الفرس ومن ثم فإن ثبات إياد أمام الأعاجم ، وغاراتها عليهم كان يمثل فخراً لهم فهذا الأخنَسُ بنُ شِهَاب التّغلبي يمدحهم في قوله [١] :

وَغَارَتْ إِيَادٌ فـــي الـسَّوَاد وَدُونَهَا بَرَازِقُ عُجْمٍ تبتَغـي مَنْ تُضَارِبُ [٢]

وفي عهد كسرى أنُوشِرْوَان اشتدّتْ غارات إيادٍ على السواد وأطراف فارس حتى أصابوا امرأة من أشراف العجم كانت عروساً قد أهْديت إلى زوجها ، فولِيَ ذلك منهم سفهاؤهم وأحداثهم فَسَار إليهم من كان يليهم من الأعاجم فانحازت إياد إلى العراق وعبرت الفرات وبيّتت إياد ذلك الجمع حين عبروا فلم يفلت منهم إلاّ القليل قرب الكوفة ، فسميت الموقعة بدير الجماجم لكثرة قتلى الفرس . وأرَادَ كسرى أنوشِرْوان [٣] أن يثأر لنفسه ويدفع عنه عدوان بني إياد ، فأرسل جيشاً من الفرس لحربهم[٤] وكان أحدُ شعراء إياد وهو لقيط الإيادي في سجن كسرى فبعث لهم بقصيدة[٥] يحذرهم فيها من جموع الفرس ومطلع هذه القصيدة [٦] :

يا دارَ عَمْرة مِنْ مُحتَلّهَا الجَرَعـــا هَاجَتْ لِيَ الهَمَّ والأحْزانَ والوَجَعَا

فالشاعرُ في قصيدته [٧] هذه يبدأُ بمخاطبة دار عَمْرَة التي جلبتْ له الهمومَ والأحزانَ والأوْجاعَ ، وهو مُتيَّمٌ بخرْعِبةٍ تقطن ذاتَ الجِزْع ، ولكنّه لا يستطيعُ أنْ يصلَ إليها ، فقد بانَتْ وَشَطَّ بها النوى ، فأصبَحتْ خيالاً يتسللُ إليه فيؤرقه وليستِ الدّارُ التي يخاطبُها الشاعرُ إلاّ دارَ قومِه ، وإذا ما أخذنَا معنى « الخِرْعِبَةِ » على أنّه المرأةُ الغضّةُ الحسنة أو النبات الغَضُّ ؛ فإنّه من المسوّغ أنْ تكون معشوقةُ الشاعرِ – التي شطَحَتْ ، وانقطعتْ سُبُل الوصلِ بينهما – قبيلةَ إيادٍ بإنسانِها ومكانِها ولذلك فهو دائم الأرقِ والسّهَادِ ، شديدُ الحنين ،

(١) المفضليات ، ص٢٠٦ .

(٢) البَرازِقُ : جمع برْزِيق : وهو الفارسُ ، فارسي معرب . والبرازق : الجماعات .

(٣) التبس اسم الملك الفارسي على ابن الأثير (الكامل ، ١ : ١٥٧) والمسعودي (مروج الذهب ، ١ : ١٥٤) فجعلاه سابور ذا الأكتاف .

(٤) انظر : الأغاني ، ٢٢ : ٣٩٣ . معجم ما استعجم ، ١ : ٧٠ . دائرة المعارف الإسلامية ، ٥ : ٢٥٤ .

(٥) ذهب ابن عبد ربه « إلى أن الشاعر بعثها إلى بني شيبان في يوم ذي قار » العقد الفريد ، ٦ : ١٠١ . والصحيح أنه بعثها إلى قومه إياد قبل موقعة ذي قار التي حدثت في عهد كسرى ابروَيز بن هُرْمُز بن أنوشِرْوَان . ولم يرد ذكر لبني شيبان في هذه القصيدة فهو بعثها إلى إياد قبيلته انظر : ديوانه ، ص٣٤ .

(٦) الديوان ، ص٣٠ .

(٧) انظر القصيدة في ديوانه ، ص٣٠ – ٤٩ .

يريدُ الخروج من مكانهِ وزمانهِ كي يفعلَ شيئاً وليسَ له إلاّ أن يلجأ إلى الحاضرِ الذي يعيْهِ وَعيّاً كاملاً ليستشرف المستقبل الذي يحددُ ملامحه تباينُ الحاضرِ .

إن عَيْنِيَّةَ لقيط تكشف عن صورتين متباينتين ، إحداهما تمثل القوّةَ والاتحادَ وهي صورةُ الفرس ، والأخرى تمثلُ الضعفَ والانقسامَ وهيَ صورة إياد ؛ فالفرس مُزْمِعُونَ على حرب إياد واستئصال بيضتها ، والقضاء عليها ، فأخذوا يعدون للأمر عدته ، فأعدوا الجيش والسِّلاح ، وأقْبلوا على إيادٍ كصخور حَطُّهَا السيل منْ علٍ بل إن القلاع العظيمة تتباهى بهم ، وهم في إقبالهم يسرعونَ الخطى ، وكأنهم جرادٌ منتشرٌ ، يحملون البغض والقِلى ، وإذا ما نظرت إليهم رأيت ثمّ عيوناً تتوقد غَضَباً ، وكأنها قطعٌ من نارٍ تُحرِّقُ كلَّ منْ ينظرُ إليها .

أمّا صورة إيادٍ فهي تنبيء بالفرقةِ والانقسامِ فهم فريقان ؛ فريقٌ قويٌ لا تستطيعُ الليوثُ أن تقف أمامه والفريق الآخر ضعيف مضطرب غير مهتم بأمر قبيلته ، ولذلك فأمْرُهَا شتّى حِيْنَ أُحْكِمَ أمرُ غيرها مِنَ النّاسِ ، وهي قبيلةٌ أخذت تفلحُ الأرضَ وتكنز الأموالَ فلم تَعُدْ تهتم بالذَّوْدِ عن وجودها الذي يهدده هذا الكربُ القادمُ من ناحيةِ فارس ، فالشاعر يدعوها إلى التماسك واليقظة وأن يَعُدَّ قَوْمُهُ الخيلَ والسلاحَ ، ويبذلوا من تالدِ وطريف أموالهم حتى يحفظوا أعْراضَهم ، ويصونوا محارمَهم ونساءهم ولا يكون ذلك إلاّ أن يتولّى أمرَهم رجلٌ قويٌ صلبُ القيادة فيلمّ شعثهم ويقودهم نحو النَّصْرِ .

ولكن إياداً لم تُجبْ دعوةَ شاعرِها فدخلتِ الحربَ ضعيفةً منقسمةً على نفسها أمام جيشِ الفرس المُتّحِدِ ، فظَفِرَتْ بهم الفرسُ وهُزِمَت إيادٌ وقُتِلَ منها عددٌ كبير ولاذ من نجا منهمْ بأطْرَافِ الشّام .

يظهر من الشعر الجاهلي أنّ اياداً كانت تقارعُ الأعاجم في أطرافِ الدولة الفارسية ، وأنْ تثبت هذه القبيلة أمام الفرس حيناً من الدهر لأمرٌ يجعلها تفخر بنفسها أمام القبائل العربية التي يخضع أكثرها للفرس ، وينبغي الإشارة إلى أنّ إياداً في غاراتها على السواد وأطراف فارس إنما كانت تُغيْرُ على الأعاجم في هذه المواضع ، ولم تكن تلك الغاراتُ مواجهاتٍ عسكريةً بينها وبين الجيش الفارسي ، أمّا المواجهات بينهما فكانت في موقعتين إحداهما في عهد سابور ذي الأكتاف وليس ثمة شعر يصف هذه الموقعة ولعل ذلك يعود إلى أنّها كانت في زمن قديم من العصر الجاهلي، أمّا الموقعة الأخرى فكانت في عهد كسرى أنوشِرْوَان ، وكانت الفرس في هذه الموقعة قوية متماسكة ، أمّا إياد فكان أمْرُها فُرُطَا وكان عاقبةُ أمرِها الشتاتَ والضربَ في أطراف الشام .

٣. بينَ شيبان والفرس

تُعدُّ معركةُ ذي قار [١] من أهم المعارك الفاصلةِ بينَ الفُرْسِ والعربِ في العصر الجاهلي فقد استطاعت قبيلة شيبان أن تُقارِعَ الفرس في هذه الموقعة التاريخيةِ ، فبعد أن قُتِلَ النُّعْمَانُ بنُ المُنْذِر والي الفرسِ على الحيرةِ على يدي كِسْرى أبْرَوِيز بن هُرْمُز بن أنوشِرْوان في المدائن بسبب مؤامرة دبرها الشاعر عدي بن زيد العبادي طلب كسرى ودائعَ النعمان التي اودعها عند الشيبانيين من هانيء بن قبيصة بن هانيء بن مسعود زعيمهم فأبى إعطاءها له وأخذ البكريون يُغيرون على سَواد العراق ، فغضب كسرى « وعقد للنعمان بن زُرْعَة على تَغْلب والنَّمر بن قاسط ، وعقد لخالد بن يزيد البَهْراني على قُضاعَة وإيادٍ ، وعقد لإياس بن قبيصة الطائي على جميع العرب ومعه كتيبتاه الشَّهْبَاء والدَّوْسَر فكانت العربُ ثلاثةَ آلافٍ ، وعقد لِلْهَامَرْز على ألف من الأساورة وعقد لحُنابرين على ألف آخرين »[٢] وفي هذا العدد يقول أصُم بني الحارث : [٣]

عَرَبا ثــلاثةُ آلفٍ وكتيبــــةً ... ألْفَيْن أعجـــم مِنْ بَنِي القُدَّام

وعلى الرغم من اشتراك بعض العرب مع الفرس ضد بني شيبان إلاّ أنّ هذا الموقعة كانت مواجهة بين الفرس والشيبانيين الذين يمثلون الرمز العربي في تلك الموقعة ، فقد جاءت الفرس بجنودها وأفْيالِها ، ووقعت الحرب وتمادتْ ثلاثةَ أيّامٍ كان آخرها يوم ذي قار ، ومن أسماء ذي قار : « يومُ قُرَاقِر ، ويومُ الحِنْوِ ، وحنوِ ذي قار ، ويومُ حِنْوِ قُراقر ، ويومُ الجُبَايات ، ويومُ ذي العُجْرُم ، ويوم الغَذَوان ، ويوم البطحاء » [٤]

أمّا متى وقعت هذه الموقعة ؛ فقد تضاربت آراءُ المؤرخين في ذلك ، فمنهم من جَعلها يوم ولادة الرسول عليه السلام [٥] ، ومنهم مَن جعلها في سنة أربعين من مولد الرسول وهو بمكة [٦] وقيل بعد الهجرة، وفي رواية أخرى أنّها كانت بعد وقعة بدر بأشهر[٧] ، وذهب روتشتاين ونولدكه إلى أنها كانت حوالي سنة (٦٠٤م) [٨] أمّا نيكلسون فيرى أنها حدثت في سنة (٦١٠م) [٩] وأغلب الظن أنها وقعت حوالي هذه السنة أي بعد البعثة النبوية بزمن قصير ، وفي هذا اليوم يقول الرسول : « هذا أوّلُ يوم انتصفت فيه العرب من

---

(١) انظر هذه الموقعة في : الأغاني ، ٢ : ١٢٥ ، ٢٣ : ٢٢٥ - ٢٣٥ . تاريخ الطبري ، ٢ : ١٩٣ - ٢١٢ . مروج الذهب ، ١ : ٢٧٨ . المحبر ، ص٣٦٠ . الكامل في التاريخ ، ١ : ١٩٦ - ٢٠٠ . العقد الفريد ، ٦ : ٩٦ - ١٠٢ . معجم البلدان ، ٤ : ٢٩٤ . المناقب المزيدية ، ٢ : ٤٠٣ . دائرة المعارف الإسلامية ، ٩ : ٣٩٨ . سبائك الذهب ، ٤٤٩ . المفصل ، ٢ : ٢٩٤ . شعراء النصرانية قبل الإسلام ، ص١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ . نواح مجيدة من الثقافة الإسلامية : ص١٤٠ . د. السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ العرب قبل الإسلام ، ١ : ٢٦١ .

(٢) الأغاني ، ٢٣ : ٢٣٨ . معجم البلدان ، ٤ : ٢٩٣ . والهامَرْز وحُنابرين : قائدان فارسيان .

(٣) الأغاني ، ٢٣ : ٢٣٨ . تاريخ الطبري ، ٢ : ٢١١ .

(٤) تاريخ الطبري ، ٢ : ١٩٣ . العقد الفريد ، ٦ : ٩٦ .

(٥) معجم البلدان ، ٤ : ٢٩٤ .

(٦) المحبر ، ص ٣٦٠ .

(٧) المناقب المزيدية ١ : ١٥٨ . سبائك الذهب ، ص٤٤٩ .

(٨) المفصل ، ٢ : ٢٩٤ .

(٩) Nicholson, Aliterary History of The Arabs, P. 70

العجم ونُصِرَت عليهم بِي »[١] .

ويبدو أن قبيلة شيبان كانت مستعدة لقتال الفرس فهذا قائد شيبان هانيء بن قبيصة يتحدى الجيش الفارسي بقوله[٢] :

مَتَى يَلْقَنا الهَامَرْزُ نَعْصِفْ بيومِهِ وتَخْذُلُهُ أقيـــالُه ومرَازِبُهْ[٣]

ويحض حنْظَلَةُ بن ثعلبة بن سيار الشيبانيين على حرب الفرس في قولهِ[٤] :

يـا قَوْمِ طيِّبُوا بِالْقِتَالِ نَفْسَـــا أجْـــدَرَ يَوْمٍ أنْ تَفُلُّوا الفُرْسَا

وأخذت نساءُ شيبان يبعثن الحماس في قلوب الأقوام كقول إحداهن :

إن يظفروا يُجرِّدوا فينا الغُرَل[٥] .

أمّا الفرس فقد أعدّوا لهذهِ الحرب عدتها وأقبلوا نحو ذي قار بقيادة الهامرز بعد أن رَسَموا الخُططَ وَقدّرُوا الأمور يقول الأعشى[٦] :

فـجـــاءَ القيلُ هَـــامَرْزٌ عَلَيْهِـــمْ يُقْسِمُ القَسَمَـــا

يَذُوقُ مُشَعْشَعَـــا حتّـــى يُفـــيءَ الـــسَّبيَ والنَّعَمَـــا

فالهامرز كما يذكرُ الأعشى أقسم ألاّ يذوق الخمر حتى ينحَتَ أثْلة الشيبانيين ويخضعهم لأمر كسرى ويسبي نساءهم ، وقسم الهَامَرْز بعدم شرب الخمر كانت عادةً عربيةً يستخدمها العربي حينما يكون موتوراً أوْ مظلوماً .

أمّا صورة الجيش الفارسيّ فهو كثير العدد يَهُدُّ السهل والأكما[٧] ، وكانوا يحملون راياتهم كأنها عقابٌ تدلت من السماء وفوق رؤوسهم تلمعُ خوْذاتهم المحكمةُ التي تشبه النجومَ اللاّمعة[٨] .

ويصف الأعشى الفرس بأنهم[٩] :

جَحَاجِحٌ وَبَنـــو مُلْكٍ غَطَارِفَةٌ مِنَ الأعَاجِمِ في آذانِها النُّطَفُ[١٠]

---

(١) تاريخ الطبري ، ٢ : ١٩٣ . العقد الفريد ، ٦ : ٩٦ . الأغاني ، ٢٣ : ٢٣٦ . الكامل في التاريخ ، ١ : ١٩٦ . معجم البلدان ، ٤ : ٢٩٤ .

(٢) المعرب ، ص٤٥٢ .

(٣) أقيال : جمع قيل وهو مَنْ دون الملك .

(٤) تاريخ الطبري ، ٢ : ٢٠٩ .

(٥) المرزباني ، أشعار النساء ، ص٢٠٦ . والغُرَل : الرماح .

(٦) الديوان ، ص٣٠١ .

(٧) انظر : ديوان الأعشى ، ص٣٠١ ، ص٣١١ .

(٨) المصدر السابق ، ص٢٥٩ .

(٩) الديوان ، ص٣١١ .

(١٠) الجحاجح : جمع جحجح وجحجاح وهو السيد . والغطارفة : جمع غطريف : وهو السيد كذلك .

فهم سادة وشرفاء ينتسبون إلى الأكاسرة ، ويزينون أذانهم باللؤلؤ ، وهذا يجعلهم أكثر كِبْراً وخيلاء . ونلاحظ أنّه ليس ثمة وصف يضفي عليهم القوة والشجاعة .

أمّا حالةُ بني شيبان قبل المعركة فهم أباةُ الضيم[١] ، لا تستطيع الأكاسرةُ أن تجعلهم تابعين ، فلذلك كان أمرُ كِسْرَى عليهم غير نافذ قطُّ .

وحينما ثار الفريقان والمنية بينهما دافعت بنو شيبان دفاع الذابِّ عن عرضهِ وحريمه وأرضه ، وكان للنساء دور عظيم في حَضِّ رجالهن الشيبانيين على القتال من دُونِهنَّ كما يقول الأعشى في وصفهن وهن خلفهم مترقباتٍ[٢] :

وُظَعْنَنَا خَلْفَنَا كُحْلاً مَدَامِعُها ... أكبَادُهَا وُجُفٌ مِمَّا ترى تَجِفُ

حَوَاسِرُ عَنْ خُدُودٍ عَايَنَتْ عِبَراً ... ولاحَهَا وَعَلاهَا غُبْرَةٌ كُسُفُ[٣]

من كلِّ مَرْجَانةٍ في البحْرِ أخْرَجَهَا ... غَوَّاصُهَا وَوَقَاهَا طِينَها الصَّدَفُ

وصباح ذلك اليوم يذكر الأعشى أن الشيبانيين صبَّحُوا الفرسَ بالنَّبْلِ[٤] ثم قامُوا إلى جُرْدٍ مُسَوَّمَةٍ تَعْلُكُ اللُّجمَ[٥] حيث أخَذَتْ تطحَنُ الفُرْسَ وكأنّها رَحَى تطحنهم بثفَالِهَا، ولجأ الفرسُ إلى رمي الشيبانيين بالنبال[٦] فمال عليهم هولاءِ بالسُّيُوفِ ، والرِّماح[٧] .

وكان من نتائج موقعة ذي قار كما نجدها في الشعرِ الجاهلي قتل الهَامَرْزِ يقول الأعشى[٨] :

قَتَلْنَا القَيْلَ هَامَرْزاً ... وَرَوَّينَا الكَثِيبَ دَمَا

فانهزم جيشه وقُتِل عددٌ كبيرٌ كما فَرَّ من قُدِّرَ له النجاة تاركين لبني شيبان دروعَهم وخوذاتهم[٩] ونساءهم حيث أجرى عليهنَّ السِّهامَ بنو شيبان وأُخِذْنَ سبايا كما يقول الأعشى[١٠] :

فَمَا بَرِحوا حَتَّى اُستُحِثَّتْ نِسَاؤُهُمْ ... وَأَجْرَوا عليهَا بالسِّهَامِ فَذَلَّتِ

---

(١) ديوان الأعشى ، ص٣٠١ ، ٣٠٣ .
(٢) الديوان ، ص٣١١ .
(٣) العِبَرُ : جمع عِبْرَة : وهي العَجب .
(٤) الديوان ، ص٣٠٣ .
(٥) ص٣٠١ .
(٦) ص٣١١ .
(٧) ص٣١١ .
(٨) ص ٣٠٣ .
(٩) ص٢٥٩ .
(١٠) ص ٢٦١ .

أمّا مغانمُ الشيبانيين من الفرس فكانت كثيرةً وهي من خير صناعات الفرس ، ومنها الذهب ، والفضة ، واللؤلؤ والياقوتُ والفُرُشُ ، والدِّيباج والألبسة الفارسية والعطور ووردت تلك المغانمُ في قولِ صفية بنت ثعلبة الشيبانية [١] :

سَاقَتْ فَوَارِسُ شَيْبَانٍ لِمعْشَرِهَا ... خَيْرَ الصَّنَائعِ فِيهَا طَفْرَةُ العَجَمِ [٢]

غَنْماً سبايا مِنَ الدِّيبَاجِ فُرْشُهُمُ ... والتُّسْتَرَى وأُقْنَانٍ مِنَ القَسَمِ [٣]

ثُمَّ النُّضارُ وَفِيهِ الدُّرُّ مُنْتَظِمٌ ... واللُّؤْلُؤُ العُجْمُ والمعْرُوفُ بالنُّظُمِ [٤]

وبعد انهزام الفرس حاول قيسُ بن مسعود أن يَسْعَى في الصُّلح بين بني شيبان وكسرى ، وكان رأى الشيبانيين استقرّ على رفض هذا الصلح الذي يسعى فيه أحد زعمائهم الذي كان في صفوف الفرس في موقعة ذي قار[٥] ولأن دماء أبنائهم لم تجفّ بَعْدُ ، يقول الأعشى مخاطباً قَيْساً [٦] :

أَقَيْسَ بن مَسْعُوْد بنِ قَيْسِ بنِ خَالِدٍ ... وأنْتَ امرؤٌ تَرْجُوْ شَبَابَكَ وَائِلُ

أَطَوْرَيْنِ في عَامٍ غَزَاةً وَرِحْلَةً ... ألا ليت قَيْساً غَرَّقَتْهُ القَوابِلُ [٧]

وَلَيْتَكَ حَالَ البحْرُ دُوْنَكَ كُلُّهُ ... وَكُنْتَ لقىً تجري عليهِ السَّوَائلُ

كأنّك لم تَشْهَدْ قَرَابِيْنَ جَمَّةً ... تعيثُ ضِبَاعٌ فيهُمُ وَعَواسِلُ [٨]

تَرَكْتَهُمُ صَرْعَى لدى كُلِّ مَنْهَلٍ ... وأقْبلت تَبْغي الصُّلْحَ أُمُّكَ هَابِلِ

---

(١) شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام ، ص١٢ .

(٢) الطَّفْرَة : أجود الصنائع .

(٣) التُّستَرى : نوع من الملابس نسبة إلى مدينة تستر . الأُقْنان : جمع قُنّ : وهو كم القميص . والقَسَم : جمع قِسْمَة : وهي ضرب من الثياب .

(٤) النُّضَار : الذهب والفضة والجوهر من التبر .

(٥) في شِعْر الأعشى أن قيسا حارب مع الفرس وكان من الهاربين . الديوان ، ص٢٦١ . وفي تاريخ الطبري ، ٢ : ٧-٢ - ٢١٢ . « أن كسرى عندما أرْسَلَ الجيوش لذي قار كتب إلى قيس أن يوافي إياساً وكان قيسٌ والياً على طَفّ سفوان » وجاء في الأغاني ، ٢٣ : ٢٢١ « أنه لم يشارك في معركة ذي قار لأنّه كان في سجن كسرى » وذكر ابن عبد ربه في العقد الفريد ، ٦ : ١٠١ « أن كسرى حَبَسَه بسبب انسلاله إلى قومه في ذي قار فحبسه فمات في سجنه » .

(٦) الديوان ، ص١٨٣ .

(٧) القوابل : جمع قابل وهي : المرأة التي تتلقى المولود عند الولادة .

(٨) العواسل : جمع عاسل وهو الذئب .

٧
الصِّنَاعَاتُ الفارسيَّةُ في الشعرِ الجاهلي

١. الأسلحة

تُعَدُّ الأسلحة إحدى الصناعات الفارسية التي وَرَدَتْ في الشعر الجاهلي ، وفي معلقةِ الحارث بن حِلِّزة يفخر بقبيلته بكر التي انتصرتْ على كِنْدَةِ على الرغم من استخدام كِنْدة السلاح الفارسي يقول الحارث بن حِلِّزة [١] :

ثُمَّ حُجْرَاً أعْني ابنَ أُمِّ قَطـام ... ولَهُ فَارِسِيَّةٌ خَـضْرَاء[٢]

أَسَدٌ فـي اللِّقَاءِ وَرْدٌ هَمُوسٌ ... وَرَبِيعٌ إنْ شَنَّعَـتْ غَبْرَاء[٣]

فجيش حُجر كان يستخدم السِّلاح الفارسي ، ولكننا لم نتبين أنواع هذه الأسلحةِ الفارسيةِ ، وما يهمنا هو أن ثمة سلاحاً فارسياً كانت تعتمده كِنْدَة في حروبها ، ومن الأسلحة الفارسية التي ذُكِرَ اسمها في الشعر الجاهلي الدُّرُوْعُ التي يدَّرِعُ بها المحاربون وهي مصنوعة من الحديد يقول العبَّاس بن مِرْدَاس السُّلمي [٤] :

وَلَوْ مَاتَ مِنْهُمْ مَنْ جَرَحْنَا لأَصْبَحَتْ ... ضِبَاعُ بِأَكْنَافِ الأَرَاكِ عَرَائِسا[٥]

ولكنَّهُمْ في الفَارِسِيِّ فَلا يُرَى ... مِنَ القَوْمِ إلاَّ في المُضَاعَفِ لابِسا

فهيَ دُرُوْعٌ مُحْكَمَةُ الصُّنْعِ تقي لابسها ضَرَبَات السيوف ، ولهذا كانت هذه الدروعُ سبباً في حماية لابسيها من الهزيمة وفي هذه الدروع يقول عمرو بن امرىء القيس [٦] :

وَاللهِ لا تَزْدَهِي كَتِيبَتُنَا ... أُسْدُ عَرِينٍ مَقِيلُهَا الغُرُف[٧]

إذَا مشينَا في الفَارِسِيِّ كما ... تمشي جِمالٌ مُصَاعِبٌ قُطُف[٨]

نَمشِي إلى المَوْتِ مِنْ حَفَائِظِنَا ... مَشْياً ذَرِيعاً وَحُكْمُنَا نَصَف[٩]

فقبيلة الشاعر حينما تدَّرِعُ بالدروع الفارسيةِ تُصبح أكثر زهواً وكِبْراً من الأسد ، وأكثر قوةً وشدةً من

---

(١) الديوان ، ص١٦ .

(٢) يشير الشاعر إلى غزو حجر آكل المرار بجموع كندة امرىء القيس أبي المنذر بن ماء السماء وكانت بكر قبيلة الشاعر مع امرىء القيس .

(٣) الهَمُوسُ : الخفي الوَطْء . وقوله : وربيع ، تقديره : ذو ربيع ، والرَّبيع : الخصب .

(٤) الديوان ، ص٧١ .

(٥) الأَكْنَاف : جمع كَنَفٍ وهو : الجانب . الأراك : جمع أَرَاكة وهي : الشجرة .

(٦) جمهرة أشعار العرب ، ص٥٣٢ .

(٧) الغُرُف : جَمْعُ غريف ، وهو الشَّجرُ الملتفُّ .

(٨) المُصاعَبُ : جمع مُصْعَبٍ : وهو الفحل من الإبل . والقُطُفُ : جمع قَطُوف وناقة قَطُوف : بطيئة المشي .

(٩) الحفائظ : جمع حفيظة وهي الحمية والأنفة . والذَّرِيعُ : السَّريع . والنَّصَفُ : العدل .

فحول الإبل ، ولذلك فهي تندفعُ اندفاعاً نحوَ الموتِ ، فالدروعُ تضفي عليهم الزهوَ والخيلاء لأنها محكمة شديدةٌ ولهذا فهم يقبلون على الحرب لا يخشون ضربات السيوفِ ، وطعنات الرماح لأنها تقيهم كلَّ ذلك .

ويبدو أنّ هذه الدروعَ غالية الثمن لا يحصل عليها إلاّ الموسرون من الأقوام يقول دُرَيْدُ بنُ الصِّمَّة يحذرُ قومه من الأعداء الذين يلبسون الدروع المحكمة :

عَلانِيَةً ظُنُّوا بِأَلْفَيْ مُدَجَّجٍ سَرَاتُهُمُ في الفَارِسِيِّ المُسَرَّدِ [١]

فهي دروع يلبسها سَراةُ القومِ ، لأنها محكمة غالية الثمن ، وَمَرَّ بنا أنَّ الفرس أقبلوا إلى ذي قار وعليهم الدروعُ البيضاء الخفيفة المحكمة الصُّنع كما يصفها الأعشى [٢] . ومن الدروع الفارسية الدروع القُرْدُمَانِيَّة [٣] يقول لبيد في وَصْفِها [٤] :

فَخْمَةٌ ذَفْرَاءَ تُرْتِي بِالعُرَى قُرْدُمَانِيّاً وَتَرْكاً كالبَصَلْ [٥]

أَحْكَمَ الجِنْثِيُّ مِنْ عَوْرَاتِهَا كُلُّ حِرْبَاءٍ إذا أُكْرِهَ صَلْ [٦]

فهي دروع فخمةٌ محكمة إحكاماً شديداً ، ليس بها ما يشينها ، ذات لون أبيض وهو لون الدروع الفارسية ، ومن الأسلحة الفارسية القِسِيُّ ، فقدِ استخدمها الفرس في حربهم مع الأحباش في اليمن حينما خرجوا مع سيف بن ذي يزن يقول أمية بن أبي الصلت في وصف ذلك الجيش الفارسي [٧]

يرمونَ عنْ شُدُفٍ كأنّها غُبُطٌ بزَمْخَرٍ يُعْجِلُ المرميَّ إعْجَالا [٨]

فالشُّدُفُ في اللغة هي : القِسيُّ الفارسية ، ويشبهها الشاعر بالغُبُطِ في صلابتها . ويُلحظُ أنّه ليس ثمةَ ذكر في الشعر الجاهلي للسيوف أو الرماح الفارسية وهي أكثرُ الأسلحةِ استخداماً في ذلك العصر ، ولعلَّ ذلك يعود إلى شهرة السيوف والرماح اليمانية والهندية التي أكثر الشعراء من ذكرها ووصفها في الشعر الجاهلي .

---

(١) جمهرة أشعار العرب ، ص٤٦٧ . والمسرَّدُ : المحكم النَّسج .

(٢) انظر : ديوانه ، ص٢٥٩ ، ٣٠١ .

(٣) ذكر الجواليقي في المعرب ، ص٢٥٢ ، أن القُرْدُمانية : سلاح كانت الأكاسرة تتخذه وتدّخِرُهُ في خزائنها يُسمونه كَرْوُمانَدْ ، وفي بيت لبيد تدل على الدروع خاصة .

(٤) الديوان ، ص١٩٢ .

(٥) الذَّفر : رائحة كريهة . وفخمةٌ ذفراء : أي لتغير رائحتها من الحديد . تُرْتِي : تُشَدُّ من الفعل رَتَو . العُرى : جمع عُرْوَة وهي : المقبض . والتَّرك : جمع تَرْكة : وهي الحديدة البيضاء . شبّه الشاعر الدرع القُرْدُمَانية بالبصل البرّي في استدارتها وبياضها .

(٦) الجِنْثِيُّ : بكسر الجيم وضمها : الزَّرَّادُ . والعوْرات : جمع عورة : وهي الفتق . الحِرْبَاءُ : رأس المسمار في حلقة الدرع إذا أُكرِهَ ليدخل سَمِعتَ له صَلِيلاً .

(٧) الديوان ، ص٤٥٩ .

(٨) الشُّدُف : جمع شَدْفَاء : وهي القوس الفارسية . والغُبُطُ : جمع غبيط وهو الرحل . والزَّمْخَرُ : السَّهم .

٢. الألبسة

من الألبسة الفارسية الثياب النسائية يقول أبو دُؤاد الإيادي [١] :

لَمِنَ الظُّعْنُ بالضُّحَى وارِداتٌ ... جَدْوَلَ المـــاءِ ثُمَّ رُحْنَ عَشِيَّهْ

مُظْهِراتٍ رَقْمَا تَهَالُ له العَيْـ ... ـــنُ وَعَقْلاً وَعَقْمَةً فَارسِيَّهْ [٢]

فَهذهِ الثياب ذات لون أحمرَ كما يقول علقمة بن عَبَدة [٣] :

عَقْلاً وَرَقْماً تظلُّ الطَّيْرُ تَخْطَفُهُ ... كـأنَّهُ مِنْ دَمِ الأَجْوافِ مَدْمُوْمُ

وهيَ ثياب تتخذها النِّساء زينة لتضفي عليهن جمالاً حسناً ومنظراً ساحراً تهال لجماله العيون كما وصفها أبو دُؤاد الإيادي . ومن الثياب الفارسية الدِّيبَاجُ والتُستَرى والقمصان وهي من خير الصنائع الفارسية تقول صَفِيَّةُ بنتُ ثعلبة الشيبانية تذكر مغانم بني شيبان من الفرس في موقعةِ ذي قار [٤] :

سَاقَتْ فَوَارِسُ شَيْبَانٍ لِمَعْشَرِهـا ... خَيْرَ الصَّنائعِ فِيْهَا طَفْرَةُ العَجَمِ

غُنْماً سَبَايَا مِنَ الدِّيْبَاجِ فُرْشُهُمُ ... والتُّسْتُرَى وَ أَقْبَانٍ مِنَ القَسَمِ [٥]

وفي موقعةِ ذي قار كان الجيش الفارسي يلبسُ الثياب البيضاء [٦] ويظهر من هذا الشعر أنّ الألبسة الفارسية جميلة الشكل رائعة المنظر تستهوي النساء اللواتي يبحثن عن الزَّهو والجمال ، وقبل ذلك فهي ثياب غالية الثمن لا يلبسها إلاّ النساءُ الموسراتُ .

٣. الحُليُّ

من الصَّنَاعَاتِ الفارسية الحُلي والقلائد يَقُولُ عمرو بنُ الإطنابة في وصف القيان [٧] :

عُلّلانِي وَعَلِّلا صَاحِبَيَّا ... واسقياني مِنَ المُروّقِ رِيَّا

إنَّ فِينَا القِيَانَ يَعْزِفْنَ بِالدُّ ... فِ لِفِتْيَانِنَا وَعَيْشَا رَضِيَّا

يتبارَيْنَ في النَّعيْمِ وَ يُصْبِيْنَ ... خِلاَلَ القُرُوْنِ مِسْكاً ذَكِيَّا

---

(١) ديوانه في : دراسات في الأدب العربي ، ص٣٤٨ .

(٢) الرَّقْم ، والعَقْلُ والعَقْمُ : ضروب من الثياب .

(٣) الديوان ، ص٦١ .

(٤) شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام ،ص١٢ .

(٥) التُّستُرى : ضرب من الملابس ينسبُ إلى مدينة تُستُر : وأقْبان : جمع قُبٌّ وهو كُمُّ القميص . والقسم : جمع قِسمة . وهي ضرب من الثياب .

(٦) انظر : ديوان الأعشى ، ص٣٠٣ .

(٧) الأغاني ، ١١ : ١١٥ .

إنّما هَمُّهُنَّ أنْ يتحلّينَ سُـــمُوْطاً وَ سُنْبُلاً فَارِسِيًّا [١]

مِنْ سُمُوِّ المُرْجَانِ فُصِّلَ بالشَّذْ رِ فأحْـــسِنْ بحِلْيِهِنَّ حليًّا

فقيان ابن الإطنابة يتحلين قلائد وَحليا صنعت في بلاد فارس ، وهي من أجود الحُلي صناعة لأنّها منظومة من قطع الذهب واللؤلؤ ، ويبدو أنّ بلاد فارس كانت مشهورةً بهذا الضرب من الصناعة فثمة أسماء للحُليّ بالأسماء الفارسية ومنها الزَّبَرْجد [٢] ، واليارْقِين [٣] والياقوت [٤] ، وتذكر صفية نوعاً من اللؤلؤ ينسب إلى الفرس وفي ذلك تقول [٥] :

ثُمَّ النُّضَارُ وَفِيهِ الـــــدُّرُّ مُنْتَظِمٌ واللُّؤْلُؤُ العُجْمُ والمعْرُوفُ بالنِّظَمِ [٦]

ولعل السبب في جودة صناعة الحلي الفارسية اهتمام الفرس بالبذخ والزِّينةِ فهم يبذلون الأموال ليحصلوا على أجود الدُّرِّ والحُلي ؛ يشبِّهُ المُخبِّلُ السَّعْدِيُّ وجه حبيبته بدُرَّةٍ يستضيء بها الفرس في محراب عَزيزها فيقول [٧] :

وَتُرِيْكَ وَجْهًا كالصَّحِيْفةِ لا ظَمْآنُ مُختلـــــجٌ وَ لا جَهِمُ

كَعَقِيْلةِ الدُّرِّ اسْتَضَاءَ بِها مِحْراب عَرْش عزيزها العُجْمُ [٨]

أغْلى بها ثمنًا وَجَاء بها شَخْتُ العِظَـــامِ كأنَّهُ سَهَمُ [٩]

بِلَـــبَانِهِ زَيْتٌ، وأخْرَجَـــهَا مِنْ ذِيْ غوَارِبَ وَسْطَهُ اللُّخَمُ [١٠]

فهيَ دُرَّةٌ ثمينةٌ شرَاها الغوّاصُ العزيزَ الفارسيُّ بثمنٍ غالٍ ، لأنّه جهد في العثور عليها ، فجاء بها مَن بين أخطار البحر كأنه السهمُ النافذُ ، وقد دَهَنَ جِسْمَهُ بالزَّيْتِ ليقيَه ملوحة البحر . ولهذا استحقتِ تلك الدرة أن تُشرى بثمن غالٍ ، ويحدثنا أرنست بابلون عن اهتمام الفُرس القدماءِ بالزينة والحلي فيقول : « إننا نجدُ عند الفرس كل ما ولد عند الكلدانيين من حُبٍ للبذخ في الفُرُشِ والتطريز ، بيد أنّ الفرس لم يكونوا عبيداً مُقلدين لقدِ استطاعوا ان يهبوا انتاجَهم الصّناعيَّ شكلاً مُبْتكراً » [١١] .

(١) السموط : جمع سِمْط وهو : قِلادة أطولُ منَ المِخنَقة : السُّنْبُل : نوع من الحُلي .

(٢) انظر مثلاً : ديوان الأعشى ، ص٩٥ .

(٣) ديوان الأعشى ، ص٣٩ ، ٤٥ .

(٤) ديوان الأعشى ، ص٩٥ .

(٥) شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام ، ص١٢ .

(٦) النُّضَار : الذهب .

(٧) المفضليات ، ص١١٥ .

(٨) عقيلةُ كل شيء : خيرُته .

(٩) شختُ العظام : دقيقها .

(١٠) الغوارب : جمع غَارِب وهو : أعلى الموج . واللُّخم : ضَرْبٌ من سمك البحرِ ويقالُ له القِرْش .

(١١) الآثار الشرقية ، ص١٤٠ .

٤. آلات الموسيقى

كان الفرسُ يهتمون بالغناء والموسيقى ، ويذكر الجاحظ « أنَّ الذي كان يقابل الطبقة الأولى من الأساورةِ وأبناءِ الملوكِ أهل الحذاقة بالموسيقيات والأغاني »[١] وَقَدْ مر بنا أنّ الحارث بن كَلَدَة الثَّقَفي تعلمَ الطبَّ والضرب على العودِ في بلاد فارس ومن الآلآت الموسيقية الفارسية ما ذكره الأعشى في وصف مجلس الشراب [٢] :

وَمُسْتَقُ سِيْنِيْنِ وَوَنٌّ وَبَرْبَطُ يُجَاوِبُهُ صَنْجٌ إذا مـــا تَرَنَّمَا [٣]

ويذكر آلآتٍ أخرى في قوله [٤] :

وَطَنَابِيرُ حِـــــسَانٌ صَوْتُهَا عِنْدَ صَنْجٍ كُلَّمَا حُسَّ أَرَنْ [٥]

وَإذا المُسْـــــــمِعُ أَفْنَى صَوْتَهُ عَزَفَ الصَنْجُ فَنَادَى صَوْتُ وَنْ [٦]

٥ . الخمر

وثمةَ ذِكرٌ للْخَمْرِ الفارسيَّةِ المصنوعةِ في بِلادِ فارس ومن ذلك قول مالك بن حَرِيْم [٧] :

كأنّ جَنَى الكافُوْرِ والمسْكِ خَالِصًا وَبَرْدَ النَّدَى والأُقحُوَانَ المُنَزَّعَا

وَقَلْتًا قَرَتْ فِيْهِ السَّحَابَةُ ماءَها بأنْيَابِهَا والفارِسيَّ المُشَعْشَعَا [٨]

ولجوْدَة الخمرِ الفارسية فإن الأعْشَى يُثني عليها لأنّها تجعَلُ الشيْخَ الكبيرَ يتمايلُ طَرَباً إذا ما ذاقَهَا :

وَطِلاءِ خـــــــــسْرُوانيٍّ إذا ذَاقَهُ الشَّيْخُ تَغَنَّـــــى وارْجَحَنْ [٩]

ويُشبِّهُ تميمُ بن مقبل رُضَابَ كُبَيْشَةَ معشوقتهِ بِقَرِيْحِ السَّحابةِ حينما يُمْزَجُ بسُلافةِ الخمر المعتقة بقُرى فارس [١٠] :

---

(١) التاج في أخلاق الملوك ، ص٢٥ .

(٢) الديوان ، ص٣٥٣ .

(٣) مُسْتَق سِيْنِيْن : آلة يُضْرَب عليها . والوَنُّ : آلة طرب وترية . والبَرْبَط : المِزْهر . والصَّنْجُ : دوائر من النحاس تُثَبَّتُ في أطْرَاف الأصابع .

(٤) الديوان ، ص٣٥٩ .

(٥) الطَّنابِيْرُ : جمع طُنْبُوْر : وهو آلة من آلآت الطرب ذات عنق طويل وستة أوتار من نحاس .

(٦) الوَنُّ : من آلآت الطرب .

(٧) الأصمعيات ، ص٦٣ .

(٨) القَلْتُ : النُّقْرَةُ في الجبل تُمْسِكُ الماء . قَرَتْ : جمعت . والمشَعْشَعُ : الممزوجُ بالماء .

(٩) الديوان ، ص٣٥٩ ، خُسْرُوانيّ : نسبة إلى خسروشاه وهي مدينة فارسية . وارْجَحَنْ : مال واهتز .

(١٠) الديوان ، ص٢٦١ .

وكأنّها اغتبقتْ قريحَ سَحابَةٍ بعَرَىً تُصَفّقُهُ الرّياحُ زُلالِ [١]

قُطِبَتْ بأصفَرَ مِنْ كوافِرِ فارِسٍ سَقَطتْ سُلافَتُهُ مِنَ الجِرّيالِ [٢]

ويصف الأعشى الخمّار الفارسي الذي يصنعها ، فهو يتعهدها بالرعاية والمراقبة وحينما تُصَبُّ من الإناء يباركها ويزمزم عليها وفي ذلك يقول [٣] :

لهـــا حَارِسٌ ما يَبرَحُ الدَّهْرَ بيتَهَا إذا ذُبِحَتْ صَلّى عليها وَزَمْزَمَا [٤]

٦. الصحائف

كانتِ الصحائفُ الفارسيّةُ معروفةً في بلاد العرب ، بَيْدَ أنَّ أكثَرَ العرب لم يكونوا يستطيعون قراءةَ ما فيها من كتابةٍ ولهذا فإن بعض الشعراء وجدوا في هذه الصحائف وما فيها من كتابة صورةً تُشَبّهُ بها الأطلالُ الدّارسةُ وفي ذلك يقول عنترة [٥] :

ألا يـــــا دار عَبْلَةَ بالطُّوِيِّ كَرَجْعِ الوَشْمِ في رُسُغِ الهَدِيِّ [٦]

كوَحْيِ صَحَائفٍ مِنْ عَهْدِ كِسْرَى فأهْدَاهَا لأعْجَمَ طِمْطِمِيِّ [٧]

وإلى جانب ذلك فإن الصحائف الفارسية يذكرها بعض الشعراء بأسمائها الفارسية وهي المهَارِقُ ومن ذلك قول الحارث بن حِلّزة [٨] :

لِمَنَ الدِّيارَ عفَوْنَ بالحُبْـــــــسِ آيَاتُهَا كمَـــــــهَارِقِ الفُرْسِ [٩]

وكقول البَعِيثِ بنِ حُرَيثٍ الحَنَفي [١٠] :

---

(١) الاغْتِبَاقُ : شُرْبُ العشيِّ . والقَرِيحُ : الصافي . والعَرَى : المكان العاري البارد . تصفّقُهُ : تختلف عليه وتضربه . والزُّلالُ : الماء العذب .

(٢) قَطِبَ الشَّرابَ يَقْطَبُه قَطْبًا وقُطُوبًا : مَزَجَهُ . والأصفر : الخمر . والكوافِرُ : جمع كافر وهو القرية . والجِرِّيالُ : الخمرُ الشديدةُ الحُمْرَة ، وهي: دون السُّلاف في الجَوْدة .

(٣) الديوان ، ص٢٩٣ .

(٤) ذُبِحَت الخمرُ : ثُقِبَ إناؤها فسالتْ منه كما يسيل دم الذّبيح . والزَّمْزَمَةُ : تراطن الفرس وهم صموتٌ لا يستعملونَ لساناً ولا شفة ، وهو صوت يديرونه في خياشيمهم فيفهم بعضهم عن بعض .

(٥)الديوان ، ص٢٦٨ .

(٦) الهديُّ : المرأة التي تُهدى لزوجها .

(٧) الاعجمُ الطِّمْطِمِيُّ : هو الذي لا يكاد يُفصحُ .

(٨) الديوان ، ص١٨ .

(٩) الحُبْس : موضع . والمهارق : جمع مُهْرَق : وهو الصحيفة .

(١٠) معجم البلدان ، ٣ : ٩٠ .

لِمَنْ طَلَلٌ بِروْضَاتِ السُّخَـــــالِ تَأَبَّدَ كالمهـــــــارِيْقِ البَوَالي [1]

ونخلص إلى أنّ الصناعات الفارسيّةَ كانت تمتاز بالجودة الفائقةِ ولهذا فهي غاليةُ الثمن ، ونظراً لجودتها ولافتقار بلاد العرب إلى مثل هذه الصناعات فإن الشعراء الجاهليين يُسمُّونَها بأسمائها الفارسية ، ويثنون عليها ويفخرون بالحصول عليها ، ولا شكَّ أنّ ما ذُكِرَ في الشعر الجاهلي من صناعاتٍ فارسية قليلٌ مقارنةً مع المنتوجات الفارسية المختلفة حينذاك .

(١) رَوْضات السُّخال : موضع بنواحي اليمامة .

الفصل الثالث

الرومُ والنبط في الشعر الجاهلي

أولاً : الروم في الشعر الجاهلي

١

عوامل الاتصال بين العرب والروم

لم تَكُنِ العربُ أمّةً منعزلةً عن العالم المتمدن في العصر الجاهليّ ، فكان لها اتصالٌ مع الأقوام المحيطة بها، ومن هذه الأقوام الرُّومُ الذين شاعتْ في بلادهم ضروبٌ من الثقافةِ اليونانيةِ والثقافةِ الرومانيةِ ، وكان لطبيعةِ الموقع الجغرفي أثرٌ في زيادة أسباب الاتصال بين العرب والروم ؛ فقد « أقام العربُ في لُبْنَان وفي سورية قبل الميلاد بِزَمن طويلٍ ، واشتغل قسمٌ منهم بالزراعة وتحوّلوا إلى مُزارعين مستوطنين وتولى حمايةَ الطُرقِ وحراسةِ القوافِل التي تجتاح طريق الشّام – تدمر – العراق » [١]

ولأهميةِ بلادِ العربِ وموقعها الاستراتيجي بعثَ الرُّومُ الحملاتِ العسكرية قبل الميلادِ ومن تلك الحملات حملة بقيادة (يُو ليُوس قيصر) للاستيلاء على جزيرةِ العرب ، وضمان مَصَالح رومة ، وجعل البحر الأحمر بَحْراً رومياً سنة (٣١ ق . م) ولكنّهُم أخفقوا في هذا المشروع [٢] « وفي سنة (٢٠١ م) أرْسل القيصر (سبتيموس سفيرومن) حملة عسكرية توغلت في العربية السعيدة غير أن المؤرخين لم يذكروا كيف انتهت هذهِ الحملة » [٣] .

وحينما غزا سَابور ذو الأكتاف الملك الفارسيُّ بلادَ العربِ انضمت القبائلُ العربيةُ إلى الروم، وقدموا إلى القيصر (يوليانوس) تاجاً من الذّهب ليعبروا عن خضوعهم له ، ولقبوه بلقب (ملك كلّ العرب) فقبل منهم التاج واللقب واجتمع في عسكر (يوليانوس) من العرب مائة وسبعون ألف مقاتل فوجهَهُم مع رجلٍ من بطارقة الروم نَحو فارس ، إلا أنّ (يوليانوس) لم يُقدّم لهم معوناتِ الذهب ، فاستاءَ الرُّؤساء من ذلك ، وانحاز قسمٌ منهم إلى الفرس ، واخذوا يتحرشون بعسكر الروم وألحقوا بهِ خسائر في الأرواح وباعوا من وقع في أيدهم أسيراً من الروم في أسْواقِ النّخَاسَةِ [٤] .

وكانت ثمة دويلات عربية أقيمت في بلاد الشام والجزيرة تتبعُ الدولة الرومانية ويرى الدكتور إحسان عباس أن السياسة الرومانية اتجاه هذه الدويلات مَرّتْ بثلاث مَرَاحِل متفاوتة وهي :

---

(١) المُفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ٤ : ٣٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص٤٣ .

(٣) المصدر نفسه ، ص٦٦ .

(٤) انظر : تاريخ الطبري ، ٢ : ٥٨

١ - مَرحَلة الفتح الروماني : وكانت سياسة الروم تقومُ على عدم إزالة الأسر الحاكمة بل الإبقاء عليها، مع وضع ما يكفل ضعفها في المستقبل وبسبب وجود كتائب رومانية في المنطقة لم يكنْ للرومان سياسةٌ حُدُودية متميزة في هذه الفترة بل كانَ جُلُّ اعتمادهم على الكتائب الرومانية ، وعلى قيام دولٍ حليفة كالأنباط أوّلاً وتدمر ثانياً ، حَاجِزاً يُنظِّمُ دخول البدو إلى المناطق الزراعية أويصدُ عدوانهم عنها .

٢ - فترةُ الضَّمِّ : وتبدو باستيلاءِ الرومان على بترا سنة (١٠٦م) كما أنّ الرومان قضوا على دولة الرُّها وتدمر سنة (٢٧٤م) .

٣ - فترة التحالفات : فقد أصبحتْ تحالفُ القبائل والجمعات القبلية فمنذُ أواخر القرن الثالث حتى أوائل القرن السابع كان أهم أحلاف الرومان على التّوالي هم : تَنُوخ وسليح (الضجاعمة) وغَسّان [١].

ومرَّ معنا أنّ مملكة الحَضْر العربية كانت مرتبطة مع الرومان في أكثر عهودها، وحتى عام (٢٣٨م) كانت تنعم بعيش رغيد بارتباطها مع الرومان وكان ذلك سبباً دفع سابور الجنود ملك فارس لاحتلالها سنة (٢٤١م) [٢] .

وتعدُّ غسّان أقوى حَليفٍ للروم في العصر الجاهلي، فقد دَخَلتْ غسّان الدِّيار الشامية سنة (٤٩٠م) [٣] ونزلوا البلقاء وفيها الضجاعمة وغيرهمُ من العرب فَلمّا احتاجَ الروم الى نصرتهم استنصروهم وقربوهم فتنصروا بتوالي الأجيال وأصبَحَ لهم شأن في حروب الرُّوم والفرس[٤] ولا ريبَ أنّه كان لأمراءِ بني غسانَ منزلةٌ سامية في مراتب الدولة البيزنطية ، «ويذكرُ (بروكوبيوس) في تاريخهِ : أنّ الإمبراطور (يوستينياس) رَقّى الحارثَ بن جَبَلةَ إلى رتبةِ ملك ، وبسطَ سلطتَهُ فوق قبائل عربية متعددةٍ وأنّ غرضَه من ذلك أنْ يقيم خَصماً قوياً في وجهِ المنذرِ ملك عربِ الفرس »[٥]

وإلى جانب هذه العلاقات السياسية والعسكرية ، كان ثمةَ وسائل ، أخرى ساعدت في الاتصال بين الشعبين ، منها انتشار النصرانية ديانة الروم في بعض القبائل العربية كربيعة وغسانَ ، وإيادٍ ، وبكرٍ وتَغلِبَ والنَّمرِ ، وعبد القيس ، وطيءٍ وتنوخ ، وكلبٍ وكلٌ من سكن الحيرة من تميم ولخْم ، وبَعضِ قُضاعَة ، وبني عبدِ المُدَانِ [٦] الذين بنو كعبةً بنَجرَانَ وعظموهَا مُضاهةً للكعبةِ ، وسموها كعبةَ نجرانَ ، وكانَ فيها أساقفةٌ وكان لهُم علاقاتٌ مَعْ ملوكِ الروم بالقسطنطينية فكانوا يمدونهم بالأموال لتشييدِ البيَع ، وتعليم الصِّغار [٧] ،

---

(١) تاريخُ بلادِ الشّام من ما قبل الإسلام حتى بداية العصر الأموي ، ص٦٥ - ٧٠ .

(٢) انظر : الحَضْر مدينة الشّمس ، ص٣٤ .

(٣) تُولْدكَه ، أمُراء غسان ، ص٣ .

(٤) جرجي زيدان ، العرب قبل الإسلام ، ١ :١٨٨ .

(٥) أمراء غسان ، ص١١ . لكن تولدكه يذكر : أن الوثائق التي تمثلُ لغة الحكومة الرومانية الرسمية المستعملة حينذاك لم تكن تطلق على الحارث أو خلفائه سوى لقب بطريق أو رئيس قبيلة ؛ لأنّ لقب الملك كان خاصاً بالقيصر وحده (ص١١ ، ١٢).

(٦) جمهرة أنساب العرب ، ص٤٩١ .

(٧) شعراء النصرانية قبل الإسلام ، ص٨٠ .

ويذكر الأصفهاني أنّ «أميّة بن أبي الصلتِ كان يلج الكنائسَ ويحاورُ رهبانَها أثناءَ رحلاتهِ إلى الشام»[١] .

وكانت التجارة عاملاً ملحوظاً زاد من الارتباط بين العرب والروم فكان تجارُ قُريشٍ يختلفون إلى أرضِ الشام وأطرافِ الروم ، وذلك بَعْدَ أنْ أخَذَ لهم هشام بنُ عبدِ مناف العهود من ملوك الشّام[٢] «فكانت القوافلُ التي تذهبُ من بلادِ العربِ إلى الشام تنزل في أسواقٍ معينةٍ عينتْهَا لهم الحكومة الرُّومانيةُ لتحصّلَ منهم الضرائبَ المفروضة على الصّادرات ولتراقبَ الأجانبَ الذين يَقدُمُونَ بلادَهما ، وكانت هذهِ القوافلُ أوّل ما تنزل في البلاد الرومانيةِ تنزل في أيلةَ ومنها تذهب إلى غزّةَ ،و هناك تتصل بتُجّارِ البحر الأبيض ، ومن غزّةُ يذهبُ بعضُ التجار إلى بُصْرى»[٣] .أمّا بُصرى فلأهميتها الحربية والسياسية كان يقيمُ بها حاكم روماني[٤] .

ومن التجار القرشيين الذين اختلفوا بقوافلهم إلى الشام أبو سفيان بن حرب ، ويروي الأصفهاني[٥] حادثة خروج أبي سفيانَ في نفرٍ من قُريشٍ إلى الشام ، وكان وجهةُ متجَرِهم منه غزة فقدموهاحين ظَهَرَ هِرقْلُ على ماكانَ بأرضهِ من الفُرسِ فأخرجهم منها ، فاستقدم أبَا سفيانَ وسأله عن ظهور الرسول وصفاته والذين اتبعوه وكاد أنْ يُسلم . كما أن القرآن الكريم يصفُ اتصال العرب التجاري والاقتصادي بالروم في رحلتهم التي يقومون بها إلى الشام حيث الروم وذلك في قوله تعالى : « لإيلافِ قُرَيْشٍ إيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشّتاءِ والصّيْفِ »[٦] .

وإذا كان التجار العرب يختلفون بتجاراتهم إلى أرض الروم فإن الروم كانوا يحاولون تحقيق مصالحهم التجارية وذلك بالسيطرة على الحركة التجارية المارّة في بلاد العرب كما « أخذ الروم يحاولون عن طريق مصر تحويل الحركة التجارية في المحيط الهندي إلى مرفقها بمساعَدَة حلفائها الأحباش»[٧]، وبذلك كانوا ينافسون الفرس في السيطرة على مرافق الحركة التجارية في الجزيرة العربية والمحيط الهندي ، ويذكر أو لبرى .« أنّه كان في مكّة عملاء لبيزنطة ، ولكنهم كانوا تجّاراً وليسوا سياسيين »[٨] كما أنه كان بمكة بعضُ الروميّاتِ اللواتي أسلمْنَ بمجيء الدعوة الإسلامية مثل زُنَيْرَة الروميّةِ[٩] وأمّ أبي الروم[١٠] ابن عمير بن هشام ابن عبد مناف ، ويذكر أحد الباحثين «أنّ قُرَيشاً استفادت مِنْ بعض الأنظمة الاجتماعية التي وجدوا عليها

---

(١) الأغاني ، ٢ : ٨٥ .

(٢) ذيـل الأمالي ، ص٢٠٠ . نشوة الطرب ، ١ : ٣٢٨ .

(٣) فجر الإسلام ، ص١٥ .

(٤) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ٢ :٦٥٢ .

(٥) الأغاني ، ٦ : ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ .

(٦) سورة قريش ، آية : ١، ٢.

(٧) تاريخ الحضارات العام ، ٣: ١١١ .

(٨) Arabia Before muhammad , p 184

(٩) أسْدُ الغابة ، ٥: ١٦٢ .

(١٠) المصدر السابق ، ص ١٩٤ .

الرُّومُ أوْ فارس بل مايدرينا أنَّ دارَ النَّدوَةِ نَفَسها اقتباسٌ مُغَيِّر مُصَغَّرٌ عن مجامع الروم الدينية والمدنية »[1] ينضاف إلى هذا كلّه أنّ أخبارَ الروم وصراعهم السياسيَّ والعسكري مع أعدائهم الفرس كانت تهم العرب وتشغلهم كثيراً ، ويبين القرآن ذلك في سورة سميت بسورة الروم تبتديء بقوله تعالى :« آلم ، غُلبت الرُّومُ، في أدنَى الأرضِ وهُم مِن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغلبُون في بِضْعِ سِنِينَ للّهِ الأمرُ مِنْ قَبلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَومئِذٍ يفرَحُ المؤمِنُونَ ، بِنصرِ اللّهِ يَنصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ العزِيزُ الرَّحِيمُ »[2]

فقد انقسمت العرب إلى حزبين[3] حزب يناصرُ الفرسَ وهم المشركونَ وحزبٌ يشايعُ الرُّومَ وهم المؤمنون .

ونخلصُ إلى أن العلاقاتِ العربية الرومانية كانتْ قائمة ومستمرة قبلَ الإسلامِ ، تبعثها المصالحُ السياسيةُ والحربيةُ والتجاريةُ ، وليس بُد من الإشارةِ إلى أنّ تلك العلاقاتِ كانت قويةً دائمةً بين الروم والممالك العربية القائمة في بلاد الشّام والجزيرة الفراتية ، وأن وجود هذه الممالك العربية على أطرافِ الدولة الرومانية يحقق للروم مصالحهم السياسية ، كما أنهم كانوا يحاولون دائماً السيطرة على جَنوبِ شبه الجزيرة العربية لمنافسةِ الفرسِ في السيطرة على اليمنَ ولضربِ المصالح التجارية الفارسية في المحيط الهندي .

أمّا العلاقات بين عرب شبه الجزيرة العربية والروم فكانت أضعف من تلك العلاقات القائمة بين الممالك العربية والروم وذلك يعود إلى بُعدِهم عن عاصمة الدولة الرومانية ومركز حضارتهم ، ولكون الممالك العربية القائمة على أطراف الدولة الرومانية تشكلُ حاجزاً يحول في أكثر الأحيان بين عربِ شبه الجزيرة من ناحية وبين الروم من ناحية أخرى ، ينضاف الى هذين العاملين أن كثيراً مِنْ عرب شبه الجزيرة العربية كان لهم علاقات قوية مع الفرس أعداء الروم كما تبين ذلك من خلال دراسة الروابط التاريخية بين العرب والفرس في الفصل الثاني ، ولهذا فإن المشركين من العرب كانوا يفرحون لانتصار الفرس الأمّيينَ على الروم أهل الكتاب.

---

(١) أسواق العرب في الجاهلية والإسلام ، ص١٠٩ .

(٢) سورة الروم ، الآيات : ١، ٢، ٣، ٤، ٥.

(٣) انظر شرح الآيات في : جامع البيان في تفسير القرآن ، ٢١ :١٢.

٢

ملوك الروم في الشعر الجاهلي

أ. القياصرة

من الألقاب المشهورة لملوك الروم لقب القيصر فكان كل ملك يحمل هذا اللقب ، كما كان كل ملك من ملوك الفرس يحمل لقبَ كِسرَى ، ولقبُ قَيصَرَ في الشِّعر الجاهلي نادرُ الذكر ومن ذلك قولُ حاتم الطائيءُ يصف أحدَ البخلاءِ [١] :

إذَا فَاتَهُ مِنْ مَالِهِ رُبْعُ دَانِقٍ رَأيتَ عَلَيه وَجهَهُ يَتَمعَّرُ [٢]

دَقيقٌ إلى الشِّقِ اللَّطِيفِ كأنّما أقِيْدَ لهُ في ذَلِك الشِّقِ قيصَرُ

فالشاعريصوِّرُ شدةَ بخل هذا البخيل فهو حينما يبصرُ شيئاً يسيراً يقبل عليه فَرِحاً ليلتقطه وكأنّه من شدةِ فرحه يبصر قَيْصَرَ ملك الروم مكبّلاً قُدّامه ، وهذا يبين لنا أنّ قيصَر كانت له في ذاكرة الإنسان العربي مكانة سامية فيكفي أن يُبصر ويُرى فيبعثَ في نَفْسِ مُبصِرِهِ وناظِرِهِ الإجلال والإكبار له.

والقياصرة كالأكاسرة ، كان صِرَاعُهُم مع الموت صراعاً ينتهي بهزيمة الإنسان الملك والملك الإنسان:

فَمَنْ يأمَنِ الأيّامَ بَعْدَ ابنِ هُرمُزٍ نَزَلنَ بِهِ كمَا نَزَلنَ بَقيصَرَا [٣]

ويُصَوِّر الشعرُ الجاهلي امتداد نفوذ القياصرة وما يُجبَى إليهم من أموالٍ يفرضونها على الخاضعين لسلطانهم :

وكانَ مُلوكُ الرُّوم يُجبى إليهِمُ قَناطِيرُ مالٍ مِنْ خَرَاجٍ وَزَائِدِ [٤]

وتجدرُ الإشارة إلى أنّ هناك فَرقاً بينَ القيصر وَهِرقْل فقيصر كما ذكرتُ هو: لقب لكل ملك يحكمُ الروم أمّا هِرَقلُ أو هِرقْلُ فهما اسمان لملكين من ملوك الروم ، كان أحدهما قديماً وهو أوّلُ من ضرب الدنانير وأوّل من أحدث البَيْعَة ، ويبدو أنّه معاصر للملك اليمني القديم تُبّع وفيهما يقول لبيد [٥] :

غلَبَ الليالي خَلْفَ آلِ مُحَرِّقٍ وَكما فَعَلنَ بِتُبَّعٍ وَبِهِرْقَلِ

---

(١) الديوان ، ص٢٧٣.

(٢) الدَّانِقُ : ضرب من النقود يساوي سُدُسَ دِرْهَم .

(٣) ديوان امرئ القيس ، ص ٣٦٤ .

(٤) ديوان عديّ بن زيد العبادي ، ص ١٢٥ .

(٥) شرح الديوان ، ص ٢٧٥ .

أمّا الملك هِرقل الثاني فهو الذي ذكره الأعشى بقوله [١] :

وَهِرَقلاً يَومَ سآتيدِمى ... مِنْ بني بُرجَانَ في البأسِ رَجَجْ [٢]

وَرِثَ السُّوددَ عَنْ آبائهِ ... وَغَزَا فيهم غلاماً مَا نَكحْ

صَبَّحُوا فارِسَ في رأدِ الضُّحى ... بِطـــحُونٍ فَخـــمَةٍ ذاتِ صَبَحْ [٣]

ثُمَّ ما كاعوا ولكنْ قَدَّموا ... كبشَ غَارَاتٍ إذا لاقى نَطَحْ

فتفَانوا بِضِرابٍ صَائبٍ ... مَلأَ الأرضَ نجيعاً فَسَفَحْ

ب. بنو الأصفر

يتفق أكثر العلماء على أنّ بني الأصفر هم الروم ، واختلفوا في تعليل تسميتهم بهذا الاسم ، فقيل لأن أباهم كان أصفرَ اللون [٤] ، وقيل لأن لهُمْ أولاداً صُفراً فسموا بني الأصفر [٥] وقيل لأنهم أولاد الأصفر بن روم بن عيصو بن إسحاق بن إبراهيم فكان عيصو أصفرَ اللون [٦] ، ويرى صاحبُ معجم البلدان أنهم سُموا بني الأصفر لشقرتهم لأنّ الشقرة إذا أفرطت صارت صُفرة صافية [٧] ويذهب المسعودي إلى أنّ بني الأصفر هم الرومُ الآخرة [٨] وفي حديث ابن عباس: « اغزوا تغنموا بنات الأصفر » [٩] .

وإذا استثنينا حديث ابن عباس - الذي يمكن أن يدل على أنّ بناتِ الأصفرِ هُنّ بنات الجنس الرومي كما يمكنُ أن يوحي بالدلالة على بنات الطبقة العليا من المجتمع الرومي - فإن جلَّ الآراء تطلق اسم بني الأصفر على الروم جميعاً ، أمّا ما وصل إلينا من شعر جاهلي فإنّه يطلق اسم بني الأصفر على ملوك الروم ومن ذلك قول عدي بن زيد العبادي [١٠] :

وَبنـــو الأصـــفَرِ الملـــوكُ ملـــوكُ ... الرُّومِ لِمْ يَبْقَ فيهـــم مَذكـــــورُ

ومن ذلك قوله [١١]:

---

(١) الديوان ، ص٢٣٩ .

(٢) ساآتيدِمى : اسم جبل أو نهر. بنوبُرْجَان : جنس من الروم ، يشير الأعشى إلى استرجاع هرقل للشام من الفرس وكان قيصر قد غزا الفرس على غِرّة .

(٣) رأد الضحى : وقت ارتفاع الشمس في النهار .

(٤) تاج العروس ، صفر. أساس البلاغة ، صفر .

(٥) تاج العروس ، صفر .

(٦) معجم البلدان ، ٣: ٩٧ .

(٧) المصدر السابق ، ٣: ٩٨ .

(٨) مروج الذهب ، ١ : ٣٠٨ .

(٩) لسان العرب ، صفر .

(١٠) الديوان ، ص ٨٨.

(١١) الديوان ، ص ٦٥ .

وَبنو الأصفرِ الكِرَامُ مُلُوكُ الروم لم يَبقَ مِنْهُمُ مَذكور

فبنو الأصفر في هذين البيتين لقب لملوك الروم ، وهذا يجعل الباحث يذهب الى أنّ بني الأصفر لقب أطلق في ما وصل إلينا من شعر جاهلي على ملوك الروم، وعلى الزّعم من قلةِ الشواهد الشعرية إلا أنه لم نجد شعراً من العَصْرِ الجاهلي أطلق اسم بني الأصفَرِ على الروم جميعاً ، بيد أنّ لوناً آخر وُصِفَ به الروم في قول حاتم الطائي يصِفُ الرِّماحَ [1] :

مُثَقَّفـاتٍ سَلَبْنَ الرُّومَ زُرقَتَهـا والعُرْبَ سُمرَتَهَا والعَاشِقَ القَضَفَا [2]

فهذا اللون الأزرق لا يكون في الجسم وانما هو في العيون حيث يكون بياضُ العين أزرَقَ ، فزُرقة الرُّوم هي زُرقَةُ عيونهم .

ويتضح من قول ابن عباس : اغزوا تغنموا بنات الأصفر أن الروميات كنَّ ذوات جمال ونضارة ، ولكن الباحث في الشعر الجاهلي لا يعثرعلى صورة أو وصف للروميات خاصة في شعرِ الغَزِلينَ والشعراء الذين كانوا يغدون على بلاد الشام .

(١) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ١: ١٣ .

(٢) القَضَفُ ، النُّحافة وجمعه قُضفَان .

٣

مظاهر من الحضارة الرومية

١. الصناعات

من الصناعات الرومية التي وردتْ في الشعر الجاهلي صناعة التُّرَسة ، يقول تميم بن مُقْبِل في وصف فرسه [١] :

كأنَّ مَا بَيْنَ جَنبَيْهِ ومُنْقَبَةٍ ... مِنْ جَوزِهِ وَمَقطُ القُنبِ مَلطُومُ [٢]

بِتُرسِ أعْجَمَ لم تَنخَر مثَاقِبُهُ ... مِمَّا تَخَيَّرُ فـي آطـامِهَا الرُّومُ [٣]

فالشاعر يشبِّهُ اسفلَ بطنِ فَرَسِهِ بالتُّرس الرومي الذي اختارَه صانعه من التُّرسَةِ الرومية ، فهو ترس صُلبٌ متماسك مصنوع في بلاد الروم ، اختار الروميُّ مادته وجهد في تثقيفه وتجويده حتى أخرجه ترساً مُحكماً يغري العرب بابتياعه والثناء عليه وتشبيه بعض أجزاء الخيل به ، فذكرُ الشاعر للترس الرومي يدلُّ على معرفة العرب به .

ومِنَ الصناعات الرومية صناعة المبارِد التي يحتاجها الصُّناع لتجويد صناعاتهم المتسخدمةِ من الحديد وفي ذلك يقول تميمُ بن مقبل [٤] :

أ أعفُوكمَا يَعفو الكريمُ ، فَإنَّني ... أرَى الشَّغبَ فِيمَا بيْنَنَا مُتَمادِيَا

أم أغْمِض بَيْنَ الجلدِ واللَّحْمِ غَمْضَةً ... بِمبرَدِ رُومِيٍّ يقـــطُ النَّواصِيَا [٥]

فالشاعر يشبِّهُ لسانَه بالمِبْرَدِ الروميِّ في المضاء، ولا ندري إذا كان هذا المِبْرَدُ الروميُّ من الصناعات الرومية التي يصنعُها الروم في بلادهم ويستوردها العرب فيما يستوردون من منتوجات أجنبيةٍ أم أنّه من صناعاتِ بعض الروم المقيمين في شبه الجزيرة العربية ، ولكنها على أيّةِ حال تبقى صناعةً روميَّةً .

ومن الصناعات الرومّية كذلك صناعة الأقفال كما يقولُ الأعشى [٦]:

---

(١) الديوان ،ص ٢٧٦ ، ٢٧٧ .

(٢) المُنْقَبُ : الموضع الذي قُدام السُّرة من الفرس . وجَوزُه : وَسطُه . ومَقطُ القُنب : منقطع أسْفل البطن . والملطوم : الملصق .

(٣) تنخرُ مثاقبه : لم تَبْلَ ثقوبه . والآطام :جمع أُطُم :وهو الحصن المبني من الحجارة .

(٤) الديوان ، ص٤١١ .

(٥) أغمَضَ : أصَابَ . قَطُّ الشيء يقطُّه قَطّاً : قطعَه عَرْضاً.

(٦) الديوان ، ص ١١٧ .

وَكُنْتُ إذَا مَا القِرنُ دَامَ ظُلامتي غَلِقتُ فَلَمْ أُغفِر لَخصمِي فَيدرَبَا [١]

كَمَا التَمسَ الرُّومي مِنشَبَ قُفلِهِ إذا اجتَسَّهُ مِفتَاحُهُ أخطَأ الشُّبَا [٢]

فالشاعر يشبه نفسه حينما يُعتَدى عليه بالقُفل المغلق الذي يستعصي على صاحبه فلا يعرف كيف يفتحه ، ونتبين من هذا أن الرومَ كانوا يستعملون الأقفال ، وقبل هذا فهم يصنعونها ولم يؤثر عن العرب أنهم كانوا يصنعون الأقفال ويستخدمونها ، وأنْ يصنع الروم الأقفال ويستعملوها في ذلك العصر لهو دليل على ازدهار الحياة الاقتصادية والحضارية في بلادهم ، ولعل التطورالاقتصادي آنذاك أدى إلى نشوءِ المصارفِ النقدية التي تحتاج أبوابُها لمثل تلك الأقفال التي تحمي المصارف وما فيها من أموال وأوراق من أيدي العابثين والسارِقين ، ومما يتصل بهذه المصارف والصناعات الرومية ، العملة النقدية الرومانية وهي الدينار ، وكان العرب يعرفونه ولعلّهم كانوا يتعاملون به لعدم وجود عِملةٍ عربية يتعاملون بها فلم تظهر العملةُ العربية إلا في عهد عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي ، فكان إصلاحُ العملة من أهم الأعمال التي قامَ بها عبدُ الملكِ ، وهيَ تَدُلُّ على حسن سياسته إذ لم يكن في بلاد العربِ عِملةٌ مُقرَّرةٌ إلى ذلك الحين [٣] .

ويبدو أن العرب كانوا معجبين بالدِّينار الرومي يقولُ سُحَيْمُ عَبْدُ بني الحَسْحَاس [٤] :

أرَتْك غَدَاةَ البَيـــنِ كَفًّا وَمِعْصَمَا وَوَجْهًا كَدِينَارِ الهِرقلـــيِّ صَارِفَا

فوجه المحبوبةِ يشبُه الدينارَ الهِرقليَّ سلاسةً وإشراقاً وفي تخصيص الشاعر «الدينار الهرقلي » أي نسبة الدينار إلى هِرقَل أحد ملوك الروم يوحي بأن الروم كانوا ينقشون صُوَرَ ملوكهم على الدَّنانيرِ الرومية ، وفي ذلك مَظهَرٌ حضاريٌّ من مظاهر الحضارة الرومانية ، ويُشَبِّهُ النابغةُ الجعديُّ وجوة الندامى بالدنانير المجلوة في بلاد الروم نضارة وبهاءً فيقول في ذلك [٥] :

كُهُـــولٌ وَفِتيَانٌ كأنَّ وُجُوهَهُمْ دَنَانِيرُ مما شِيفَ في أرضِ قَيصَرَا [٦]

---

(١) غَلِقَ الرجل في حدْثه : إذا لازمه واشتدت به .

(٢) مِنشَب القفل : أسنَانُه . اجتَسَّهُ : أي جسَّه . والشُّبا : جمع شباة، وشباةُ كلِّ شيءٍ حدُّه.

(٣) صُبْحُ الأعشى ، ١: ٤٢٤ .

(٤) الأشباه والنظائر ، ٢ : ١٩ .

(٥) الأغاني ، ٥ : ٦ .

(٦) شاف الشيءَ : جلاه .

٢. فن العمارة

من المظاهرِ الحضاريّةِ للروم اشتهارهم بالعمارة والهندسة البنائية فيذكر أوليري «أنّ الحكومة الفارسية في عهد الملك هرمز الأوّل (٢٧٢ - ٢٧٣م) أخذت تُنشيء معسكرات اعتقال لأسرى الحربِ من الروم ، وذلك بَعْدَ أن اكتشف الفرسُ أنّ الرّومَ يتفوّقُونَ عَلَيْهِمْ في كثيرٍ من الفنون والصّنائع خاصة الهندسة والمعمارَ والطِّبَ ، وصدرتِ الأوامرُ لمحاولةِ اعتقال الأسرى من الرجال ممن يملكون مثل هذه المهارات »[١] فكان الروم أكثر تقدماً في الهندسة المعمارية من الفرس ، فالرومُ يمتازون بهذا الفن الحضاريّ ويتقنون صنعته فالذي بنى قصر الخَوَرنَق للمناذرةِ في الحيرة رجل من الروم يقال له : سِنِمّارُ [٢] ، ويقول عبد الله بن الـمُقَفَّع في وصف الروم : «إنّ لهم أبداناً وثيقة ، وهم اصحابُ بناءٍ وهَنْدَسَةٍ » [٣].

ويظهر أن العرب لم تستفد من المهَرَةِ الروم في إقامةِ العمران في بلادهم كما استفاد الفرس منهم، ويرجعُ ابن خلدون سبب ذلك إلى : «أنّ العربَ أعرَقُ في البدو ، وأبْعدُ عن العُمرَان الحضري وما يدعو إليهِ من الصنائع وغيرها »[٤] .

ويذكر ابنُ خلدون أن الأمويين استفادوا من الروم لبناء المساجد في بلاد الشّام وذلك لافتقارها إلى المهرة العرب « إن الصّنائع وكمالها إنّما هو بكمالِ الحضارةِ ، وكثرتها بكثرَة الطالب لها ، فلذلك عندما تكون الدولةُ بدويّةً في أوّل أمرِها تفتقرُ في أمرِ البناء إلى غير قطرها كما وَقَع للوليدِ بن عبد الملكِ حِيْنَ أجْمَعَ على بناء مسجدِ المدينةِ والقُدْسِ ومسجدهُ بالشّام فبعثَ إلى ملك الروم بالقسطنطينيةِ في الفَعلةِ المهَرَةِ في البناء فبعث إليه منهم مَنْ حَصّلَ له غرضَه من تلك المساجدِ» [٥]

وهذه الأراء التي تذهبُ إلى اشتهار الروم بالعِمارة وهندسة البناء تتفق مع الشعر الجاهلي الذي نجد فيه شواهد تؤكد أهتمامَ الروم بهذا الفن ، ومن ذلك قول طرفة بن العَبْدِ في تشبيه ناقته بقنطرة الرومي المكتملة [٦] :

كَقَنطرَةِ الرُّومِيِّ ، أقسَمَ رَبُّها ... لتُكتَنَفَنَّ حَتَّى تُشَادَ بِقَرمَدِ [٧]

---

(١) Arabia Before Muhammade p.157 ويذكر كري كريستينس آرثر :أن الفرس أفادوا من أسرى الروم في بناء السدّ المشهور بسد الإمبراطور . (إيران في عهد الساسانيين ، ص ١١٥) .

(٢) انظر : معجم البلدان ، ٢ : ٤٠١ . الحيوان ، ١: ٢٣ .

(٣) الإمتاع والمؤانسة ، ١ : ٧١ .

(٤) مقدمة ابن خلدون ، ص ٤٠٤ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٤٠٩ .

(٦) الديوان ، ص ١٨ .

(٧) القَنْطَرَةُ : ما ارتفعَ مِنَ البنيان . والقرْمدُ : كل ما طُلِيَ به وهي كلمة رومية معربة .

فهذا الماهر الرومي أخذَ على نفسه عَهداً لَيُحْكِمَنَّ قنطرته إحْكاماً قوياً ويخرجنّها إخراجاً حسناً ، فأسسَ البنيان ورفع سُمْكهُ وأحكم هندسته ، ولم يكتف الرومي بذلك بل أحاطه برعايته وأخذ يشيده بالشيد الفائق ، ويطليه بالطلاء الحسن الذي يسرُّ الناظرين ، وبهذا لايدعُ عيبا إلا أصلحه وأعَاد إحكامه ، فهو بَنَّاءٌ مخلص في عمله متفنن له كأحسن مايكون العملُ والاتقان ، ومن ذلك الشعر قول الأعشى يُشَبِّهُ ناقته بتلك القنطرة [1] :

مَرِحتْ حُرَّةٌ كقَنْطَرَةِ الرُّومِـ ـيِّ تَفْرِي الهَجيرَ بالإرقَال [2]

فهيَ ناقةٌ عظيمةٌ وقوية ، تقطع الأرض في وقت اشتداد الحرِّ ، فلا ترى فيها ضَعْفاً أو هُزالاً بل تراها زَعِلةً قوية وكانها بنيانٌ رفعه روميٌّ فأحكم بناءه ليكون بناءً متماسكاً قوياً ، أصلهُ ثابت في الأرض ، وشكلهُ يسرُّ الناظرين ، وثمة إشارة إلى القُصُورِ الرّومية وذلك في قول عَلقَمَةِ الفحْلِ يُشبِّهُ تلاقي الظليم والنعامة وما يدور بينهما مِنْ نَقنَقَةٍ بتراطن الروم في قُصُورِهم يقول عَلقَمَةُ [3]:

يُوحِي إلَيْهَا بأنقـاضٍ وَنَقنَقَةٍ كمَا تَراطَنَ في أفدَانِهَا الرُّوم [4]

ونتبينُ من هذا أن للروم قُصوراً وأنّهم يتراطنونَ فيها بأحاديثهم الرومية ، فالشاعر يعبر عن عدم فهمه لما يدور بين الظليم والنعامة من أصوات بتراطن الروم ، وأكبرُ الظن أن الشاعر حينما كان يفد على الغساسنة يختلفُ إلى بعض الروم ويدخل قصورهم ويسمعُ تراطنهم حينما يخلصون نجيًّا فلا يفهم من كلامهم شيئاً ، وإذا كان شاعر كبير مثل علقمة يختلفُ إلى بعض الروم فإنّه يختلف إلى أعيان القوم ، وإذا كان الأمر كذلك فإنّه يدخل قصوراً عظيمةً وغريبةً أيضا على واقعهِ الحياتيِّ في البادية حيث الخَيَمُ وبيوتُ الشّعرِ التي تخفق الأرواح فيها ، فكان للبيئة تأثيرٌ في انتشار فن العمارة ببلاد الروم حيث الاستقرارُ الدائمُ وازدهار الحياة الاقتصادية .

---

(١) الديوان ، ص٥ .

(٢) مَرِحَت : نشطتْ ، تَفْرِي : تقطعُ الأرضَ . الهجيرُ : شدةُ الحرِّ والإرقالُ : ضَربٌ مِنَ العدْوِ ، وأرْقلتِ الدابّةُ إرقَالاً : أسْرَعَتْ .

(٣) الديوان ، ص٦٤ .

(٤) الأنقاض والنَّقْنَقَةُ : أصوات الظلم . والتَّراطُنُ : الكلام بالأعْجمية . والأفدَان : جمع فَدَنٍ وهو : القصر .

٤

الروم في شعرِ امرئ القَيْسِ

يعد الشاعر امرؤ القيس بن حُجرٍ الكِندِي أحدَ الشعراء الذين عبثت بحياتهم وأشعارهم أراء الرُّواة والقصاص فهو شاعر اختلف حوله كثيراً ، فاختلف حول اسمه وكنيته كما اختُلِفَ حول نسبه وعددِ ولده وحياته المضطربة صغيراً وكبيراً [١] ويذهب الرواةُ إلى أبعد من ذلك فيزعمون أنّه وصل إلى بلاد الروم واختلف هناك إلى قيصر يستنصره على بني أسدبعد أنْ قتلوا والده الملك حُجرِ آكل المُرار، ولم يرحل امرؤ القيس إلى الروم إلا بعد أن يئس من نُصرةِ القبائل العربية التي تنقل بينها «فطلب من السَّموأل أن يكتبَ له إلى الحارثِ بن أبي شَمِر الغَسَّاني بالشَّام ليوصِلَه إلى قيصَر ، واستنجَدَ له رَجُلاً . واستودع عند السَّموأل زوجهُ والادرُعَ والمالَ فمضى حتى انتهى إلى قَيْصَر ، فقبله وأكرَمَه ، وكانتْ عنده منزلة له ، فاندسّ من بني أسد رجلٌ يقال له الطمّاحُ ، وكان امرؤ القيس قد قتل أخاً له فأتى بلادَ الرُّومِ وأقامَ مستخفيا، ثم إنّ قيصَر ضم إليهِ جيشاً كثيفاً ، وفيهم جماعة من أبناء الملوك فلما فَصَل ، قال لقيصرَ قومٌ من أصحابِه : إنّ العرب قَوْمٌ غدر ولا تأمن أنْ يظفَر بما يريدُ ثم يغزوك بمن بعثتَ معه ، وفي رواية أخرَى أن الطمّاحَ قال له : إن امرأ القيس غويٌّ عاهر ، وإنّه لمّا انصرف عنك بالجيش ذكر أنّه كان يراسل ابنتك ويواصلها ، وهو قائل في ذلك أشعاراً، يشهِّرها به في العرب فيفضحها ويفضحك ، فبعث إليه حينئذٍ بِحُلَّةٍ وشي مسمومة منسوجةٍ بالذَّهب وقال له: إني أرسلت إليك بحلتي التي كنت ألبسها تكرمة لك فإذا وصلت إليك فالبسها باليمن والبركة واكتب إليّ بخبرك ، فَلمّا وصلت إليهِ لبسها واشتد سرورُه فاحتضرَ في أنقرة ودفنَ بها » [٢] .

فهذه القصة مُختَلَقَةٌ يلفُّها الاضطراب وهي أقرب إلى الأسطورة منها إلى الحقيقة التاريخية ، ويرى بعض المحدثين أن سبب نسبة هذه الرحلة إلى امرئ القيس الكندي الشاعر يرجع إلى أنّ أخبارَ هذا الشاعر اختلطت في ذاكرة العرب بأخبار امرئ القيس اللخميّ ، «فقدْ ذكرت بعض المصادر اليونانية في صراحة اسمَ شَخصٍ يدعى امرأ القيس كان من العرب التابعين لملوك الفرس ، وقد جعل يغير على القبائل في شَمال الحجاز ويبسطُ سلطانه عليها وقد استطاع أن يستولي على جزيرة (بوتابه) جزيرة تِيرَان الحالية في مدخل خليج العقبة و يطردُ منها عمال المكوس من الروم وَعَادَ فرأى أنْ يصانعَ الرومَ مخافة غزوهم له فأرسَلَ إلى بيزنطة أسقف العرب فخضعوا لحكمهِ سنة (٤٧٣م) ليفاوض قيصرفي أن يُعيِّنَهُ حَاكماً على جنوبي الأردنّ وساحل خليج العقبة ، ويمنحه لقب فيلارك،ونجح الأسقف في سفارته ، ودعى القيصر امرأ القيس لزيارة عاصمته ،

(١) الأغاني ، ٩ : ٧٦ ، ٧٧ .

(٢) الأغاني ، ٩: ٩٦ ، ٩٧ . وانظر كذلك : ابن قتيبة ،الشعر والشعراء ، ص٥٤ . الكامل في التاريخ ، ١: ٢١٢ .

وبالغ في إكرامه ، وعادَ إلى بلاده »[١] فأمرؤ القيس هذا لم يذهب إلى القيصر طلبا لنصرته والأخذ بثأره وإنّما ذهب لقيصر ليصانعه ويأمَنَ بوائقه وذلك بعد أنْ بسط سلطانه على القبائل العربية في شمال الحجاز ، ولم يحدثنا الإخباريون والرواة أنّ الشاعر امرأ القيس بسط سلطانه على هذه القبائل .

ينضاف الى ذلك « أنّ المؤرّخين البيزنطيين لم يذكروا أيّ إشارةٍ إلى امرئ القيس بن حجر الكندي ، وزيارته لبيزنطة وطلبه النصرة منها »[٢] .

وإذا ما درسنا امرأ القيس دراسة داخلية فنظرنا في ما نسبه إليه الرواة والأخباريون من شعر ليثبتوا رحلته إلى الروم واختلافه إلى قيصر ، فإننا نرى شعرايكتنف أسلوبه الضعفُ والإسفافُ ، وتسهل معانيه حتى تصل إلى الاضطراب ومما يُنسَبُ إليه قوله في صاحبه عمرو بن قميئة[٣] الذي يُزْعَمُ أنّه رافقه إلى بلاد الروم[٤] :

بَكا صَاحِبي لَمّا رَأى الدَّربَ دُونَهُ ... وأيْقَنَ أنّا لا حِقَانِ بَقَيصَرَا

فَقُلْتُ لهُ لا تَبْكِ عَيْنُك إنّما ... نحاولُ مُلكاً أو نَموتَ فَنُعذَرَا

إننا حينما نقرأ شعر امرأ القيس لا نجد فيه إشارةً إلى صاحبهِ هذا الذي بكى حينما رأى أنّ بينه وبين قيصر أهوالاً ، فامرؤ القيس لم يذكر اسم صاحبه هذا ، وإذا أخذنا برواية الأصبهاني التي تنص على أنّ امرأ القيس في هذه الرحلة أخذ معه عمرو بنّ قميئة فإننا نتساءل عن مصلحة عمرو وقبيلته من هذه الرحلة واستنجاد امرئ القيس بالروم وهو الرجل الذي لفظته القبائل العربية ، وإذا كانت بكرٌ تنوي مساعدة امرئ القيس فلماذا لم تنصره وتمدّه بالرجال ، وإذا رحل عمرو حقاً مع امرئ القيس فإنّه لا بدّ من وقوع حروب بين أسد وبكر ، فلا التاريخ ولا الشعر يحدثانا عن شيء من تلك الخلافات والحروب ، وإذا رحل عمرو مع امرئ القيس حقاً فإنه لا بدّ من شعر من كلا الشاعرين الكبيرين يصفان فيه تلك الرحلة ولكننا لا نجد شيئاً من ذلك ، كما أنّ الشاعر المرقسي لم يصوّر لنا كيف مات عمرو وأين مات ، كما أننا لا نجد في شعره رثاء لهذا الشاعر البكري الضائع .

---

(١) المفصل ، ٣: ٣٧٢. وانظر كذلك : شوقي ضيف ، العصر الجاهلي ، ص٢٤١ ، ٢٤٢ . وقد اشتطّ الدكتور طه حسين حينما ذهب إلى أنّ حياة امرئ القيس ليست إلاّ لوناً من التمثيل لحياة عبد الرحمن بن الأشعث بن قيس الكندي استحدثه القصاص .(في الأدب الجاهلي ، ص ١٩٩) وانظر: نقض هذا الرأي في كتاب محمد الخضر حُسين ، نقض كتاب في الشعر الجاهلي، ص ٢٩٦ - ٣٠٢ .

(٢) شوقي ضيف العصر الجاهلي ، ص٢٤٢ .

(٣) يروي الأصفهاني في الأغاني ، ١٨ : ٨٠ ، ٨١: « أنّ امرأ القيس نزل ببكر بن وائل وضرب قبته ،وجلس إليه وجوهُ بكر فقال لهم : هل فيكم أحد يقول الشعر ؟ فقالوا : ما فينا شاعر إلا شيخ قدخلا من عُمرٍ وكِبَر ، قال : فاتوني به ، فأتوه بعمرو بن قميئة وهو شيخ فأنشده، وأعجب به ، فخرج به معه إلى قيصر ، و إيّاه عنى امرؤ القيس بهذا الشعر ، فمات معه في طريقه ، وسمته العرب عمراً الضائع لموته في غربته وفي غير أرَبٍ ، ولا مطلب » .

(٤) الأغاني ، ١٨ : ٨١ .

ومما ينسب لامرئ القيس أنه دخل مع قيصر الروم الحّمام فإذا قيصر أقْلفُ بين القلف فقال في ذلك [١]:

إنّي حَلفْتُ يَمينًا غَيرَ كاذِبةٍ أنّك أقلَفُ إلا مَا جَنَى القَمَرُ [٢]

كما يذكر بيتا آخرَ نجل هذا البحث أن نوردَهُ فيه ، وإننا نعجب كيف يستشهد صاحبا الشعر والشعراء ولسان العرب بهذا الشعر المبتذل دون تمحيص ، فكيف يعقل أن يُدْخِلَ قيصرُ الروم رجلاً معه إلى الحمام ، وإنّها لراوية ملفقةٌ من أساسها وإن هذا الشعر لمنتحل ، لعل الذي انتحله رجل من اللغويين أو القصاص ليأتي بشاهد لغوي لمعنى أقلف ليكون دليلاً على ما يزعمه العرب مِنْ أنّ الغلام إذا ولد في القمراء فسحت قُلفته فصار كالمختون، وإننا لنعجب كيف استطاع امرؤ القيس أن يصور القيصر في الحّمام ولم يصوِّرْهُ في القصر .

منحول هذا الشعر الذي يقول فيه [٣] :

بَانَ الملوكُ فأمْسى القَلبُ مُرْتَابَا من هؤلاء النَّاس عاشوا بَعْدُ أحْزَانا
ما ينكرُ النَّاسُ مِنّاحِيْنَ نملكهُمْ كانوا عبيداً وَكُنَّا نَحْنُ أرْبَابَا
نحنُ الملوكُ وأبناءُ الملوكِ لنا مُلكٌ بِهِ عاشَ هذا النَّاس أحقَابَا
إنّي سأملككم بالرُّوم إذْ كرِهَتْ غسَّانُ نَصْرِي وكان المُلكُ أسْبَابا
أو ترجعونَ كما كُنتُمْ لنا خَوَلاً حَتى تدينوا لَنَا طَوعَاً وأتعابا

فهذا شعر ركيك الأسلوب ضعيف المعنى كثرت فيه الألفاظ النابية مثل قوله (من هؤلاء النَّاس) وقوله (خَوَلاً) وأكبر الظنّ أن الذي صنع هذا الشعر أحدُ القصاص المتأخرين ، فهو شعر ضعيف بَيِّنُ الضعف ورَكيكٌ بيِّنُ الركالة ، منحولةٌ هذه الأبيات اليتيمه التي يذكر في أحدها أنّه تجاوزَ وصاحبُه حُمَاةَ وشَيْزَرَا [٤] وفي أحدها منادمته لقيصر [٥] ، كَما أنّ الأبيات القليلة التي يذكر فيها موته [٦] منحولة أيضاً لأننا لا نجد فيها ذكراً لسبب موته الذي زعمه الرواة والإخباريون.

والذي يدعو لنفي نسبة هذا الشعر لأمرئ القيس أننا نجد فيه ضعفاً وإسفافاً وألفاظاً سهلة لا يمكن أنْ تصدر عن شاعر مثل امرئ القيس اشتهر بالوصف الدقيق و إننا لا نجد في هذا الشعر شيئا عن قبيلة بكر التي بعثت شيخها عمراً معه ، بَلْه لانجد شيئاً عن هذا الشيخ الشاعر الذي غامر مع امرئ القيس فصحبه إلى

(١) ابن قتيبة ،الشعر والشعراء ، ص٥٤ . لسان العرب ،قلف .
(٢) رَجُلٌ أقلف : لم يُختَنْ .
(٣) الديوان ، ص ٢٧٩ .
(٤) الديوان ، ص ٧٠ .
(٥) الديوان ، ص ٢٥٢ .
(٦) انظر هذا الشعر في : الأغاني ، ٩ : ٩٧ .

القسطنطينية ، كما أننا لا نجد شيئاً عن الغساسنة الذين أوصلوه إلى القيصر ، فليس ثمة مَدْحٌ أو شكرٌ للملك الغساني الحارث بن أبي شمِر ولماذا لم يطلب النجدة من الغساسنة بدل أن يَقْدُمَ بجيش رومي لاناقة له ولاجمل في نصرة امرئ القيس، كما أن الشاعرين الظاعنين لم يحدثانا عن بلاد الشام والبلاد الرومية التي مَرّا بها ، كما أنّ امرأ القيس لم يصور لنا مظاهر الحضارة الرومانية ، فلم يصف قيصر وأعيان الروم وقصورهم وكنائسهم ، كما لم يصف جمال الروميات وهو الشاعر الغزِل الذي يسلك مسلك التصريح والإباحية في شعره فليس ثمة غزل أو شيء من الغزل في ابنة قيصر التي «نظرت إليه فعشقته وعشقها فكان يأتيها وتأتيه» [1] .

وخلاصة القول : إن ما نسب إلى امرئ القيس من شعر عن الروم – وهو شعر قليل – منحول لا يطمئن إليه عند الحديث عن الروم ، لأنّه لا يصوّر لنا شيئاً عن الروم وحضارتهم ، ولأنه لم يرحل إلى بلاد الروم ولم يختلفْ إلى القيصر فهي قصة مختلقة اختلاقاً لم يذكرها إلا عدد قليل من الرواة والمؤرخين ، ولا نجد لها ذكراً عند شعراء العصر الجاهلي والعصور اللاحقة القريبة العهد من امرئ القيس .

(١) الشعر والشعراء ، ص٥٤ . ابن القيم الجوزية أخبار النساء ، ص ٨٥ .

ثانياً : النبط في الشعر الجاهلي

١

نسب النبط

يعد النبط أحد الأقوام غير العربية فكانوا يقطنون شمال شرق الجزيرة العربية ، ويبدو أنْ صورة هؤلاء الأنباط غير جلية في التاريخ، فلا نجد في المصادر التاريخية حديثاً عن علاقاتهم مع العرب جيرانهم ولا نجد لهم دوراً في الأحداث التاريخية التي قامت بين جيرانهم العرب والفرس.

أما أصل هؤلاء النبط فاختلف فيه ، فيذهب المسعوديُّ إلى أنّ الانباط كلدانيون استقروا في سواد العراق [١] ، أمّا ابن خلدون فينسبُهم إلى أشوذ بن سام [٢] فهم بذلك إخوان الفرس ، ومن العلماء من نسبهم إلى إبراهيم عليه السلام جاء في حديث ابن عباس : نحن معاشر قريش من النبط من أهل كُوْثى رَبّى [٣]، قيـــل : إن إبراهيمَ الخليلَ ولد بها وكان النبط سُكّانها [٤] ، وفي حديث أيّوب بن القرّية [٥] :إنّ أهلَ عمان عَرَبٌ استنبطوا ، وأهل البحرين نبط استعربوا [٦] ، فهذه الأراء تتفق على أنّ الأنباط ليسوا عرباً وإن اختلفوا في نسبهم وأصلهم ، ويخلص أحدُ المؤرخين المحدثين إلى أنّ هؤلاء النبط « هم بقايا الشعوب القديمة خاصة النازلين في البطائح منهم ترسبات الأراميين في العراق والشام ، وذلك قبيل الإسلام ، وفي الإسلام كانوا يتكلمون بلهجات عربية ، ولكن برطانة أعجميّةوبلكنةِ غريبة ظاهرة »[٧] ، وثمة فرق بين هؤلاء القوم والأنباط الذين سكنوا بِترا « أمّا النبط الذين سكنوا البترا فهم عربٌ وإنْ عَدَّهُمْ علماءُ النسب والتاريخ واللغة والأخبار من غير العرب ، وأبعدوهم عن العرب والعربية ، فقد كانوا عرباً مثل عرب اليمن ، ومثل ثمود والصفويين واللّحيانيين ، ولهم لهجاتهم الخاصة ، وإن تأثروا بالإرمية وكتبوا بها ، فقد تكلّم اليهودُ بالإرمية ونسي كثير منهم العبرانية ، ولكنّ نسيان أولئك اليهود العبرانية لا يخرجهم مع ذلك عن العبرانيين»[٨] .

---

(١) مروج الذهب ، ١: ٢١٥ .

(٢) تاريخ ابن خلدون ، ٢ : ٣٠٩ .

(٣) كُوْثى رَبّى : موضع في أرض بابل .

(٤) لسان العرب ،نبط . تاج العروس . نبط . مُعجم البُلدان ، ٤ : ٤٨٧ .

(٥) هو أيوب بن زيد بن قيس بن زُرارة (ت ٨٥هـ) وهو أحد بلغاء الدهر ، خطيب يضرب به المثل ، كان أعرابياً أمياً قتله الحجاج .

(٦) لسان العرب ،نبط . تاج العروس ، نبط .

(٧) المفصل ، ٣: ١٣ ، ١٤ .

(٨) المصدر السابق ، ص ٣٣ .

٢

النبط زُرّاعاً

يظهر الشعرُ الجاهليُّ النَّبطَ قوماً يهتمون بالزراعة ويشغلون أنفسهم كثيراً بهذا الضرب من العملِ الذي تأباه العرب وتعدُّه مَثْلَبَةً ،فنجدُ الأعشى يصف اجتماع القوم حول الأسد في عرينه فيقول [١] :

كـأنَّ ثِيـــابَ القَوْمِ حَوْلَ عَرِينِهِ تبـابـينُ أنْبَاطٍ إلى جَنْبِ مُحْصَدِ [٢]

فالنبط يزرعون الأرض ، ويَوْمَ الحصاد يلبسون لباساً خفيفاً وقصيراً ، يساعدهم في الحصاد ، وهذا يبين لنا أنّهم يتقون بهذا اللباس شدة الحرّ أيّام الحصاد ، ويصوّر بِشْرُ ابن أبي خازِمٍ الأسدي الثيرانَ وسط الديار المقفرة وهي تحوم بزعماءِ فلاحيٍّ النبط وذلك في قَولهِ [٣] :

هل أنْتَ عَلى أطْلالِ مَيَّةَ رَابِعُ بحَوْضى تُسَائِلْ رَبْعَهَا وَتُطالِعُ

مَنازِلُ مِنْهَا أقْفَرَتْ بِتَبَالَةٍ ومِنْهَا بأعْلى ذيْ الأرَاكِ مَرَابِعُ [٤]

تَمشّى بِهَا الثِّيرَانُ تَرْدَى كأنَّهَا دَهَاقِينُ أنْبَاطٍ عليها الصَّوامعُ [٥]

فَهؤلاء الدَّهاقين يملكون الأراضي والزروع وفي مَوْسم الحصادِ وقطف الثمار يقومون بمراقبة العّمال ويشرفون على العمل دون أنْ يشاركوا فيه ، ويبدو أنّ زروعهم تدرُّ نتاجاً طيباً تُضْفِي على حياتهم النعيمَ وبحبوحة العيش ، فلذلك يخشون على أنفسهم من الشمس حينما يراقبون عُمّالهم فتراهم يضعون على رؤوسِهم الريش القشيب كي يقيهم لفْحَ الشمس .

ويبينُ لنا الشعر الجاهلي أنّ النبط كانوا يقطنون بين الكوفة وبابل أي أنهم يسكنون قرب نَهرِ الفرات ، فهم يستفيدن من هذا النهر في سقي مزارعهم يقول الأعشى [٦] :

فَتَـــرى النَّبِيـــطَ عَشِـــيَّةً رَاوي المـــزَارِعِ بالحـــوافِلِ [٧]

فهم استفادوا من نهر الفرات وأقاموا الروافدَ كي يخزنوا المياه ويروّوا مزارعهم بواسطة السواقي ، أمّا وقت الرّي فيتم مساءً .

---

(١) الديوان ١٩١ .

(٢) التبابين : جمع تبان وهو ضرب من اللباس القصير والخفيف .

(٣) الديوان ، ص ١١٣ .

(٤) تَبالةُ وذو الأراكِ : موضعان .

(٥) تَرْدى : تعدو . والدَّهاقينُ : جَمْعُ دِهقَان بضم الدال أوكسرها وهو : زعيم فلاحي النبط . و الصَّوامع : جمع أصْمَع وهو : الريش القشيب .

(٦) الديوان ، ص ٣٣٩ .

(٧) الحوافل : جمع حَوْفَل : وهو السَّيل الصّافي .

ويذكر الأعشى أنّ النّبطَ كانوايحفرون السّواقي في أرضٍ سَهلةٍ غيرَ وَعِرةٍ فقال يمدحُ النُّعمانَ بن المُنْذِرِ [١] :

وَمَا فَلَجٌ يَسْقِي جداول صَعْيَنَى ... لَهُ شَرَعٌ سَهْلٌ عَلى كُلِّ مَوْرِدِ [٢]

وَيَروِي النَّبِيْطُ الزُّرْقُ مِن حَجَرَاتِهِ ... دِيَاراً تُرَوَّى بِالأتيِّ المُعَمَّدِ

بِأجْوَدَ مِنْهُ نَائلاً إنْ بَعضَهُمْ ... كفَى مَالَهُ بِاسْمِ العَطَاءِ المُوَعَّدِ

ومن الأنهار التي كان النَّبطُ يفجّرونَ ماءها نهر النيل وهو نَهْرٌ صغير ببابل ، يقول الأعشى يمدح قيسَ معدي يكربَ [٣] :

مَا النِّيلُ أصْبَحَ زَاخِراً مِنْ مَدِّهِ ... جَادَتْ لَهُ رِيْحُ الصَّبَا فَجَرَى لَهَا

زَبَداً بِبَابِلَ فَهْوَ يَسْقِي أهْلَهَا ... رَغَداً تُفَجِّرُهُ النبيط خِلالهَا

يَوماً بأجْوَدَ نائلاً مِنْهُ إذَا ... نَفْسُ البَخِيْلِ تَجَهَّمَتْ سُؤَّالَهَا

ولعل اهتمامهم بالزراعة وتفجير الأنهار جعل أهل اللغة يرجعون سبب تسميتهم النبط إلى ذلك [٤] .

---

(١) الديوان ، ص ١٩٣ .

(٢) الفَلَجُ : النَّهرُ الصَّغيرُ .

(٣) الديوان ، ص ٢٩ .

(٤) انظر :اللسان ، نبط . الصحاح ،نبط .

٣

النبط تجاراً

ثمة ذِكرٌ للسفن النبطيةٌ في قول النابغةِ يتحدث عن سفن المناذرة التي تردُّ سفنَ النبط إلى التلال يقول النابغة يمدحُ النعمان بن المنذر ملك الحيرة [١] :

له بحـــر يُقَمِّصُ بالعَدَوْلـــى ... وَبالخُلُجِ المُحَمَّلةِ الثـقـــالِ [٢]

مُضِرٌّ بالقُصُوْرِ يَذُودُ عَنّها ... قَرَاقِيرَ النَّبِيْطِ إلـــى الـــتِّلالِ [٣]

نَتبينُ من هذا الشعر أنّ سُفنَ المناذرة سفنٌ تجاريةٌ فهي مُحَّملةٌ بالسلع المختلفةِ ، وأن للنبط سُفناً تحمِلُ أيْضاً بالسلع ، وهي تكاد تنافس سفن المناذرة ، ويبدو أنَّهُ لم تكن للأنباط سيطرةٌ على المياه ولكنهم على أيةِ حالٍ يملكون السفن ويمخرون بها عُباب البحار ولعل نشاطهم التجاريٌ يتأتى من كونهم قوماً يسالمون جيرانهم العرب والفرس ، ولكونهم يسكنون على ضفاف نهر الفرات وبالقرب من الخليج العربي ، ولكونهم أيضاً قوماً مستقرين يزرعون الأرض ،وهذا كله جعلهم ينشطون تجارياً ويكون لهم وجودهم التجاري في الخليج العربي .

٤

النبط وفنُّ العمارة

كان النبط زُرّاعاً يزرعون الأرض و هذا الضرب من العمل يتطلب من هؤلاء الأنباطِ الاستقرار في أرضهم الزراعية ، ولهذا فقد شيدوا البنيان ، وأقاموا العمران ، فكانوا يسكنون في بيوتٍ ليست من الشعر ، فبيوتهم مشيّدَةٌ كالبروج وهي مطليةٌ بالقرمد لتكون جميلة الشكل كما يقول الأعشى [٤] :

وعُذَافِرٍ سَدْسٍ تَخَـــالُ مَحَالَـــهُ ... بُرْجاً تُشيِّدُه النَّبِيْطُ الـقَرْمَـــدَا[٥]

ويذكر الأعشى البيوتَ النبطيةَ التي خَرَّبَها الفُرسُ حينما غزوا إياداً في قولهِ يخاطب كسرى [٦] :

---

(١) الديوان ، ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

(٢) قمّصَ البحر : تحركت أمواجُه . وعدول : قرية بالبحرين تصنع فيها السفن فتسمى سفنها بالعَدَوْلى . والخُلُج : جمع خَلوج وهي السفينة تكون أصغر من العدولى .

(٣) مُضِرٌّ : دَانٍ ولا زقٌ . والقَراقِرُ : جمع قُرْقُور : وهي السفينة العظيمة .

(٤) الديوان ، ص ٢٢٩ .

(٥) العُذَافِرُ : العظيمُ مِنَ الإبل . والسَّدسُ : السنُّ قبل البازل ، أي أنه في نحو الثامنة من عُمره . والمَحَالُ : الفِقرَة من فِقرِ البعير .

(٦) الديوان ، ص ٢٣١ .

خَرِبَتْ بُيوتُ نبيطةٍ فكـأنّمـا لـم تَلْقَ بَعْدَكَ عَامِراً مُتَعَهِّدَا

ويصعُبُ استخدام النيران في هذه العمارات النبطيةِ ولعلَّ النبط استخدموا المصابيح فقد وردت هذه المصابيح في قوله عَبيدِ بنِ الأَبْرَص : يشبِّهُ البَرْقَ بها [1] :

فَهْنَّ كـنبْرَاسِ النبيـطِ أوِ الـ ـفَرْضِ بِكَفِّ اللاعِبِ المُسْمِرِ [2]

(٤) الديوان ، ص ١٣٩ .

(٥) الفرضُ : السَّهم قبل أن يعمل فيه الرِّيشُ والنَّصْلُ . والمُسْمِرُ : الذي دخل في السَّمَرِ .

الفصل الرابع

الأحباشُ
في
الشِّعرِ الجَاهِلِيِّ

١

عوامل الاتصال بين العربِ والأحباشِ

إن اختلاط العرب بالأحباش[١] يرجع إلى ما قبل الميلاد، ففي العهد الأول للدوله الحميرية (١٥ ق.م ٣٠٠م) نزحت فئة من عرب اليمن وحضرموت إلى «أرض كوش» حيث استقربهم المقام فوضعوا حجر الأساس لدولة حبشية ذات مدنية وعمران ما فتئت أن أدركت من الحضارة درجة لم يكن لزنوج البلاد الأصليين أنْ يبلغوها لولا اندماج العرب بهم ثم قامتْ دولة أكسوم فحكمت الحبشة من القرن الأول قبل الميلاد إلى أواخر القرن السابع [٢] .

وخلال هذه الحقبة كانت أسبابُ ومظاهرُ الاتصال بين العرب والأحباش جلية ، فتارة تكون العلاقات بينهما عدائية وتارة أخرى تكون ودية ، فتجلت العلاقات العدائية بينهما في حملات الأحباش المتلاحقة على اليمن وأرض العرب ، ويرى بعض الباحثين أن أقدم وثيقة تثبت النشاط السياسي والحربي لهؤلاء الأكسوميين في بلاد العرب ترجع إلى القرن الأول قبل الميلاد [٣] ، وفي القرن الأول الميلادي لجأ الهمدانيون إلى الأحباش وتحالفوا مع ملكهم (جدرت) ضد بني ريدان فكانت حملتهم الثانية [٤] «ويظهر أن الحبش كانوا تمكنوا من دخول «ظفار » عاصمة حمير وذلك فيما بين سنة (١٩٠) و (٢٠٠) بعد الميلاد ولا ندري إلى متى بقوا فيها والظاهر أنّ حكمهم كان قصيراً»[٥] ويرى بعض الباحثين أن الحبش استولوا على العربية الجنوبية وأن ذلك كان في حوالي السنة (٣٣٥م) وظلوا سادة على اليمن حتى نهاية القرن الرابع [٦] وحوالي سنة (٥٢٣م) قام الأحباش بقيادة أرياط وأبرهة بحربٍ ضد بلاد اليمن للقضاء على الملك ذي نواس اليهود ي الحميري بعد أنْ دخلَ مدينة نجران أهم معاقل المسحيين ، ونكّلَ بأهلِها ومثّلَ بجثث القتلى [٧] وقد استطاع الأحباش أنْ يوطّدوا حكمهم في أرجاء اليمن مدةَ خمسين سنة قبل ولادة الرسول عليه السلام ، وفي

---

(١) ويرجع سبب تسميتهم بهذا الاسم إلى قبيلة حبشت سكنت في شمال الحبشة ثم أطلق العرب الحبشة على جميع البلاد ، انظر : عبد المجيد عابدين ، بين الحبشة والعرب ، ص ١٢. و «حبش » في العربية «تدل على الجمع والتحالف ومن هذه المادة ألفاظ شائعة عند العرب ، فنجد الأحابيش قوم من قريش اجتمعوا عند جبل حُبْشيٍّ بأسفل مكة تحالفوا فسموا لذلك . لسان العرب ، حبش . تاج العروس ، حبش . معجم البلدان ، ٢ : ٢١١ . وحُبَاشَةُ سوقٌ من أسواق العرب في الجاهلية ، معجم البلدان ، ٢:٢١١.

(٢) د. فليب حتى ، د. أدورد جرجي ، د. جبرائيل جبور ، تاريخ العرب مطول ، ١ : ٧٣.

(٣) بين الحبشة والعرب ، ص٢٢ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٢٣ ، ٢٤ .

(٥) المفصل ، ٣ : ٤٥٦ .

(٦) بين الحبشة والعرب ، ص ٣٤ .

(٧) انظر هذه الحادثة في : تاريخ الطبري ، ٢ : ١٣٩ - ١٤٢ ، السيرة النبوية ، ١: ٣٠ - ٣٢ .

عام مولده رأيناهم وقوفاً على أبواب مكة [١] يتهددون كعبتها بالخراب ولم يكن احتلال الحبش لليمن سوى مرحلة في الصراع بين فارس وبيزنطة الذي كان يحتدمُ حيناً بعد حين هكذا بدأ وهكذا انتهى سنة (٥٧٢م) باحتلال الفرس لليمن ، وكانت تلك السنة سنة دمار لمملكة أكسوم ، قُضي فيها على فتوحاتها في بلاد العرب وعلى كل توسع منها في تلك الجهة [٢] .

وإلى جانب هذه العلاقة الحربية العدائية المستمرة نرى جانباً آخر من العلاقات العربية الحبشية تتمثل في التبادل التجاري «فكانت أرضُ الحبشة متجراً لقريش يجدون فيها رفاغاً من الرزق ومتجراً حسناً»[٣] وروى الأصفهانيُ أن عمارةَ بنَ الوليدِ المخزوميٌ وعمرو بن العاص بن وائل السهمي خرجا إلى النجاشي ، وكان كلاهما تاجراً [٤] .

ويرى أوليري « أنه كان في مكة نفسِها أحباش ينظرون في مصالح قومهم التجارية »[٥] ومن المعروف أن الساحلَ الأرتيري كان حلقة اتصالٍ بين الأحباش وكثير من الأمم ، وكان لميناء عدول [٦] التي ذكرها بعض الشعراء في العصر الجاهلي[٧] أهميَة تجارية عظمى فكانت ميناء لتصدير أنواع العاج، وقرون الكركدن، وجلود الحيوان والأرقاء ومن الموانئ العربية التي كان التجار الأحباش يبحرون إليها ميناء الشعيبة [٨] والجار[٩] .

وكان لهذه الموانئ الفضلُ في تسهيل سبل التجارة ، فقد تمكن التجار الأحباش من الوصول إلى سوق عكاظ [١٠] يعرضون فيه ما حملوه من بلادهم ، « وكان للعبيد الأفريقيين مناطق على البحر الأحمر ولاسيما

---

(١) انظر حملة أبرهة على الكعبة في : الأخبار الطوال، ص ٦٢. السيرة النبوية ١ : ٣٩ ، ٤٠. تاريخ الطبري، ٢ : ١٣٢ - ١٣٩. الأغاني ، ١٧: ٢٣٠ - ٢٣٢. البداية والنهاية ، ٢ : ١٦٠ - ١٦٢ . أنساب الأشراف ، ص ٦٧. أخبار مكة المشرفة ، ص ٨٨ - ٩٣. مروج الذهب، ٢ : ٨٤ ، ١٣٢. الكامل في التاريخ ،١ : ١٧٨، ٨٧٩ . الكشاف ٤ : ٧٩٧ . الأصنام، ص ٤٧ . نشوة الطرب ، ١: ١٥٩ .

(٢) الحضارات السامية القديمة ، ص ٢١٦ .

(٣) تاريخ الطبري ، ٢ : ٣٢٨ . والرَّفاغ : سعة العيش .

(٤) الأغاني ، ٩ : ٥٥ .

(٥) Arabia Before Muhammad , p. 184

(٦) ذكر ياقوت في معجم البلدان ، ٤ : ٩٠ «أن عَدَوْلى قريةٌ بالبحرين تنسب إليها السفن » ويحلل لنمان هذا الاسم إلى «عد » أي « أهل المدينة» و«أولى » « اسم قبيلة » أو « جد قبيلة » في اللغة الحبشية. انظر : الحضارات السامية القديمة ، ص ٣٧٨. ويشير كوزماس وبروكو بيوس إلى وجود ملاحين من هذه الميناء الحبشية في موانيء سيلان ، انظر : العرب والملاحة في المحيط الهندي ، ص ١٠٠. و في سنة ٦٣٠ تم خراب عدول من جرّاء غارات العرب وغيرهم فانقطعت الصلة بين الحبشة والعالم الخارجي . انظر : بين الحبشة والعرب ، ص ٨٥ .

(٧) من هؤلاء الشعراء طرفة بن العبد ، الديوان ، ص٧ . والنابغة الذبياني ، الديوان ، ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ . وأبو دؤاد الإيادي ديوانه ضمن دراسات في الأدب العربي ، ص ٣٣٧ .

(٨) وفي حديث وهب بن منبه : أنّ سفينة حجتها الريح إلى الشعيبة وهو مرفأ السفن من ساحل بحر الحجاز ، فاستعانت قريش في تجديد عمارة الكعبة بخشب تلك السفينة . انظر : معجم البلدان ، ٣ : ٣٥١ . وذكر الطبري في تاريخه ، ٢: ٣٢٩ « أنّ الذين هاجروا الهجرة الأولى انتهوا إلى الشعيبة وجاء إليهم سفينتان للتجار حملوهم إلى أرض الحبشة بنصف دينار »

(٩) معجم البلدان ، ٢ : ٩٣. تاج العروس ، جور .

(١٠) بلا شير ،تاريخ الأدب العربي ، ص ٦١ ، ٦٢ .

في ميناء عدول ، حيث يُخْصَوْنَ ويحملون في السفن إلى بلاد العرب وغيرها [١] فكانوا يعملون عبيداً عند سادةِ مكة ومنهم يَسَار الحبشي [٢] وعُبَيْد الحبشي [٣] زوج أم أيمن ، ورباح أبو بلال [٤] وكانت هناك جارية حبشية تخدم الرسول عليه السلام [٥]، وتزوج بعض القرشيين نساءً حبشيات [٦] .

فلم تكن الحبشة بلداً غريباً على قبيلة قريش في مكة ولهذا آثر المسلمون اللجوء إلى بلاد الحبشة لعلّ الأحباش يستطيعون أن يقوموا بحمايتهم من عبدة الأوثان ومن اليهود كما حموا المسيحية في اليمن من عدوان اليهود وجردوا على الوثنية حملة من قَبْلُ [٧]. ويخلص من هذا كلّه أن العلاقاتِ العربيةَ الحبشيةَ في العصرِ الجاهلي كانت وثيقة، فأسبابها متوافرة ومظاهرها متعددة ، فحملَ الأحباشُ إلى بلاد العرب ما أفادوه في بلادهم وأفريقية من حضارة ، كما أنهم تأثروا بالحضارة العربية آنذاك خاصة ماكان قائماً منها في العربية الجنوبية فكان لهذا أثرٌ كبيرٌ في الامتزاج الحضاري والفكري والجنسي بين الشعبين .

---

(١) بين الحبشة والعرب ، ص ١٠٦.

(٢) أسد الغابة ، ٥: ٢٣.

(٣) المصدر السابق ، ص ٤٠٨.

(٤) نفسه ، ص ٦٤١ .

(٥) أنساب الأشراف ، ص ١٨٤.

(٦) المنمق ، ص ٥٠٤ .

(٧) بين الحبشة والعرب ، ص ٧٣.

٢

لون الأحباشِ

لاشك أننا حينما نتحدث عن الأحباش في الشعر الجاهلي خاصة والشعر العربي عامة ، لا نستطيع التفلتُ من ربقة الحديث عن لونهم فقدكان لونهم جزءاً من وجودِهم وتاريخهم ، فلا يمكنُ أنْ يكونَ الحديثُ عنهم بعيداً عن اللونِ الذي صاحبهم مُنْذُ خلقهم في منطقة شديدة الحرارة ، تكاد تلتهبُ بالشمسِ لمدة طويلةٍ من السنةِ ، ولا ريب أن تلكَ البيئة الحارةَ الجافة بفعلِ العوامل الطبيعية كان لها تأثيرها الكبيرُ في تلوين قاطنيها بذلك اللونِ الأسودِ ، ويظهر أنّ للشمسِ تأثيرات أخرى منها ما ذكره صاعد الأندلسيُ حينما يتحدث عن السودانِ والأحباشِ بقوله :« فطولُ مقارنة الشمسِ لسمتِ رُؤوسهم أسخن هواءهم، وسخف جوُّهم فصارت لذلك أمزجتهُم حارةً ، وأخلاطهُم محرقة ، فاسودّتْ ألوانهم ، وتفلفلت شعورُهم ، فعدموا بهذهِ رجاحة الأحلامِ وثبوتَ البصائر ، وغلب عليهم الطيشُ وفشا فيهم النوك، والجهلُ»[١].

ويذكرُ الجاحظُ على لسانِ الذّابين عن معشر السُّوْدانِ أن اللهَ تعالى لم يجعلهم سوداً تشويهاً بخلقهم ، ولكنَّ البلدَ فعل ذلك بهم « فالسواد والبياض إنما هما من قبل خلقة البلدة وماطبع اللهُ عليه الماءَ والتربة ، ومن قبل قرب الشمس وبعدها وشدة حرّها ولينها ، وليس ذلك من قبل مسخ ولاعقوبةٍ ولا تشويهٍ ولانقصيرٍ»[٢] .

ونتبين من هذا أن أهل اللون الأسود يشعرون بانتقاص الأقوام والأمم الأخرى لهم ،فقد جلب لهم سوادهم ازدراء الناس واستعلاءهم عليهم ، وجنى عليهم كثيراً ، «فلفظ اثيوبيا الذي يرد ليدل على الحبشة وهو يوناني الأصل مركب من كلمتين بمعنى « الوجة المحترق»[٣] فهذا اللون الأسود حينما يلوّنُ بشرة صاحبه ، يضفي عليه تناسقاً مضطرباً وغير متّسقٍ ، قد يبدو لبعض الناظرين قبحاً لا يسرهم رؤيته لأنه غريبٌ على أشكالهم ونضرةِ وجوههم ، وما يزال الزنوج حتى عصرنا الحديث يعانون معاناةً شديدةً من التفرقة العنصرية بين أمم تزعُمُ أنها تجلُّ الإنسانَ وتأخذ بيده نحو أسبابِ الحضارة والرقيِّ .

أمّا العرب في العصر الجاهلي فلم تخل رؤيتهم للأحباش من الازدراء فهم أمة تتصف بالسُمرة المزوجة أحياناً بالبياض حتى قيل في إحدى الروايات: « إن الرسول عليه السلام كان أسمرَ»[٤] فكانت نظرة العرب

(١) طبقات الأمم ، ص ١١ .

(٢) رسائل الجاحظ، رسالة فخر السودان على البيضان ، ١ : ٢٢٠. « وذكر جالينوس عشرة خصال اجتمعت في الأسود منها : تفلفل الشعر ، وخفة الحاجبين ، وانتشار المنخرين ، وغلظ الشفتين ، وتحديد الأسنان ، ونتن الجلد ، وسواد الحدق ، وتشقق اليدين والرجلين ، وكثرة الطرب » انظر : مروج الذهب ، ١ : ٨٢.

(٣) بين الحبشة والعرب ، ص ٧ .

(٤) اللسان ، سمر. وفي شعر مسكين الدارمي ، الديوان ، ص٨ : أن السمرة هي لون العرب .

لأصحاب اللون الأسود تحمل في ثناياها قِلىً وبغضاً فهذا أبو قيس بن رفاعة يمدح قوماً نافياً عنهم الضعف والسواد والجبن فيقول [١] :

أولوا أناةٍ وأحْلامٍ إذا غَضِبُوا ولا قَصِفونَ ولاسودٌ رَعَابِيبُ [٢]

ونجد سلامة بن جندل السَّعدي يهجو رجالاً من السود بقوله [٣] :

هَمَّتْ معدٌّ بناهَمّا فنهنَهَها عَنّا طِعَانٌ وضربٌ غيرُ تَذبيبِ

بالمشْرَفيّ ومَصْقُولٍ أسنتُها صُمُّ العوامل صَدْقاتِ الأنابيبِ [٤]

يجلو أسنّتها فتيانُ عاديةٍ لا مُقْرِفِينَ ولا سُودٍ جَعَابِيبِ [٥]

ويقول كذلك [٦] :

هل في سؤالِكَ عن أسماءَ مِنْ حُوبِ وفي السَّلام وإهداء المناسيب

ليستْ مِنَ الزُّلِّ إرْدَافاً إذَا انصَرفتْ ولا القِصَارِ ولا السُّودِ العناكيبِ [٧]

فالسوادُ غيرُ مرغوبٍ في الرجال ، فما بالك بالنساء اللواتي ينبغي توافر عناصرالجمال فيهن ؛ ومن مظاهر الجمال في النساء العيون الحور والشفاه اللُّعس ، فالسواد إذن مستجب في العيون والشفاه ولكن ليس من الجمال أن يكون الوجه كله أسودَ ، فإذا كانت المرأةُ قصيرةً ضعيفة زلاء سوداءَ فهي إلى القبح أقرب منه إلى محراب الجمال وإهابه .

ومن الأحباش الذين وصفوا بالسواد جيش أبرهة ، فقد بعثوا الرعب بسوادهم في قلوب أهل مكة يقول كلثومُ بنُ عَمِيْس [٨]:

ألا ليتَ إنَّ اللّه أسْمَعَ دَعْوَةً وأرْسَلَ بينَ الأخْشَبَيْن مُناديا

أتتكمْ جموعُ الأشرمِ الفيلُ فيهمُ وسودُ رِجَالٍ يركبونَ السُّعاليا [٩]

---

(١) اللسان ، قصف .

(٢) رجل قصف : سريع الانكسار عن النجدة . والرعبوب :الضعيف الجبان .

(٣) الديوان ، ص ١١١ ، ١١٢ .

(٤) العوامل : أعالي الرماح . صم : غير مجوفة . صَدْقات : صلبات. الأنابيب : مابين عقد الرمح .

(٥) العادية : الحرب . المقرف : وهو الذي أمُه عربية وأبوه ليس بعربي . والجعابيب : جمع جُعْبوب : وهو القصير الضعيف .

(٦) الديوان ، ص ٢٢٥ .

(٧) الزُّلُّ : جمع زَلّاء : وهي المرأة الخفيفة الوركين . والعناكيب : جمع عنكب : وهي المرأة القصيرة الضعيفة .

(٨) المنمق ، ص ٦٩ .

(٩) السُّعالى : جمع سِعْلاة وسِعلاء وهي : الغول .

كما وصفهم عِكْرِمةُ بنُ عامر بالأعلاج السود [١] ، أمّاشعرهم فهو مثلُ حَبِّ الفُلْفُل [٢] فهذه صور تنبيء بمقت عرب الجاهلية الشديد للأحباش فكان سوادهم دافعاً قوياً يدفع العرب دفعاً لهذا المقت ، وقد جاهد الإسلام جهاداً واضحاً ليحد من تلك النظرة تارة بالقرآن الكريم وتارة أخرى بالحديث النبوي ، أمّا القرآن الكريم فجعل التقوى أساسَ التفضيل يقول تعالى : « يَا أَيُّها النَّاسُ إنَّا خَلَقْنَاكُم مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إنَّ أَكْرَمَكُم عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إنَّ اللهَ عَلِيْمٌ خَبِيْرٌ »[٣] وأما الحديث فمن ذلك قول الرسول عليه السلام:«أسْمَعُوا وأطيعوا وإنْ استُعْمِلَ عَلَيْكُم عَبدٌ «حبشي» كأنَّ رأسَه زَبِيْبَةٌ »[٤] .

ويتبينُ من الحديث النبوي أنّ العربَ كانوا يأنفون من حكم الأحباش السود ، ولا غروَ أن كثيراً من سادة قريش منعتهم أنفتُهم من دخول الإسلام والإيمانِ بالدعوة المحمديةِ لأنَّ في ذلك دعوةً للمساواةِ مع أولئك الأحباش السود [٥] ، وما جاء الإسلام إلا ليقيمَ العدالة بين البشر دون النظر إلى الجنس أو اللون .

إن الإسلام جاهد جهاداً عظيماً لمحو هذه النظرة ، ولكن ترسباتها في النفس العربية ما فتئت تظهر خِلسةً في صدر الإسلام من حينٍ إلى حينٍ، فهذا الرسولُ عليه السلامُ يسمعُ أبَا ذرٍّ يعيِّرُ رَجُلاً بأمّهِ السوداءِ فيقول معاتباً ومؤنّباً : « إنّك امرؤٌ فيك جاهلية »[٦] ومما يؤكد بقاء ذلك الازدراء لأولئك الأحباش السود ما روي من أنَّ حسانَ بن ثابت مرّ بمجلس مُزَيْنَةَ بَعْدَمَا كُفَّ بَصَرُهُ فضحك به بعضُهم فقال حسان [٧] :

أبُوْكَ أبُوْكَ وأنْـــتَ ابنُـــهُ ... فبئـــسَ البَنِيُّ وبئـــسَ الأبُ

وأمُّكَ سَـــــوْدَاءُ نـــوبِيَّـــةٌ ... كـــأنَّ أنَا مِلَهَا الحُنْظُـــــبُ [٨]

ومن أبناء الإماء السود رهط من الشعراء المشهورين يقال لهم الأغربة وهم : عنترةُ بنُ شَدَّادٍ أمّهُ زَبِيبةُ ، وخُفافُ بنُ نُدبَةَ السُّلمي أمه نُدبة ، والسُّليكُ بنُ عُمَيْر أمّه سُلكَةُ وقيل لهؤلاء : أغْربة العرب لسوادهم وشجاعتهم [٩] ، وإذا كان عنترة الذي نُسِجَتْ حوله الأساطير يفتخر بسواده وسواد أمّه فإنه كان يشعرمثل

---

(١) السيرة النبوية ، ١ : ٤٦ .

(٢) المنمق ، ص ٧٠ .

(٣) سورة الحجرات ، آية ١٣ .

(٤) سنن ابن ماجة ، ٢ : ١٤١ .

(٥) جاء الإسلامُ ، والأحباشُ السودُ عبيداً في مكة، ذلت نفوسهم ، وهانت كرامتهم فكانوا يشعرون بازدراءِ العرب لهم ولا أدلّ على ذلك من سؤالِ جُعَالٍ أحدِ الأحباشِ للرسولِ عليه السلام : « أرأيتَ إنْ قاتلتُ بين يديك حتى أقتل ، أيدخلني ربي الجنةَ ولا يحتقرني ؟ فقال له عليه السلام :نعمْ ، فقال : وأنا منتنُ الريح أسودُ اللونِ يا رسول اللهِ فقال : نعمْ » انظر الإصابة في تميز الصحابة ، ١ : ٢٣٥ .

(٦) النهاية في غريب الحديث ، ١ : ٣٢٣.

(٧) الديوان، ص ١٤ .

(٨) الحُنْظُبُ : دابة مثل الخنفساء .

(٩) انظر : المناقب المزيدية ، ١: ١٧٠ .

الأغربة والسود الآخرين بازدراءِ العرب لهم ؛ فلم ترفعْهُم شجاعتُهم وقوتُهم ونسبُهم العربي من قبل الآباء بل كان السواد سببا رئيسا في جعلهم طبقةً مسحوقةً .

ومن المعروف أن الحبشَ ينسبون إلى حام بن نوح ، فحينما يذكر عنترة حاماً يذكرنا بأخيه سام الذي ينسب إليه العرب ، فإذا كان هذان الأخوان من أبٍ واحدٍ فلماذا هذا التميز بين أبناء الأخوين ، وإذا كان بنو عبس أعمامَه فإن أخوالَه آل حام ، وهذا ما يدعو عنترة ليفخر بنفسه :

يقدُمُهُ فتىً مِنْ خَيْرِ عَبْسٍ أبُوهُ ، وأمُّهُ مِنْ آلِ حَـــامِ [1]

وقال عنترة كذلك [2] :

وَ أنَا المجرَّبُ في المواطنِ كُلِّها مِنْ آلِ عَبْسٍ مَنْصِبي وَفَعَالي

مِنْهُمْ أبِي حَقّاً ، فَهُمْ لِيْ وَالِدٌ وَالأمُّ مِنْ حَامٍ فَهُمْ أخوَالي

فعنترةُ يَطلبُ مِنْ العربِ أن ينظروا إلى نسب المرءِ وفَعَاله بدلاً من النظر إلى اللون ، ولا أُريدُ من ذكر هذهِ الأشعارِ البحثَ في موضوع اللون في الشعر الجاهلي ودِلالاتهِ المختلفة ، ولكن لا بدَّ من الإشارة إلى أن اللون الأسودَ قَدِ ارتبطَ بالأحبَاش ، وأصبحَ علامة من علامات أولئك القوم ، وخصيصة من خصائصهم ، فلا يمكن أنْ يدرسوا بعيداً عن صورتهم السوداء ، فكان سوادهم مصدر شقائهم إبان العصر الجاهلي وكان العرب ينظرون إليهم نظرة مفعمة بالاستعلاءِ والكبرياءِ .

(١) شرح ديوان عنترة : ص ٢٠٠ . ويذكر عنترةُ أنَّ عبلةَ كانتْ تعيبهُ بسوادهِ وهو فخره . انظر : شرح ديوان عنترة ، ص ٢١٦ .

(٢) شرح ديوان عنترة ، ص ٦٣ .

٣

الأحباش عبيداً

تعرفُ بلادُ الحبشة بالجدبِ والقَحْطِ و سوءِ العيشِ ويعود ذلك كله إلى ارتفاع درجة الحرارة ، وشُح السَّماءِ، وهذا زاد من معاناة الأحباش وإملاقهم في بلادهم، فجعلوا يضربون في الأرض بحثاً عن الرزقِ ووسائلِ العيْشِ ليقيموا أودَهم ، وكانت مكةُ وما صاقَبها من القرى الحضرية كيثرب والطائفِ أماكنَ يمكن للأحباش أنْ يرحلوا إليها بحثا عن العمل لا سيما أن أهل هذه القرى قد أوتوا حظاً من المال والجاه فمن السهل أن يجدوا العمل الذي يبحثون عنه ، ولا ننسى أنّ عدداً من المقيمينَ مِنَ الأحباشِ في بلاد العرب هم مِنْ بقايا الحملةِ التي قادها أبرهةُ «فقد أقام بمكةَ فُلالٌ من جيش أبرهة وبعض من ضمّه العسكرُ ، فكانوا بمكة يعتملونَ ويرعونَ لأهلِها » [١] وحينما وفدَ عبدُ المطلب ورهط من سادة قريش على سيف بن ذي يزن بعد انتصاره على الأحباش أهدى سيف كلّ رجلٍ منَ الوفد عشرة أعبدٍ سودٍ وعشر إماء سودٍ ، وكان نصيب عبد المطلب عشرة أضعاف [٢] ، وأخذ هؤلاء الأحباش يعملون عند سادةِ قريشٍ وأخذَ هؤلاءِ يستعبدونَهم موكلين إليهم أقسى الأعمال ، والأحباش يطيعونَ أمرَ سادتِهم ولا يَعصونَ لهم شيئاً من الأمر فقدْ جُبِلوا على الجدِّ في العملِ وليس لهم سبيلٌ آخرُ لينقذوا أنفسهم أو تنقذهم أنفسهم من هذه العبودية وهذا الرق ، ويُرْجِعُ ابنُ خلدون إذعان السودانِ للرق « لنقص الإنسانية فيهم وقربهم من عرض الحيوانات العُجْم »[٣] فقد كانوا يباعون ويشترون كما تباع الأنعامُ وتشترى وكان الأحباش في المجتمع الجاهلي يكوِّنون طبقةً من العبيد والأوباش ، طبقة مسحوقة تعيش على فتات المجتمع وتوكَّلُ إليهم أصعب الأعمال دون أن يكون لهم نصيبٌ في الحياة الهانئة فكانوا يقومونَ بالأعمال التي تطلب منهم ، بيد أنهم لا يجدون الرفق والاحترام ، فالعبد لا نسب يرفعهُ ولا قريب ينصُره كما يقول بشرُ بن عُليقْ الطائي [٤] :

عهِدتُكَ عَبْداً لستَ مِنْ أصْلِ مَعْشَرٍ ... عَنِ المجْدِ مَقْطُوعُ السَّواعِدِ أجْذَمَا

والأحباش قوم ارتبط اسمُهم عند العرب «بالعبيد» [٥] فعلى الرغم من أنهم غزوا اليمنَ وتولوا حكم

---

(١) أخبار مكة المشرفة ، ص ٩٧ .

(٢) المنمق ، ص ٥٤٦ ، ٥٤٧ . وحينما وفد النعمان بن المنذر على كسرى وصف الأحباش بالعبيد الأشرار ، انظر : العقد الفريد ، ١ : ٢٣١.

(٣) المقدمة ، ص ١٣٨ .

(٤) قصائد جاهلية نادرة ، ص ١٨٨ .

(٥) ورد في التوراة : أن نوحاً عليه السلام غضب على ابنه حام لأن هذا رأى سوءة أبيه فأخذ سامٌ ويافثٌ بغطيان سوءة أبيهما فلما أفاق نوح من خمره دعا ربَّهُ ليكون حام عبداً لأخويه سام ويافث. انظر سفر التكوين ، الآيات ١٨ - ٢٩. وكان الفراعنة يبعثون بالحملات إلى بلاد كوش لاستجلاب العبيد منها « بين الحبشة والعرب - ص ١٠٦ » وهذا يؤكد أن جميع الأمم القديمة كانت تتخذهم عبيداً .

العرب بها إلاّ أن سيف بن ذي يزن يصفهم بأنهم عبيدٌ لا يستحقونَ أنْ يكونوا سادة العرب في ذلك الجزء الجنوبي من المكان العربي فيقول [١] :

ولَقَدْ سَمَوْتُ إلى الحبوشِ بعُصبَةٍ ... أبناءِ كلِّ غَضَنْفَرٍ إسوارِ

مِنْ كلِّ أبيضَ في الحُروبِ كأنَّهُ ... أسَدٌ ببيشةَ شابكُ الإظفارِ

خيَّمْتُ في لُجَجِ البحارِ فلم يكنْ ... للنَّاسِ غيرُ تَرجُّمِ الأخبَارِ

قالوا : ابن ذي يزنٍ يسيرُ إليكمُ ... فحذار مِنْهُ ولاتَ حينَ حَذَارِ

والعامُ عامُ قدومه ولَعَلَّهُ ... نَابَتْ عَلَيْهِ نَوائبُ الأقْدَارِ

حتَّى إذَا أمِنُوا المغارَ عليْهُمُ ... وافيتُ بين كتائبِ الأحْرَارِ

مَا زِلتُ أقْتُل فَلَّهُم وَشَرِيدَهُمْ ... حَتَّى اقتضيتُ مِنَ العَبِيدِ بثأري

أمّا عنترةُ فلمْ تشفعْ له أبوتُه العربيةُ وشجاعتهُ العنترية ليخرجَ مِنَ الطبقة السوداء وطائفة العبيد فيقول[٢]:

إنْ كنْتُ في عَدَدِ العبيدِ فهمتي ... فوقَ الثريّا والسِّماكِ الأعْزَلِ

وفي يوم أحدٍ هجا حسان بن ثابتٍ بني عبد الدار وكانوا حافظوا على لوائهم حتى قُتلوا رجلاً بعد رجل فصارَ اللواءُ إلى عبدٍ لهم أسود يقال له : صواب فقال حسان [٣] :

فخرتمْ باللواءِ وشرُّ فَخْرٍ ... لواء حينَ رُدَّ إلـــى الصُّوابِ

جعلتُمْ فخركمْ فيه لعبدٍ ... مِنَ الأمِ مَنْ يطاعَفَرَ التُّرابِ

وإذا كان الأحباشُ يُستخدمونَ عند سادة العرب عبيداً ، فلا يُستَبعدُ أنْ يكون من أعمالهم التي يقومون بها الحراسة فهم يحرسون قصر غِمْدانَ في اليمنِ كما يذكر ذلك أوسُ بنُ حَجَر [٤] :

ولوْ كنْتُ في غِمدان يحرسُ بابَه ... أرَاجِيلُ أحْبُوشٍ وأغْضَفُ آلفُ [٥]

إذاً لأتَتْنِي حَيْثُ كنْتُ منيتي ... يخبُّ بها هَادٍ لإثريَ قَائِفُ

---

(١) القصيدة النشوانية ، ص ١٥١ ، ١٥٢ .

(٢) شرح ديوان عنترة ، ص ١٧١ .

(٣) الديوان ، ص ١١٥ .

(٤) الديوان ، ص ٧٤. وينسب لثعلبة بن عمرو العبدي انظر : المفضليات، ص٢٨٣ . وينسب كذلك لأبي الطمحان القيني ، انظر : قصائد جاهلية نادرة ، ص ٢٢٠. وروايتهما أسودُ آلفُ .

(٥) الأغْضَفُ : المرْخي أذنيه ، ويراد بها هنا الكلب .

واتخاذُ الأحباش حرساً في بلاد العرب أمرٌ يمكن ترجيحهُ لما تقدم من أنهم يحرسون قصر غمْدان ، ولأنه كذلك يتوافق مع خلائقهم في العمل فهم لا يأنفون من ذلك، وإذا كان الأمر كذلك فلا ندري هلْ كانت حراستهم التي ذكرها أوس بن حجر في زمن سيطرة بني جنسهم ولونهم على اليمن ، وليس في ذلك ما ينقص من قدرهم لأنهم يحرسون في إطار حكم حبشي ، أمْ كانت تلك الحراسة في عهد الحكم العربي أو الفارسي فإنّ ذلك لا يخرج عما وُصِفَ به الأحباشُ في هذا الشعر الذي ذكر سابقاً .

٤
ما شبِّه به الأحباشُ

١ - الزِّقاق

من الصور الطريفةِ للأحباش في الشعر الجاهلي ، أنْ يشبَّهَ زِقُ الخمر بهؤلاءِ القوم ، ولعلَّ وَجهَ الشبهِ بين المشبَّهِ وهو : الزق ، والمشبَّهِ بهِ وهو : الحبش هو السواد ، ولا يُعلمُ مِنْ أمر الزِّقِ في اللغة إلا أنه سِقاءٌ أو جلدٌ يجزُّ ولا ينتف ، للشرب وغيرهِ [١] ، وهو كما يظهر في الشِّعْرِ أسودُ الشكل [٢] ، ولا بدَّ أن يكون صغيراً على شكلٍ طوليٍّ ، يستطيع صاحبه أن يحمله في حلِّه وترحاله ، فهذا الأعشى يشبه الزقَّ بالحبشي المنبطح :

تحسَبُ الزِّقَّ لَدَيْهَا مُسْنَداً ... حَبَشِيّاً نَامَ عَمْداً فانْبَطَحْ [٣]

فقد جمعَ الحبشيُّ في هذا البيت صِفتين : الأولى: صفةُ السواد فالزق يشبه الحبشيَّ في اللون ، أمّا الصِّفةُ الأخرى فهي : النحافة وإن شئتَ فقل : إنّ الزِّقَّ يشبه الحبشيَّ في شكله الخارجيِّ ، وثمة صورةٌ أخرى تؤكد هذا الرأيَ نجدها في قول لبيد [٤] :

وفتيانِ صِدْقٍ قَدْ غَدَوتُ عَلَيْهِمُ ... بِلادَخِنٍ ولا رَجِيعٍ مجنَّبِ [٥]

بِمُجْتَزَفٍ جَوْنٍ كأنَّ خَفَاءَهُ ... قَرَا حَبَشِيٍّ في السَّرَ ومَطٍ مُحْقَبِ [٦]

---

(١) اللسان، زقق . القاموس المحيط ، زقق .

(٢) قال معاوية بن أوس مثلا : وَزِقٌ سَبَأتُ لَدَى مَتْجَرٍ ... أَسْوَدَ كالرَّجلِ الأَسْحَمِ

انظر : رسائل الجاحظ – رسالة فخر السودان على البيضان ،١: ١٨٨. والأَسْحَمُ : الأسودُ .

(٣) الديوان، ص ٢٤٣ .

(٤) شرح الديوان ، ص٦ .

(٥) بلا دَخِنٍ : أي لم يصبه الدخان . والرجيع : الذي رجعوا عليه من الغد . مُجَنَّبٍ : الذي جُنِّبَ ونُحي.

(٦) مجتزف: اشتري جزافاً بلا كيل أو وَزْنٍ . جون : أسود . خفاءه : ما ظهر من الزق . القرا : الظهر : السرومط : الحبل . مُحْقَب : مشدود خلف عجز دابته .

ففي البيت الثاني من شعر لبيد نرى صورةَ ما ظهر وبان من الزقِ – وهو مشدود إلى مطية الشاعر فلا يرى منه إلا الجزء الأعلى – كظهر الحبشي ، فكلاهما أسودُ ؛ على هيئةِ هلالٍ شبه دائري ، ولا أبعدُ كثيراً إذا قلتُ : إن الشاعر استمد صورة ظهر الحبشي من الواقع الذي يعيشه الأحباش حينذاك ، فقد كانوا يعملون عند سادتهم ويبذلون جُهْداً عظيماً لإرضائهم ، وتقضي حَمَارَةُ القيظِ ، وسمومُ الصحراء ولفحها أن يتخففوا من لباسهم ، فتنكشف ظهورهم وصدورُهم وسوقُهم ، وأكبرُ الظنّ أن الشاعرَ قَدْ اصطادَ هذه الصورة أثناء انحناء هؤلاء الأحباش وانشغالهم بالعملِ وانشغال العمل بهم .

وتشبيه الزق بالحبشي يثير سؤالاً عن علاقة أخرى غير السواد والنحافة جمعت بين زقاق الخمر والأحباش ، وما أريد قوله : هو هل كان الأحباش يصنعون الزقاق أو يتاجرون بالخمر ؟ وهل كانوا يعتقونها كالفرس ؟ أم ان العرب لم يكونوا يطمئنون لتعتيق الخمر من قبل الأحباش ؟! ولسوء الحظ أننا لا نجد في الشعر الجاهلي حديثاً عَنْ هذا الأمرِ أو إجابةً واضحةً تشير إلى ذلك .

٢. الظلمان :

من الحيواناتِ التي شبهت بالأحباشِ الظليم وهو ذكرُ النعامةِ يقول عنترة في وصف ناقته [١]:

وَكأنّما تَقِصُ الإكامَ عَشِيّةً ... بِقَريبِ بَيْنَ المَنْسِمَيْنِ مُصَلَّمِ [٢]

يأويْ إلى حِزَقِ النَّعَامِ كما أوَتْ ... حِزَقٌ يمانِيَةٌ لأعْجَمَ طِمْطِمِ [٣]

يَتْبَعْنَ قُلَّةَ رأسِهِ وَكأنَّهُ ... زَوْجٌ على حَرَجٍ لهُنَّ مُخَيَّمِ [٤]

صَعْلٍ يعودُ بذي العُشَيْرَةِ بَيْضَهُ ... كالعَبْدِ ذي الفَرْوِ الطَّويلِ الأصْلَمِ [٥]

ففي شعر عنترة السابق نرى صورتين للأحباش ، الصورة الأولى : حالة النعام وهي لا تكادُ تستبينُ ما يوحيهِ إليها الظليمُ من إنقاضٍ ونقنقةٍ بصورةِ الرجال اليمانيين حول رجل حبشي لا يكاد يفصح في كلامه ، فهم لا يفهمون شيئاً من كلام ذلك الحبشي .

أما الصورةُ الأخرى فهي تشبيه الظليم الأصلم المقطوع الأذنين [٦] وما عليه من الريش بالعبد الحبشي

---

(١) الديوان ، ص ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ .

(٢) تقِصُ : من الفعل وقص ، وتَقِصُ الناقةُ الإكامَ : تدقها بأخفافها لشدة وطئها وسرعة سيرها ، والإكام : جمع أكْمة وهي ما ارتفع من الأرض. والمَنْسَمانِ : الظفران . والمُصَلَّم : المقطوع الأذنين . وقوله بقريب بني المنسمين مُصَلَّم ، يريد الظليم .

(٣) الحِزَقُ واحدتها حزقة وحزيقة : الجماعات .

(٤) قُلَّةُ الرأس : أعلاه . والزَّوْجُ : النَّمطُ يطرح على الهودج . والحَرَجُ : الهودج .

(٥) الصَّعْلُ : الصغير الرأس الطويل العنق . يعود : يتعهد . وذو العُشَيْرَةِ : موضع.

(٦) يذكر الجاحظ : أن العرب تقول في أمثالها : إنّ النعامة ذهبت تطلب قرنين فقطعوا أذنيها ، ليجعلوها مثلاً في الموق وسوءِ التدبير (الحيوان ، ٤ : ٣٢٣) .

الذي يلبس فروةً ، ولا تكاد أذناه تظهران لصغرهما ، ويُلاحظُ عند رؤية الأحباش أن أذانهم صغيرةٌ لا تكاد تظهر، فهذا وصف واقعي لِخلقَةِ الأحباش .

ومن صفاتِ الظلمان أنها تمتاز بالنشاط والحركة كما يقول لبيد في تشبيهها بالأحباش [١] :

وَرَقَاقٍ عُصَبٍ ظِلمـــــانُهُ كحَزِيقِ الحُبْشِيِّين الزُّجَلْ [٢]

فالظلمانُ قدْ اعصوصَبت وتجمعت ، فأظهرت نشاطاً يضاهي جماعة الحبش ، وفي هذا النشاط يقول عديُّ بنُ زيد العبادي [٣] :

وَمجُودٍ زَعَلٍ ظِلمـــــانُهُ كرجالِ الحَبْشِ تَرْدى بالعَمَدْ

ومن الصور التي نلمسها ؛ صورة الظليم وأهداب ريشه بالحبشي ذي الكساء وهذا يذكرنا بتشبيه عنترة السابق يقول بشرُ بنُ أبي خازِم الأسَدي [٤] :

حتى إذا تَلَعَ النَّهارُ وَهَاجَني للهَمِّ ذِعْلِبَةٌ تُنِيفُ وَتَصْرِفُ [٥]

هَوجَاءُ ناجيـــةٌ ، كـــأنَّ جَديلَها في جِيْدِ خَاضِبةٍ إذَا مَا أوْجَفُوا [٦]

يبري لها خَرِبُ المَشَاسِ مُصَلَّمٌ صَعْلٌ هِبَلٌّ ذو مَنَاسِفَ أسْقَفُ [٧]

أكَالُ تَنُّوم النِّقَاعِ كأنَّهُ حَبَشِيٌّ حَازِقَةٍ عَلَيْهِ القَرْطَفُ [٨]

ولعل تشبيهَ الظليم بالحبشي ، وليس الحبشي بالظليم يعود إلى أنّ الشعراء أرادوا أنْ يصفوا الظليمَ ، ولم يبتغوا وصف الحبشي ، فحينما يخرجون إلى البيد المقفرة يجدون الظلمان فيحسون أن أقرب الصور إليها صورة الحبشي ، فالسواد يجمع بينهما كما أن ثمة صفاتٍ أخرى تتوافر في كليهما منها : صغرحجم أذن الحبشي واختفاؤها في الظليم ، ومنها كذلك دأب الظليم وزَعلُه الدائم ، فحالهُ كحال الحبشي الذي يعمل طِوال يومه .

---

(١) شرح الديوان ، ص ١٧٤ .

(٢) الرَّقاقُ : الصحراء . والزُّجَلُ : جمع زَجْلة : وهي الجماعة .

(٣) الديوان ، ص ٤٣ .

(٤) الديوان ، ص ١٥٤.

(٥) تَلَعَ النهار : طلع . والذِعْلِبَةُ : الناقةُ السريعةُ .

(٦) الناقةُ الهوجاءُ : السريعة وكذلك الناجية . والجديلُ : الزمام المجدول من أدم . والخاضبة : النعامة .

(٧) يبري لها : يعرض لها . والخَرِبُ : الذي لامخ له . والمَشَاس : جمعُ مُشاشه وهي : رأس العظم الممكن مضغه . والهبلُ : المسنُّ من الظلمان. والمَناسِفُ : المخالب التي في رجلي الظليم . والأسقف : الطويل العنق .

(٨) التَّنومُ : ضرب من الشجر له ثمر . والقَرْطَفُ : دِثارٌ مُخمَّلٌ .

٣ . الجن :

من الصورِ التي نجدها للأحباش تشبيه الجن بهم وقد ورد ذلك في قولِ الأعشَى [١] :

أوَلَمْ تـــــري حِجْراً وأنـ ـــتِ حكيْمةٌ ولِمـــــــا بِهَا [٢]
إنّ الثّعـــــالِبَ بِالضُّحَى يلْعَبْنَ فـــــي مِحْرَابِهـــــا
والجنُّ تَعـــــــزفُ حَوْلها كالحُبْشِ فـــي مِحْرَابِهـــا [٣]

فتشبيه الأعشى تصويت الجنّ بكلام الحبش يوحي بأن لغة الأحباش لم تكن مفهومةً عندَ العرب ، فكان على الأحباش أن يتعلموا لغة العرب ويكلموا أهلها بها ، أمّا لغتهم فلا بأس أن يتخاطبوا بها حينما يلتقون مع بعضهم في الأماكن الخاصة بهم ، فتعلو أصواتهم ، ويرتفع صياحهم دون تناغم متسق فهم بتلك الأصوات يشبهون الجن .

٥

سلاح الأحباش

ثمة سلاح كان يستخدمه الأحباش في القتال وهو : الحِرابُ ، وقد ورد في الشعر الجاهلي بعض الأشعار التي تبين ذلك كقول لبيد يشبهُ انكشافَ البرق عن المزن السوداء بالأحباش وهم يمسكون الحِراب وفي ذلك يقول [٤] :

أصَاح تَرَى بُرَيْقاً هَبَّ وَهْناً كمِصبَاحِ الشُّعَيْلةِ في الذُّبَالِ
أرِقْتُ له وَأنْجَدَ بَعْدَ هَدْءٍ وأصْحَابي عَلى شُعَبِ الرِّحَالِ
يُضِيءُ رَبَابُهُ في المزْنِ حُبْشاً قِيَامـــــاً بالحِرَابِ وَ بالإلالِ [٥]

وقال ذلك لبيد «لأنَّ الأحباشَ إذا أقبلوا بحرابهم ورماحهم وَقِسيِّهم وسيوفهم ورياتهم وخيولهم مع سَوادِ ألوانهم وَضخم أبدانهم رأيتَ هَوْلاً لم ترَ مِثله ولم تسمع به »[٦] وهذا أبو دُؤاد الإيادي يشبهُ ظهرَ فَرسِهِ

---

(١) الديوان ، ص ٢٥١ .

(٢) الحجر : مساكن ثمود في الشام إلى الجنوب من دومة الجندل .

(٣) عزفتِ الجن : صوتت وصاحت في الصحاري .

(٤) شرح الديوان ، ص ٨٩ .

(٥) الإلالُ : الحِرَابُ .

(٦) رسائل الجاحظ ، رسالة فخر السودان على البيضان ، ١ : ٢٠١ .

بالحبشي المظلوم تمطّى ليرميَ حربته [١] :

رَهِلٌ زَوْرُهَا كأنّ قَرَاهَا مَسَدٌ شُدَّ مَتْنَه التَّبرِيمُ [٢]

وَتمطّى بَوْعاً كما يَتَمطّى حَبَشيٌّ بِحَرْبَةٍ مَظْلُومُ [٣]

فالحِراب إحدى الأسلحة التي كانت الأحباشُ تستخدمُها في القتال وقدْ ذكر كلثوم بنُ عمرٍو حينما هاجمَ الأحباشُ الكعبةَ فأقبلوا بِحرابهم الصُّوادِي فقال :

أَتَتْكُمْ جُمُوعُ الأَشْرَمِ الفِيْلُ فيهمُ وسُوْدُ رِجالٍ يَرْكَبُونَ السُّعاليا [٤]

ورِجْلٌ جسامٌ لا يُكَبُّ عَدِيدُهُمْ يَهزُّونَ واللاتِ الحِرابَ الصُّوَادِيا

فهذا الشعرُ الذي رُوي يؤكد أن الأحباشَ كانوا يتقنون التسديد بالحراب ، وهو ضرب من الفنِّ الحربي الهادىء أشتهر به الأحباشُ وامتازوا به ، وهو فنٌّ يحتاجُ إلى رَوِيَّةٍ ودِقةٍ وَخِفَّةٍ في اليد والجسم ، وشجاعة لا تعرِفُ التردّدَ عندما تحين الفرصةُ المنتظرة ، فقد روى البخاريُّ :«أنَّ عائشة كانت تنظرُ إلى الأحباش وهم يلعبون بالحراب في المسجد »[٥] ، ومن الذين اشتهروا بهذا الفن الحربي الدقيق وحشيٌّ الحبشيُّ الذي قتل حمزةَ برمحهِ النافذِ في يوم أحد [٦].

وأشيرُ في هذا السياقُ إلى ما رواه أبو الفرج الأصفهاني من شعر ذكر أنّه قديمٌ ،وهو في هجاءِ قريش ووصفِ السود بالقوة وعظمة المناكب وهذا الشعر هو :

فَضَحْتُمْ قُرَيْشاً بالفِرارِ وأَنْتُمْ قُمدُوُنَ سُودَانٌ عِظَامُ المَنَاكِبِ [٧]

فَأَمَّا القتالُ فَلاقِتَالَ لدَيْكُمُ وَلكنَّ سَيْراً في عِرَاضِ المَوَاكِبِ

ويستنتجُ أحدُ الباحثينَ من هذا «أنّ الأحباشَ كانوا يؤلفون كتائبَ سوداءَ في الجيشِ العربي وهي تشبه كتائبَ السودانِ في الجيوش الأوروبية اليوم »[٨] وفي هذا القول مبالغة واضحة ، وشطط بعيد وهو لا يستند الى أدلة شعرية أو تاريخية ، فالبيتان السابقان لا يدلان على أن الأحباش كانوا يؤلفون كتائب عسكرية منظمة

---

(١) ديوانه ضمن دراسات في الأدب العربي ، ص ٣٤٤ .

(٢) الرَّهِلُ : من الفعل رَهِلَ : وَرَهِلَ لحمه : استرخى من غير داءٍ . والزَّوْرُ : وسَطُ الصدرِ .

(٣) البَوْعُ : مسافة مابين الكفينِ إذا بسطتهما والجمع : أبواع .

(٤) المنمق ، ص ٧٠ .

(٥) ابن حجر العسقلاني ، فتح الباري بشرح البخاري ، ١ : ٥٤٩ ، ٢: ٤٤٠ .

(٦) انظر ترجمته في طبقات ابن سعد ، ١: ٨٣ .

(٧) الأغاني ، ١ : ٤٩ . والقُمُدُّ : القوي الشديد .

(٨) الأب لامنس اليسوعي ، الأحابيش والنظام العسكري في مكة زمن الهجرة ، مجلة المشرق ، السنة ٣٤ ، كانون الثاني ١٩٣٦، ص١٨ .

سوداء ، وإنما كان الحال أن يستعين السادة أحياناً بعبيدهم الأحباش ، خاصة أنهم يتقنون الرمي بالرماح والضرب بالحراب ، فإذا كانت الجيوش العربية أو المحاربون العرب غير منظمين في أكثر غزواتهم وحروبهم ، فكيف يمكن أن يكونَ للأحباش فرقٌ منظمةٌ في حروب العرب مع الأقوام غير العربية ، أمّا ما كان يحدثُ من غاراتٍ بين القبائل العربية فهي تعتمد الرجال الأشداءَ من تلك القبائل ، وكان ذلك مصدر فخر أولئك الرجال المغيرين أو المغار عليهم ،أما العبد فهو لا يعرف الكرَّ و الفرّ كما يُروى ذلك عن عنترة ، وقبلَ ذلك وبعده فالمحارب ينبغي أن يكون فارساً متمرساً على ظهور الخيل ، وهذا ضرب من الفن الحربي كانت العرب تدرب أبناءها عليه ، ولا يؤثر أنها كانت تدرب عبيدها عليه ، لأن العبيد لا وقت لديهم كي يتدربوا على هذا النوع من الفروسية فثمة صوارف أخرى من الأعمال تصرفهم عن ذلك .

ويبعد الأب لامنس اليسوعي أكثر من ذلك في قوله : إنه لا يخطيء إذا اعتبر كل الحبش الذين حاربوا في بعوث قريش في بدر وأحد من أولئك الأحابيش النظامين ،وفي رأيه أن مؤرخي المغازي يضنّون على أولئك القوم بهذه الصفة [١] ، وهذا ضرب من التجني على التاريخ والموضوعية فالباحث أراد المخالفة لحاجة في نفسه فخالفه الصّوابُ والحقُ .

(١) المرجع السابق ، ص ٢١ .

٦

صورة الحبشيات

أمّا صورةُ الحبشيات فهي صورة توحي بأوصافٍ لا تتفقُ ومظاهرَ الجمالِ وأسبابَهُ التي تبدو جلية في الشعر العربي فلم يتركِ الشعراءُ مِنَ المرأةِ جُزءاً إلا وصفوه ، فكانَ وصفُ المرأة والتغزلُ بمظاهر حسنها باباً وقف عنده أكثرُ الشعراء، وجُلُّ هذا الوصف في الشعر الجاهلي كان بالمرأة العربية ، فلا يوجد ثمة شعرٌ يصف المرأة غير العربية ، وليس هنالك شعر يظهر فيه شيء من الغزل بهؤلاء النساءِ ومِنَ البديهي أن لا يكونَ هناك شعرٌ في وصف الحبشيات بالجمال أو وصف الجمال بهنّ فَجلُّ أشكالهن وأوصافهن يتعارض مع أشكال وأوصاف المرأة العربية ، فالتضاد موجود ولاسبيل إلى الجمع بينهما في دائرةِ الجمال ،ينضافُ إلى هذا أن الحبشيات كنّ إماءً لا ينجبْنَ إلا عبيداً ولو كانَ المنجَبُ من أبٍ عربي ، فلا سبيل كذلك للجمع بين الإماء الحبشيات والحرات العربيات في دائرةِ الحريةِ والمساواة، وقد وصف عنترةُ أمَه وصفاً لا يخلو من صواب كثيرٍ في صورة دقيقة ومعبرة عن المرأة السوداء يقول عنترة [١] :

وأنَا ابنُ سَوْدَاءِ الجبين كأنّها ... ضَبُعٌ ترْعرَعَ في رُسوم المنزلِ

السَّاقُ مِنها مِثْلُ سَاقِ نعامَةٍ ... والشعرُ منهامِثلُ حَبِّ الفُلْفُلِ

والثَّغْرُ مِنْ تحتِ اللِّثام كأنّهُ ... بَرْقٌ تلألأ في الظَّلامِ المُسْدَلِ

فأم عنترةَ سوداءُ الوجهِ وهو كوجه الضبع ، لو رأيته لوليتَ منه فِراراً ، وإذا ما نظرتَ إلى ساقها فهو كساقِ النعامةِ دقةً ونحافَةً ، أمّا شعرُها فهو كحبِّ الفُلفُل فهي سَوادٌ في سواد لا ترى شيئاً غير هذا اللون إلا حينما تنفرجُ شفتاها عن أسنانها فترى وَمِيْضاً مِنْ البياضِ في هذا السَّواد ، وكأنه برقٌ لاحَ في مدلهم الظلام، فهي صورة تبعثُ على الرهبة منها والزهد فيها ، فقد أبْعَد عنها النُّضَارةَ والبشاشةَ وَحُسْنَ الطالع .

وثمة وصف أخر يبين لنا زهدَ العرب فيهن لبشاعة مناظرهنّ كما يقول الأعشى في وصف ليلة باردةٍ [٢] :

وإذا اللِّقاحُ تَروَّحَتْ بِأصِيلَةٍ ... رَتْكَ النَّعامِ عيشيَةَ الصُّرَادِ [٣]

جَرْيَاً يلوذُ رِبَاعُهَا مِنْ ضُرِّها ... بالخيمِ بينَ طَوَارِفٍ وهَوَادي [٤]

---

(١) شرح الديوان ، ص ١٧٢ .

(٢) الديوان ، ص ١٣٣ .

(٣) رَتْكُ النعامِ : عدو في مقاربة الخطو . وعشيةُ الصُّرادِ : ليلةٌ باردة.

(٤) الرباع : جمع ربع وهو ولد الناقة في أول الانتاج . والطوارف من الخباء : ما رفعت من جوانبه للنظر إلى الخارج . والهوادي : جمع هادٍ و هو: العمود في مقدم الخباء .

حَجروا على أضيافهمْ وَشَوا لهم مِنْ شَطْ مُنْقِيةٍ ومِنْ أكبادِ [١]

وإذا القِيانُ حَسِبتَها حَبَشَةً غُبْراً وَقَلْ حلائبُ الأرفَادِ

ففي هذه الليلةِ الباردةِ ذات العواصف التي تحمل معها الخوفَ والموتَ أحياناً ، يجف اللبن في ضروع النوق ، ويقلُ الطعامُ ، فتصفرُّ وجوهٌ ، وتسودُّ وجوهٌ ، ومن هذه الوجوهِ وتلك ، قيان كنَّ يطربنَ القومَ بشجوهن ورقصهن ، ولو نظرت إليهن بعد هذا الكربِ ، ولو رأيتَهُنَّ بعد هذه الكارثةِ ، وقد أخذ الفزعُ منهن مأخذهُ لرأيت وُجُوهاً وَجِلةً مُضطَرِبَةً ومغبرةً تحاكي وجوه الحبشيات وما يعرف عنهن من منظر لا يزيدك إلا رعباً وبعداً ، ولعل تشبيه القيان بالحبشيات يستنتج منه أن هؤلاء كنَّ مغنيات فقد ذكر بيرون « أن معظم المغنين كانوا عبيداً ، وأن جميع العبيد قبل الدعوة المحمدية كانوا على درجة الإجمال من الحبش أو الزنوج ، ولا يبعد أن تكون القينتان المشهورتان باسم جرادتي عاد – ولا يزال لأغانيهما بقية مروية – فتاتينِ حبشيتينِ » [٢]

٧

حملةُ أبرهة وأصداؤها في الشعر الجاهلي

من الأحداثِ التاريخية التي يتفق المؤرخون على أسبابها وتجليات تطوراتها ، وما آلتْ إليه نتائجها حملةُ أبرهة وجيشه الحبشي ، فقد روى هؤلاء المؤرخون [٣] أنّ أبرهة الأشرم ملك اليمن من قبلِ النجاشيِّ بنى كنيسة بصنعاءَ وسماها القُلَيْس وأراد أنْ يصرف إليها الحجَ فخرج رجل من كنانةَ أفزعه هذا الأمر ، فأحدث فيها ، فحلف أبرهةُ ليهدمنَّ الكعبة فخرج بالحبشةِ ومعه فيل له اسمه محمود ، وكان قوياً عظيماً ، واثنا عشر فيلاً غيره ، وقيل ثمانمائة ، وقيل كان معه ألف فيل فلما بلغ المغمَّسَ [٤] خرج إليه عبد المطلب ، وعرض عليه ثلث أموال تهامة ليرجع فأبى وعبأ جيشه وقدم الفيل ، فكانوا كلما وجهوه إلى الحرم برك ولم يبرح مكانه ، وإذا وجهوه نحو اليمنِ أو الشامِ هرولَ ، فأرسل اللهُ طيراً مع كل طائرٍ حجر في منقاره ، وحجران في رجليه ، أكبر من العدسة وأصغر من الحمصة ، ففرُّوا فهلكوا في كل طريق ومنهل ، وفي أمر هذا الحدث التاريخي يقول الله تعالى :«ألمْ تَر كيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأصْحَابِ الفِيْل • ألمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ في تَضليْل»

---

(١) الشَّطُ : جانب السنام أو نصفه .

(٢) عباس محمود العقاد ، داعي السماء بلال بن رباح ، ص ١٦٧ .

(٣) انظر : الأخبار الطوال ، ص ٦٢. السيرة النبوية ، ١ : ٣٩ ، ٤٠. تاريخ الطبري ، ٢: ١٣٢ – ١٣٩. الأغاني ، ١٧ : ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢. البداية والنهاية ، ٢ : ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢. أنساب الأشراف ، ص٦٧. أخبار مكة المشرفة ، ص ٨٨ – ٩٣ .مروج الذهب ، ٢: ٨٤ . الكامل في التاريخ ، ١: ١٧٨ ، ١٧٩ . الكشاف، ٤:٧٩٧. الأصنام ، ص ٤٧ . نشوة الطرب ، ١ : ١٥٩ .

(٤) المغمس : موضع قرب مكة في طريق الطائف .

وَ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ • تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سَجِّيلٍ • فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ»[1] واتفاق المؤرخينَ على السبب المباشر لحمله أبرهة ؛ وهو قصة تدنيس (القُلْيس) قدْ يكونُ حقيقةً وقعت وحدثت ، وقدْ يكونُ أسطورةً حيكتْ ووضعتْ [2] ، ولكن الذي لاشك فيه أنّ هذه الحملة قدْ وقعتْ وحدثتْ وأنها كانت مزمعة على هدم الكعبة وتدنيسها ، ولا ريبَ أنّ هذه الحملة الحبشية على أرض العرب ووصولها إلى مكةَ كانت زمناً جديداً ، وحدثاً خطيراً في تاريخ العرب في العصر الجاهلي ، ومرآة تعكس مايعجُّ به المكانُ العربي من ضعفٍ وترهلٍ وانقسامٍ أمامَ هذا الخطب الكبير بعد أن ناء بكلكلهِ على ذلك الجزء الجنوبي من الجسم العربي .

ولا غرو أن الشعرَ في العصر الجاهلي كان مصدراً إخبارياً وإعلامياً عظيمَ الشأن ولساناً يذبُّ عنْ أنسَاب القبيلة ووقائعها وأيامها ، فقد بنى الشعر لقوم بيوتا شريفةً وهدّمَ لآخرين أبنية منيفةً ، وقبل ذلك وبعده كان يتأثر بالواقع الاجتماعي وأحداثه ، وكان يؤثّرُ في النفوس فيوجّهُ المشاعرَ ويوحد الأهواء وما ذكرت هذا الحديث الموجز عن مكانة الشعر والشعراء إلا لمحاولة البحث في الشعر الذي تناولَ الحملة الحبشية من قريب أو من بعيد لنرى أصداء هذه الحملة في الشعر إبّان العصر الجاهلي ، وهل استطاع الشعراء الجاهليون أن يلجوا بشعرهم قلبَ الحدث الخطير فيخرجوا برؤية ممتدة وشاملة للمكان والزمان والإنسان والأحداث .

وفي دراسة فاحِصَةٍ وشاملةٍ لهذا الشعر المرويّ عن حملة أبرهة يمكن حصره في ثلاثةِ مظاهر :

أولها : وصفُ أبرهةَ وجيشهِ ، وهو وصف لا يخرجُ عن المحاكاة والتصوير الخارجي ، والتهويل من شأنه أحياناً ، وهو وصف ذو رؤيتين ثنتين ؛ رؤية تصف مقدم أبرهة وجيشه ، والثانية تصف ما أنزله الله بهم من عَذاب ، وخروجهم من مكة منهزمين يجرون ذيل الخيبةِ والفزع ، ومن الشعر الذي وصف مقدم أبرهة والجيش الحبشيّ قولُ كُلثُوم بن عَمْيس من بني عامر بن عبد مناة ، وأخذه الأشرم وكبّله عنده فقال وهو في الحديد [3] :

ألا لَيْتَ إنّ اللهَ أسْمَعَ دَعْوَةً ... وأرْسَلَ بينَ الأخْشَبَيْنِ مُنَادِيا

أتتكُمْ جُمُوعُ الأشْرَمِ الفيلُ فِيهِمُ ... وَسُوْدُ رِجَالٍ يركبونَ السَّعَالِيا [4]

وَرِجْلٌ جِسَامٌ لايُكتُّ عَدَدِيُهم ... يهزونَ واللاتِ الحِرابَ الصَّوادِيا

أتوكُمْ أتوْكُمْ تبْشَعُ الأرْضُ مِنْهُمُ ... كما سَالَ شُؤْبُوبٌ فأبْشَعَ وَادِيا

---

(١) سورة الفيل .

(٢) يذهب الدكتور جواد علي : إلى أنّ حملةَ أبرهة كانتْ خطةً ترمي إلى ربط اليمن ببلاد الشام لجعل العربية الغربية والعربية الجنوبية تحت حكم النصرانية وبذلك تستفيد الروم والحبشُ وهم نصارى وإن اختلفوا مذهباً، ويحققون لهم بذلك نصراً سياسياً واقتصادياً كبيرا (المفصل ٣: ٥١٧).

(٣) المنمق ، ص ٧٠ .

(٤) سمي أبرهة الأشرم لضربة شرمت وجهَه وأنفَه من منافسه على حكم اليمن أرْيَاط إبان احتلال الأحباش لها ، انظر الأغاني ، ١٧ : ٢٢٧. أخبار مكة المشرفة ، ص ٩٧ .

فهذا وصف لجيش أبرهة ، فهو جيش عرمرم ، كثير العدد ، سود الوجوه فمنهم الفرسان الذين كأنهم يركبونَ الأغوال ، ومنهم من يمشي على قدميه ، فهم شرٌ كالمطر الشديد الذي ملأ الأوديَةَ والبطاحَ ، فقد ضاقتِ الأرضُ بهم ، وأقبلوا يحملون سلاحهم الذي يتقنونَ استخدامه فكانت حرابهم تنتفضُ في أيدهم ، وهي عطاش لايرويها إلا الدم المُهراق ، وهذه الصورة لاريب تبعث الرعب والرهبة في قلوب القرشيين ، ولكن الشاعر أراد تحذيرَ القوم كي يخفوا وينفروا لملاقاة هذا الجيش الذي أفزع الشاعر كثيراً ، ورُوِي أن الأشرمَ دعا قيسَ بنَ خُزَاعي فقال له : امدحْني واذكرْ مسيري فقال [١] :

حيِّ الـــمُدَامَ وكـــأسَها ... للأشرم الملك الحُلاحِلْ [٢]

أنبئـــتُ أنّك قـــدْ خرَجْتَ ... فَقُلتُ ذِكرٌ غيرُ خَامِلْ

أولادُ حَبْشَـــةَ حَوْلَهُ ... مُتلحِّفونَ عَلـــى المرَاجِلْ [٣]

بِيضُ الوجـــوهِ وسودُها ... أشعـــارُهُم مِثْلُ الفُلافِلْ

فقيس في هذه الأبيات يمدحُ أبرهةَ الملكَ الشجاعَ ويمدح أبناء جنسه الأحباش أصحاب الوجوه السوداء ، وكأن شعرهم حبُّ الفلفل ، ففي جمعهم هذا تتكشفُ القوةُ ،ولكنها لا تحمل إعجاباً بهم ، فالشاعر يصفهم كما هُمْ ، ولعل قوله بيض الوجوه يُوحي بالسخرية والتهكم ، فهي لذلك تذكرنا بكافوريات المتنبي التي ينبيءُ ظاهرها بالمدح ، ولكن باطنها ينبيءُ أيضا بالهجاء والسخط .

ومن هذا لشعر قولُ عبد المطلب يصف جيش أبرهة بالأُسْدِ [٤] :

يا أَهْلَ مكةَ قدْ وافاكُمُ مَلِكٌ ... مَعَ الفيولِ على أنيابِها الزَّرَدُ

هذا النجاشيُّ قدْ سَارَتْ كتائبُهُ ... مَعَ الليوثِ عليها البيضُ تتقدُ

يُريدُ كعبتكم واللهُ مَانعُه ... كمنع تبَّعَ لما جَاءَها حردُ [٥]

أمّا ما روي من شعر في انهزام الأحباش وهم مدبرون عن مكة بعد ما نزل عليهم من البلاء ما نَزَلَ وحَلَّ بهم من الغضب الإلهي ما حلَّ كما ذكر ذلك القرآن الكريم وأهل التاريخ فمنه قول عمرو بن الوحيد بن كُلاب [٦] :

---

(١) المنمق ، ص ٧٠ .

(٢) الحُلاحِل : بضم الحاء الأولى وكسر الثانية : السيد في عشيرته والشجاع ، جمعه : حَلاحِل بفتح الحاء الأولى .

(٣) المراجل : جمع مِرْجَل وهو : برد من اليمن .

(٤) مروج الذهب ،٢ : ١٢٨ .

(٥) الحرد :القصد .

(٦) المنمق ، ص٧٧ .

سَطا اللهُ بالحُبْشَانِ والفيلِ سَطوةً ... أرى كلَّ قلبٍ واهياً فهو خائفُ

ويومَ ذُبابِ السيف كان نذيره ... ويَومٍ على جَنبِ المغمّسِ كاسفُ (١)

أميرُهُمُ رَجْلٌ مِنَ الطّيرِ لم يكن ... نِقافاً لها بينَ الحجارةِ واكفُ (٢)

كأنَّ شآبيبَ السُّماءِ هويّةٌ ... وقد أشْعَلتْ بالمجلبينَ النَّفائفُ (٣)

ندقُّهُمُ مِنْ خلفِهم وأمَامهم ... وعارَضهم فَوْجٌ مِنَ الرِّيح قاصِف

يخالُنُهُمْ أنفاسهم ونفوسهم ... ولم ينجَ إلا التابعونَ الرَّوادفُ

كأنّهُمُ غِبَّ العِقابِ هَشِيْمةٌ ... مِنَ الصيفِ تذريهِ الرياحُ الرَّفارِفُ (٤)

وكانَ شفاءً لو ثوى في عقابها ... نُفَيْلٌ وللآجال آتٍ وصارِفُ (٥)

فرد نفيل بن حبيبٍ على عمرو بن الوحيد يصف ما فعلت الطير بجيش أبرهة فيقول (٦) :

ماذا يُرِيْكَ عِقابي لو ظفرتَ بِهِ ... يا ابنَ الوحيدِ من الآياتِ والعِبَر

قُلنَا المغمسُ يوماً ثُمَّ ليلته ... في عَالجٍ كثؤاج النيبِ وَالبَقَرِ (٧)

حتَّى رَأينَا شُعاعَ الشَّمسِ تسترُهُ ... طيْرٌ كرجل جرادٍ طارَ مُنْتَشِرُ

يَرمِينا مقبلاتٍ ثُمَّ مدبرة ... بحاصبٍ مِنْ سَوادِ الأفقِ كالمطرِ

وأشعلَ الحبشُ لا تلويْ على أحدٍ ... وَعارَضتْنا زحوفُ الرِّيح عن يُسُرِ (٨)

كبّاً لأذقانِنا والريحُ تدبرُنا ... لا نتّقي الشَّر مِنْ رِيحٍ ولا حَجَرِ

فَزَلَّ مِنّا شَديدٌ لاطَبَاخَ به ... وماتَ أكثرُ ذاكَ الجيشِ بالعُسُرِ (٩)

كأنّهُمْ نَجَلات الضَّأنِ نائمة ... وبالمتونِ مِنَ الحبشان كالدُّبَرِ (١٠)

---

(١) الذُباب : جبل بالمدينة .

(٢) النِقافُ : المضاربة بالسيف . والواكفُ : الشديد ، والذي يتعهدُ قومَه في الحرب وينظر في أمورهم .

(٣) يعني بالمجلبين جيش الحبشة . والنَّفائفُ : جمع نَفْنَفٍ ، وهو المهوى بين الجبلين .

(٤) الهشيمة: الشجر البالية . والغِبُّ : عاقبة الشيء ، شبه الأحباش بعدما نزل بهم العقاب بالهشيمة .

(٥) هو نفيل بن حبيب الخثعمي ، وقد عرض لأبرهة في قبيلة خثعم ومن تبعه من قبائل العرب فقاتل أبرهة فهزم ، فأخذ لأبرهة أسيراً ، فلما همّ أبرهةُ بقتله قال له نفيل : أيها الملك لا تقتلني فإني دليلك بأرض العرب ، فخلى سبيله .

(٦) المنمق ، ص ٧٨ .

(٧) الثؤاج : الصياح .

(٨) أشْمَلَ :تفرّق .

(٩) الطِّباخ : القوةُ والإحكام .

(١٠) النَجَلات : جمع نَجْل وهو الولد أو النسل .

ويبدو أن نُفيلاً ندم على مساعدة الأحباش ، وتفريطه في حق قومه فقال حينما خرج الأحباش من مكةَ هاربين يتدرونَ الطريق الذي جاءوا منه ، وأخذوا يسألون عنه ليدلهم على الطريق إلى اليمن :

ألا حُييتِ عنّا يَارُدَيْنا ... نعمناكمْ مَعَ الإصباح عَيْنا (١)

رُدَيْنَةُ لو رأيتِ ولم تَرَيْهِ ... لدى جَنْبِ المحصَّبِ ما رأينا (٢)

إذاً لعذَرْتني وحمدْتِ أمْرِي ... ولمْ تأسيْ عَلى مَا فَاتَ بَيْنَا (٣)

حمدْتُ اللهَ إذْ أبْصَرْتُ طيراً ... وخفتُ حجارةً تُلقَى علينا (٤)

وكلُّ القومِ يَسألُ عَنْ نُفَيْلٍ ... كأنّ عَليٌّ للحُبْشَانِ دَيْنا

وَمَا كانتْ دلالتُهمْ بِزَيْنٍ ... ولكنْ كانَ ذَاكَ عليَّ شيْنا (٥)

وبعد أن رأى العربُ ما حلَّ بأبرهة وجنْدِهِ بأمِّ أعينهم كان لا بدَّ أن يتقنوا دورَ المتفرج الشامت الذي تغالبه الفرحة ونشوة النصر الإلهي دون أن يكون له حول ولاقوة ، فقال نفيل على لسان أولئك الناظرين المنتظرين يخاطب الأحباش :

أيـنَ المـفـرُّ والإلهُ الطـالـبْ ... والأشرمُ المغلوبُ ليسَ الغالبْ (٦)

فلا مناص من تلك الطير الرامية بالحجارة الحامية ، ولا محيص من تلك الرياح العاصفة بالسموم العاتية، فلا عاصم في ذلك اليوم يعصمهم من أمر الله ،فلا ملجأ في ديار العرب يلجأون إليه، ولا رُكناً يأوون إليه في بلادٍ تلفظهم لفظاً .

وهذا عبد الله بن الزِّبَعْرَى يصف مكة التي استعصت على الأحباش كما استعصت من قبلهم على الغزاة فلم يروموا حريمَها ، يقول ابنُ الزِّبَعْرَى (٧) :

---

(١) نظر السيرة النبوية ، ١: ٤١ . أخبار مكة المشرفة ، ص٩٧ . البداية والنهاية ، ٢ : ١٦٢. الكامل في التاريخ ، ١ : ١٨٠ . تاريخ الطبري ، ٢: ١٣٦. وفي المنمق ، ص ٧٩ : وقري بالإياب إليك عينا .

(٢) وفي المنمق ، ص ٧٩ : فلو أبْصرتنا والجيش يرمي ... بحسبانٍ رثيتِ لنا رُدَيْنا

وفي العقد الفريد ، ٣: ٣٠٤ : فإنكِ لو رأيتْ ولم تَرَيْهِ ... لدَى جَنب المحصبِ ما رأينا

(٣) وفي العقد الفريد ، ٣: ٣٠٤: إذا لم تفرحي أبداً بشيءٍ ... ولمْ تأسَي على ما فاتَ عَيْنا

(٤) والشطر الثاني في المنمق ، ص ٧٩ : وَسَفْيٌ حجارة ترمي علينا. وفي العقد الفريد ، ٣: ٣٠٤ : وحُصْبَ حجارةٍ تُرْمى علينا . وجاء بعد هذا البيت في المنمق ص ٧٩ :

وأمْطِرَنا بلا ماءٍ ولكنْ ... عذابُ نقيمةٍ أرْدَفْنَ حينا

(٥) هذا البيت لم يرد إلا في العقد الفريد ، ٣ : ٣٠٤ .

(٦) انظر : السيرة النبوية ،١: ٤٧. تاريخ الطبري ، ٢: ١٣٦ . أخبار مكة المشرفة ، ص ٩٧ .

(٧) السيرة النبوية ، ١: ٥٠ ، ٥١ . البداية والنهاية ، ١ : ١٦٢ .

تنكّلوا عَنْ بَطْنِ مَكةَ إنّها كانتْ قَديماً لا يُرامُ حَريمُهَا
لم تخلقِ الشّعرى ليالى حُرِّمت إذْ لا عَزِيزَ مِنَ الأنامِ يرومُها
سَائلْ أميرَ الجيْشِ عنْهَا ما رأى ولسوفَ يُنبي الجاهلينَ عليمُهَا
ستونَ ألفاً لمْ يئوبوا أرضَهُمْ ولمَ يَعِشْ بعدَ الإياب سقيمُها
كانتْ بِها عَادٌ وجُرْهُمُ قَبْلهُمْ واللهُ منْ فَوْقِ العِبادِ يُقيمُهَا

ويصف أبو قيس بن الأسلت هروبَ الأحباش بقوله [1]:

فَوَلَّوْا سِراعاً هارِبِينَ ولمْ يؤب إلى أهلهِ مِلحْبشٍ غيرُ عَصَائِبِ

أمّا **المظهر الثاني** للشعر الذي قيل في حملة أبرهة فهو في وصف الفيل الذي جاء به الأحباشُ لهدم الكعبة ، وقد خذل ذلك الفيل قومَه ، فحينما وجهوه إلى مكة برك ، وإذا وجهوه راجعاً إلى اليمن قام يهرول وإذا وجهوه إلى الشام يفعل مثل ذلك فقال في هذا أميةُ بنُ أبي الصّلتِ [2] :

ومن صنعهِ يَوْمَ فيلِ الحُبُو ش إذْ كُلّمَا بَعثُوهُ رَزَمْ [3]
محاجِنُهُمْ تحتَ أقْرَابِهِ وقد شَرَمُوا جِلْدَه فَانْشَرَمْ [4]
وَقَدْ جَعلوا سَوْطَهُ مِغْوَلا إذا يَمّمُوهُ قَفاهُ كلِمْ [5]
فَوَلّى وأدْبَرَ أدْرَاجَهُ وَ قَدْ بَاءَ بالظلمِ مَنْ كانَ ظَلَمْ

ويقول أميّةُ كذلك [6] :

إنَّ آياتِ رَبنا ثاقباتٌ ما يُماري فِيهِنَّ إلا الكفورُ
خَلقَ الليلَ والنّهارَ فكلٌّ مستبينٌ حِسَابُهُ مَقْدُورُ
ثم يجلو النّهارَ رَبٌّ رَحِيمٌ بِمَهَاةٍ شُعاعُها منْشُورُ [7]
حَبَسَ الفيلَ بالمغَمّسِ حَتى ظلَّ يحبو كأنّهُ مَعْقُورُ

---

(١) السيرة النبوية ، ١ : ٥٢ .
(٢) الديوان ، ص ٤٩٥ .
(٣) رزم : ثبت في مكانه ولزمه لايبرحه .
(٤) المحاجنُ : جمع مِحجن ، وهو العصا المعوجة . والأقرابُ : جمع قُرب وهو الخاصرة .
(٥) المِغْوَل : حديدةٌ تجعل في السوط.
(٦) الديوان ، ص ٣٩٢ ، ٣٩٣ .
(٧) المَهاة : اسمٌ مِنْ أسماءِ الشمس وسميت بذلك لصفائها .

لازماً حلقة الجِرانِ كما قـ ... ـطُرَ مِنْ صخرِ كبكبٍ مَحْدُورُ [١]

حَولهُ مِنْ ملوك كندة أبطا ... لٌ ملاويثٌ في الحروب صُقورُ

كلُّ دينٍ يوم القيامةِ عِنْد ... اللهِ إلا دِين الحنيفةِ بُورُ

وذكر الطفيل الغَنَوي [٢] في بيت له المكان الذي عصى فيه الفيل أصحابَه ، فعصيان الفيل هو آية من آيات الله الثاقباتِ .

أمّا **القسم الثالث** من الشعر الذي تناول حملة الأحباش فهو : ما رُوي لعبد المطلب بن هاشم يتوجه فيه إلى ربِّ البيت كي يحميه ويسأله أنّ يردَ الأحباش ويصدهم عن الكعبةِ بَعْدَمَا رأى أن لاطاقة لقومه بأبرهةَ وجنوده، فهو سيدُ مكةَ وكبيرها فليس له إلا أن يدعوَ الله ، ومن هذا الدعاء الشعري والشعر الدعائي قوله وهو آخذٌ بحلقةِ باب الكعبة [٣] :

يارِبِّ لا أرْجو لهُمْ سِوَاكا ... يارِبُّ فامنع مِنهُمُ حِمَاكا

إنَّ عَدُوَّ البيتِ مَنْ عَاداكا ... امنعهُمُ أنْ يُخْرِبُوا قُراكا

ومن ذلك قوله [٤] :

لا هُمَّ إنَّ العَبْدَ يَمْـ ... ـنَعُ رَحلَـــه فامْنَعْ حِلالكْ [٥]

لا يغـــــلبنَّ صَلِيبُهمْ ... وَمِحالُهُمْ غَدْوًا مَحالـــــكْ [٦]

فَلئِـــنْ فَعَلْـــتَ فَرُبَّمَا ... أوْلى فأمْرٌ ما بدا لكْ [٧]

ولئـــــن فعلـــتَ فإنّه ... أمْرَتْتُمُ بـــــه فعـــــالكْ

جَرّوا جمـــــوعَ بلادِهِمْ ... والفيلَ كي يسْبُوا عِيالكْ

عَمَدُوا حِمـــــاكَ بكيدِهِمْ ... جَهْلاً وَمَا رَقَبُوا جَلالكْ

---

(١) الجِران : العنق . والكَبْكب : اسم جبل . والمحدور : الذي حدر من جبل .

(٢) ديوانه ، ص ٥٦ .

(٣) تاريخ الطبري ، ٢: ١٣٤ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٣٥ . السيرة النبوية ، ١: ٤٥ . أخبار مكة المشرفة ، ص ٩٦ . البداية والنهاية ، ٢ : ١٦٠ . الكامل في التاريخ ، ١: ١٧٩.

(٥) الحِلال في البيت : المقيمون فيه .

(٦) غدواً ، أي غدا . والمِحَال : القوة والشدة .

(٧) في السيرة ، ١ : ٤٥ . والبداية والنهاية ، ٢ : ١٦٠ « إن كنت تاركهم وقبلتنا فأمْرٌ ما بدالك» وقال ابن هشام بعد هذه الأبيات الثلاث: هذا ما صحّ له منها ، ولم يذكر إلاها (السيرة النبوية ، ١ :٤٥).

وقال أيضاً [١] :

وكنتَ إذا أتى باغٍ بسِلمٍ ... نُرَجِّي أنْ تكونَ لنا كذلكْ

فولوا لم ينالوا غَيْرَ خِزيٍ ... وكانَ الحَيْنُ يهلكهمْ هنالكْ

ولم أسْمَعْ بأرجسَ مِنْ رِجَالٍ ... أرادوا العِزَّ فانتهكوا حَرامكْ

فهذا جلُّ الشعر الذي قيل في حملةِ أبرهة الأشرم ، منه ما يصفُ أبرهة وجيشَهُ ومنه ما يصف الفيل الذي أتَوا به في حملتهم ، ومنه ما يلمس فيه الدعاء وطلب النصرة من الله ، وأطلقت عليه الدعاء الشعري أو الشعر الدعائي.

وهذا الشعر الذي قيل في هذه الحملة الحبشيةِ لا يخرجُ من الناحية الشكلية عن أن يكون أبياتاً قليلة أو مقطوعاتٍ قصيرة ، فلا توجد قصيدة كاملة في شأن هذه الحادثة ، ولا يوجد كذلك قصيدةٌ نهج صاحبُها فيها منهجَ شعراءِ الجاهلية ؛ تبدأ بالوقوف على الأطلال ، والنسيب ، ووصف الرحلة لتنتهي بالغرض الذي ينشده الشاعر ، فهو شعر لا يعطي صورة كاملة شاملة شافية لأولئك الأحباش فلم نرَ تصويراً للأحباش ينبجسُ مِنْ نفسِ الشاعرِ ورؤيتِهِ الذاتية و القبلية لهذا الحدث ، ولم يظهر كذلك أثر هذه الحملة في تغير الواقع، وبلورة الوعي العربي بقبائلهِ المختلفة نحو التحدي الخارجي الذي يستطيع أن يتجاوز الطرف الجنوبيَّ من شبه الجزيرة العربية ليصل إلى مكةَ بعد أن سيطر على اليمن حقبة من الزمن ولم يحدثنا هذا الشعرُ أيضاً عن أسباب قدوم الحملة وعن أهدافها وعن مسيرها ، فهل أعدَّتْ الحملة إعداداً منظماً ومحكماً ؟ وهل كانت مخططة من قبل الأحباش أنفسهم ؟ أم أنها كانتْ جزءاً من المخطط النجاشي الحبشي ؛ والقيصري الروماني لنشر الديانة المسيحية والتبشير بها في ديار العرب ، وجعل الكعبة كنيسة يحجها العرب من بعد تحطيم ما حولها من الأصنام والأوثان ليتم بذلك القضاء على الوثنية، وإذا تم ذلك فإن العرب سيكونون حماة النصرانية ومن ثم يكونون حاجزاً عصياً أمام أطماع الإمبراطورية الفارسية من ناحية وعوناً كبيراً للإمبراطورية الرومانية حامية المسيحية في صراعها التاريخي المرير والطويل مع الفرس في الشرق من ناحية أخرى ، وبالتالي تؤمنُ الإمبراطورية الرومانية طرقها التجارية في بحر القُلْزم، والبحر العربي من العابثين ، وهذا يجعلها تدخل في سباقٍ مع الفرس في السيطرة على خليج فارس ، بعد أن تَفتَحَ الأسواقُ العربية أبوابها أمامَ المنتجات الرومانية وما كانت مساعدة الفرس لسيف بن ذي يزن إلا رداً مخططاً له على حملة أبرهة لدرء الخطر الروماني عن بلاد العرب المجاورة وهو دفع للأخطار المنتظرة عن الحدود الغربية للدولة الفارسية ، إذن فقد كانت شبهُ الجزيرة العربية منطقة مهمة تتنافس عليها الدول المجاورة تنافساً شديداً ، والدارس لا يجد شيئاً من

(١) انظر تاريخ الطبري ، ٢ : ١٣٥ .

ذلك في هذا الشعر الجاهلي الذي روي عن الحملة الحبشة ، ولا نجد كذلك حديثاً أو ذكراً لموقف القبائل العربية القاطنة في الشرق والشمال الشرقي من هذه الحملة ومن أهل مكة وما حولها ، وهذا الشعر لم يحدثنا كذلك عن موقف الدولتين العربيتين ، دولة الغساسنة التابعة للروم ودولة المناذرة الموالية للفرس ، وهذا الشعر لم يصف لنا كذلك عادات الأحباش ، وطقوسهم الدينيةَ ولغتهم ولباسَهم ، وهو كذلك لايصف الشعور العربي بعدما انجلى غُبار الحملة، وانطفأت جذوتها .

وبعد هذا وقبله فهو شعر ينسب لطائفةٍ لم يذكر التاريخ الأدبي أنهم من فحول الشعراء مثل عبد الله بن الزِّبَعْرَي ، وأمية بن أبي الصلت ونفيل بن حبيب وعبد المطلب ، وهو شعر ذو رؤيةٍ إسلاميةٍ يكاد يكون مفسراً أو موضحاً لما ورد في سورة الفيل من آيات تبين قدرة الله على حماية الكعبة وما أنزله بالأحباش من عذاب شديدٍ بواسطة الطير ، ولا أريد أن أقول : إنه شعر منتحل وضعه الرواة والقصاصون في العصور الإسلامية الأولى ، ولكن أزعُم أنه شعر قريب من دائرة الانتحال إذا لم يكن فيها .

وثمة سؤال بَعْدَ هذا الحديث ليس بدٌّ من سؤاله ونحن ندرس أصداءَ الحملة الحبشية في الشعر الجاهلي، والسؤال هو : لماذا لا نجدُ لهذه الحملة أصداءً عند الشعراء الكبار وفي أشعار الفحول ، وأصحاب المعلقات والمنتقيات ؟!

فإذا استقرأنا أشعار هؤلاء ، فإننا لا نجد إشارةً بلْه الصورة الجلية عن تلك الحملة ، كما لا نجد لها أثراً واضحاً في أشعار الفحول المتأخرين في العصور الإسلامية ، وقد ألفيتُني أرجعُ أسباب ذلك إلى عوامل أربعة ، ثالثة منها قد تكون ثانوية أو مؤقته بتوقيت العصر الجاهلي ولكنها متداخلة لتشكل شبكة واحدة ، وعامل رئيس لعله يشمل العوامل الثلاثة ويصهرُها في منظومته الدقيقة وتفصيل ذلك :

أولاً : أن التتبعَ الدقيق لحملةِ الأحباش على الكعبة ، يظهرُ أنها تمتْ في وقت قصير ، وأنها كانت سريعة خاطفة ، فهيَ أشبه ما تكون بالغارة ، وإخال أن أبرهة كان يخشى من تمرد العرب في بلاد اليمن[1] فهو لم يخرج إلا لضرب إخوانهم الشماليين مهما كانت الأسباب التي دعته للخروج ، وإذا كان السبب الظاهر هو هدم الكعبة فإن ذلك يزيد أبرهة خوفاً من هؤلاء اليمانيين الذين غُلبوا على أمرهم زمناً طويلاً ، ولأن الكعبة لها من القداسة الروحيه في قلوبهم وقلوب العرب جميعاً المكانة السامية، وقد كانت الطريق إلى الكعبة سالكة مسلكة ، فليس ثمة جيشٌ عربيٌ أو قوىً قبلية تستطيع صده عن البيت العتيق[2] ومما يساعد في تلك السرعة أنّ المسافة بين صنعاءَ و مكة قصيرة ، ولهذا يمكن القول : إن زمن الحملة من بدْء مسيرها حتى

(١) عندما عزم أبرهة على الخروج إلى الكعبة لهدمها خرج إليه رجل من أشراف اليمن ، وملوكهم يقال له : ذو نفر فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة فقاتله فهزم . انظر السيرة النبوية ، ١ : ٤٠ .

(٢) من الذين حاولوا صدّ أبرهة بعضُ رجالات خثْعَم وثقيف والأزد ولكنّهم هزموا وانضموا إليه ، انظر : السيرة النبوية ، ١ : ٤١ ، ٤٢ . وأخبار مكة المشرفة ، ص ٩٣ .

وصولها إلى مكة لم يتجاوز الشهرين ، وإذا نظرنا إلى أكثر الشعراء الجاهلين الفحول نرى أنهم كانوا يقيمون في مواضع بعيدة من مكة ، وقد تكون المسافة بين أغلب هذه المواضع ومكة أبعد من المسافة بين مكة وصنعاء، وهذا يرجيء من انتشار أخبار هذه الحملة ووصولها إلى تلك القبائل وشعرائها ، ومن ثم عدم مشاركة القبائل برجالها وسلاحها، والشعراء بأشعارهم في الذود عن الكعبة التي يحجها العرب من كل فجٍّ عميق ، ولهذا رأينا أن أصحاب الشعر الذي قيل في الحملة الحبشية من المكيين أو من القبائل التي تقيم على الطريق الذي سلكته الحملة ، وحظ الشعراء في هذه الأماكن من الشعر قليل ، فإذا كانت القبائل البعيدة والقريبة من مكة لم تشارك في صدِّ الأحباش ، وإذا كان الشاعر هو لسان القبيلة فماذا يمكن أن يقول عنها غير الهجاء الذاتي ؟ وكيف يمكنه وصف الأحباش وهو لم يرهم ؟!

ثانياً : والعامل الأول يسلم إلى العامل الثاني ،فقد تمت الحملة دون مقاومة عربية ، ولم يقف أمامَها إلا أعدادٌ قليلة أو زرافات معدودة ، لا وجود لها في ميزان القوة العسكرية المنظمة ، وأكثر هذه الأعداد والزرافات من الرجال كانت تدافع عن مصالحها وإن شئت فقل عن أموالها وأنعامها[1] ، فسرعان ما انضم أكثرها إلى الحملة راضياً أو مكرها ، وأخذ أهل مكة يتحرزون في شعف الجبال والشِّعاب تخوفا من معرة الجيش ، وتوجه الصالحون منهم إلى الله يتوسلون إليه كي يذود عن الكعبة معتمدين في هذا الدعاء مكانة الكعبة عند الله ، ويغريهم في ذلك بقاء البيت طوال تلك الفترة الطويلة من الزمن من عهد بنائه على يدي إبراهيم وابنه إسماعيل دون أن يهدم أو يزول ، فإذا كان سبيل لقول الشعر فهو إما أن يكون مدحاً لهذه القبائل الواقعة في طريق الحملة أو على جانبيها ، أو يكون الشعر هجواً لهذه القبائل لأنها لم تقف الوقفة المرضية عنها .

ولا إخال أن شاعراً حاول أن يمدح هذه القبائل وسادتها ، فالشعراء لم يجدوا فضلا وسابقة خير تبرر مدحهم لأولئك السادة وقبائلهم وإذا كان ثمة مدح فإنه سيكونُ على حسابِ قبائلهم ، أمّا إذا كان شعرهم هجواً فإن الحديث عن ذلك سيكون في سياق الحديث عن العاملِ الرابع .

ثالثاً : لم يكن فضل للعرب في صدِّ الحملة الحبشية ، وإنما الفضل كلُّه لله ، وهذا الاعتقاد مصدره القرآن الكريم ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولا سبيلَ للتشكيك في صحةِ ما جاءَ فيهِ ،

---

(١) يروى أن عبد المطلب سأل أبرهة أن يرد عليه مائتي بعير أصابها له ، فتعجب أبرهة من قول عبد المطلب فقال عبد المطلب : إني أنا رب الإبل وإن للبيت ربّاً سيمنعه ، انظر : السيرة النبوية ، ١ : ٤٤. وروى ابن حبيب في المنمق ، ص ٤٣ ، شعراً لعبد شمس بن مسروح الأزدي حينما هزمَ قومَه بعضُ الحبش يقول فيه :

نحنُ منعنا الحبشَ حَوْزَةَ أرْضِنا ... وماكانَ مِنّا خطبُهمْ بقريبِ
إذا مَا رَمَوْنَا رِشق إزْب أتينهم ... بكلِّ طوالِ السَّاعدينِ نجيبِ
وما فتيةٌ حتّى أفاتتْ سهامُهم ... وَمَا رَجعوا مِنْ مَالِنا بِنَصيبِ

فقد دافع الله عن بيته من بعد ما كادَ الأحباشُ يهدمونه حجراً حجراً ، وقد كان إرسالُ الطير من قبل الله تدخلاً في الوقت والزمان المناسبين ، فكان معجزة ربّانية يبصرها أهلُ مكةَ ، ولا يكادون يصدقون ما ترى عيونهم ، لأنهم لم يتعودوا مثل هذه الخوارقِ من الأمور ، وبعدما رآها القوم ، فصدق المصدقون ، وأرجفَ المكذبون ، وإذا بالعرب تسمع بها ، وتنكرها إنكاراً شديداً ، إن المصادر التاريخية قد غفلت عن ذكر أصداء حملة الطير على حملة الحبش ، ولكن إذا كانت العرب أنكرت المعجزة القرآنية إبّان الدعوة المحمديةِ ، فإن القول بأنهم أنكروا أن تكون الطير مرسلة مِنْ عند اللهِ ليشفع في ما ذهبت إليه ، ينضاف إلى ذلك أن شعراء العصر الجاهلي في جملتهم كانوا لا دينيين ولا ربانيين إذا جاز التعبير ، فهم بذلك أكثرُ رفضاً لذكر أمر الطير في شعرهم وفي أحاديثهم .

رابعاً : لقد كان القرشيّون سَدَنةَ الكعبة وحماتها ، وهذا جعل منهم سادةً وأهلَ فضلٍ عظيم بين القبائل العربية ، وقد ملأ ذلك نفوس شيوخ القبائل العربية حسداً وقِلىً لشيوخ مكة لما هم فيه من الكِبر والزعامة ، فخدمةُ الكعبةِ وحجاجِها كانِ يعني السيادة والزعامة ، وقدْ خلق ذلك كلُّه ضرباً من المنافسة غيرِ الظاهرةِ ، وامتد ذلك الحسدُ وتلك المنافسةُ إلى مجيء الإسلام حينما بُعث من قريش رسولٌ يدعو إلى عبادة اللهِ ، وظهر ذلك الحسد وتلك المنافسة حينما بَعثَ مسيلمة إلى الرسول الكريم يقول له : إنّ لك نصفَ الأرض ولي نصفها ، فبعث له الرسول الكريم : إن الأرض لله يورثها من يشاءُ مِنْ عبادِه ، وقد ارتدتْ أكثر القبائلِ العربيةِ تحتَ شعارِ عدم مشروعية دفع الزكاة وأكبرُ الظن أنهم يرفضون بقاء الخلافة في قريش ولذلك عدّ شاعرهم الحطيئة بقاء الخلافة في قريش قاصمة الظهر [1] وهذا يشفع لي أن أقول : إن بعض شعراء تلك القبائل قد قالوا شعراً في هجو قريش والقبائل التي لم تستطع أن توقف الأحباش مثل ثقيف وخَثْعَم ، ولعلهم يبررون عدم مشاركة قومهم بالدفاع عن مكة لكون قبائلهم لم تستطع أن تعدَّ نفسها خلال فترة قصيرة من الزمن تمت به الحملة من ناحية ، وأن أمْرَ الدفاع عن الكعبة يقع على أهلها الذين يدَّعُونَ حمايتها ، وإذا كان الأمرُ كذلك فإنَّ ثمة شعراً قيل عن الحملة وعن قريش ، وهذا يشفع لي أن أزعم أن ذلك الشعر ضَاع أوضيّع حينما جاءَ الإسلامُ ، لأنه يتعرض من قريب أو من بعيد لهجو قريش قوم الرسول الكريم عليه السلام ، فكان ذلك الشعر من الذي قال عنه أبو عمرو بن العلاء :« ما انتهى إليكم مما قالتِ العربُ ألا أقلّه ، ولو جاءكم وفرا لجاءكم علم وشعر كثير »[2] والذي يسند ما ذهبت إليه أننا لا نجد في أشعار العرب في العصور الإسلامية إلى يومنا هذا ذكراً لحملة أبرهة التي تمثل تحدّياً واضحاً استطاع أن يصل إلى الكعبةِ رمزِ الوجدانِ العربي ، فكانت الحملة علامةً على انهزام الإنسان العربي أمامَ عبدهِ الحبشي الأسود.

---

(١) انظر ديوانه ، ص ٣٣٠ .

(٢) ابن سلام ، طبقات الشعراء ، ص ٢٥ .

الفصل الخامس

الهنود
في
الشِّعْرِ الجاهليِّ

١

عواملُ الاتصالِ بينَ العربِ والهنودِ

لا رَيْبَ أنَّ بحرَ العربِ الواقعَ في جَنوبِ شبهِ الجزيرةِ العربيةِ وخليجَ فارس الواقع في شرقِها كانا يفصلانِ بينَ بلادِ العربِ وبلادِ الهند، فلم تكنْ بلادُ الهِنْدِ تتصلُ اتصالاً مُباشِراً ببلادِ العربِ ، فكانت المياهُ عاملَ فَصلٍ ووَصْلٍ معاً ، وتُعْرَفُ بلادُ الهِنْدِ مُنذُ القديمِ بأنَّها بلدٌ تجاريٌّ وهذا أدّى الى ظهورِ تنافسٍ شديدٍ بينَ الدولِ للوصولِ الى الهِنْدِ لجلْبِ المنتوجاتِ التي تحتاجُها «فقدْ كانَ العربُ والبابليونَ يصلونَ إلى الهند بطريقِ البرِّ أو بطريقِ البحْرِ مِنْ خليجِ فارس ، وكانت قوافلُ البابليين تنقلُ السِّلَعَ إلى سورية لتوزعها على العالم»[١] وكان للتجارِ العربِ دورٌ رئيسٌ في احْتِكارِ الطُّرُقِ التجاريةِ «فالقواعدُ التجاريةُ التي أقامَهَا السبئيونَ على سواحلِ الهِنْدِ والصُّومالِ أتاحَتْ للعربِ الجنوبين احتكارَ تجارةِ الذهب والبَخورِ وأخشابِ الزِّينة التي تصدرُها تلك المناطقُ إلى الشَّمالِ »[٢]

وكان التجارُ العربُ هم واسطةَ الصلاتِ بين بلادِ العربِ والهندِ تقريباً ، إذ كانوا هم أكثر أهلِ البلادِ العربية صلةً بالهندِ ، فبلادُهم قريبةٌ مِنَ الهندِ تقعُ على بحرِ العربِ كما تقعُ الهند ، وسفنهم هي التي كانت تقومُ بنصيب كبير في نقْلِ التجارةِ بين الهِنْدِ وبينَ هذهِ البلادِ ، ومِنَ الطبيعيِّ أنْ يكونَ التجارُ العربُ بِحكمِ موقِعهم وعملهم أكثر صلةً بالهنودِ كما كانتْ لهم معرفةٌ ودرايةٌ بالمدنِ الهامةِ الواقعةِ على السَّاحلِ الطويلِ لبحرِ العربِ ، بَلْ كانوا يذهبونَ الى ما وراءِ ذلك في خليجِ البنْغَالِ وبلادِ الملايُو وجُزرِ اندونيسيَا حتَّى كوَّنوا لهم جَالياتٍ عربيةً في بعضِ ثغورِ هذهِ البلادِ [٣] «وقدْ خلقتِ السواحلُ مِنْ سكانِها رجالَ بحرٍ ، يحبونَ ركوبَ البحرِ ، واستخراجَ مَافيهِ لتعيش به ولبيعهِ وتصريفهِ في الأسواقِ كما جعلتْهُمْ أصحابَ ضيافةٍ يقدمون الماءَ ، وما عندهم من طعامٍ إلى السفنِ القادمةِ إليهم ، ويعرضونَ مَا عندهم مِنْ سِلَعٍ فائضة لبيعها لهم ويشترونَ مِنْ أصحاب تلك السفنِ ما عندهم من بضاعةٍ نافعةٍ فتحولتْ إلى أسواقٍ للبيعِ والشراءِ، المتعاملونَ بها مَزيجٌ مِنَ القادمينَ إليها مِنَ الخارجِ وقد اجتذبتْ الأمكنةُ إليها الغرباءَ ، فسكنوا بها واختلطوا بسكانها ، وتولدتْ بهاأجيالٌ مختلطةٌ ممتزجةُ الدِّماءِ كلما كانتْ قريبةً من ساحلٍ مقابلٍ كان مظهرا الاختلاطِ والامتزاجِ أظهرَ وأكثرَ »[٤] .

---

(١) غوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ٩٦ .

(٢) موسكاتي ، الحضارات السامية القديمة ، ص١٩٧.

(٣) انظر : عبدالمنعم النمر ، تاريخ الإسلام في الهند ، ص٦٠.

(٤) المفصل ، ١: ٢١٩.

وقد كان للهنودِ وجودٌ في السواحلِ العربيةِ منذُ عَهْدٍ قديم « فقدْ عُثِرَ في مواضعَ منْ سواحلِ عمانَ على بقايا عظامٍ بشريةٍ اتّضَحَ أنّها من بقايا الهنودِ (الدراوديينَ) سكانِ الهندِ القدماءِ»[١] .

وَمِنْ أهمِّ العواملِ التي أغْرَتِ الهنودَ بالمجيءِ إلى السّواحلِ العربيةِ الأسواقُ الموسميةُ التي تقامُ في مواضعَ معينةٍ قربَ هذه السواحلِ ، فيعرضونَ فيها تجارتَهم وسلعَهم «فإذا كانَ لإحدى هذه الأسواق موقعٌ جغرافيٌّ ذو بالٍ كأنْ تكونُ على ساحلِ البحرِ مثل سوق عدن ، وصنعاءَ وعمانَ كانَ شأنُها ممتازاً مِنْ بقيةِ الأسواقِ التي في قلبِ الجزيرةِ العربية كحجر أوكحضرموتَ ، لشيوعِ الاتجارِ فيها مع الجيرانِ من هندٍ وحبشة وفرس في الأولى واقتصارالثانية على القبائل المتاخمة لها»[٢].

ومن الأسواقِ التي يؤمها الهنودُ بعروضهم : سوق هجر[٣] وسوق عمان[٤] وسوق دُبا[٥] بل إن عربَ بلادِ الشّامِ كانوا يقدمون بحاصلات الهند إلى سوقِ بُصْرى[٦] ، وقد كانت أسواقُ البحرين وبقيةُ الأسواق العربية الشرقية تشتري الرقيق الواردَ إليها منَ الهنْدِ[٧].

وكان التجار العرب أيضاً يختلفون بِسفنهم إلى سواحلِ الهند فكانوا يقطعون الرحلةَ كلَّها متخذين سواحل بلاد العرب وإيران وكانوا يفيدون من الرياح الموسمية الشمالية الشرقية[٨] ، وكانوا يجلبون من الهندِ الأخشابَ والموادَّ اللازمة لبناء السفن القوية وبعضاً من حاصلاتِ الهنْدِ وصناعاتِها[٩] .

ويخلص من هذا كلّه أنَّ العلاقاتِ العربيةَ الهنديةَ في العصر الجاهلي هي علاقات تجارية بواسطةِ البحر، فكان العرب بحكم موقعهم يتحكمون في الطرقِ البحريةِ التي يسْلكها التجارُ من أقطارٍ شتّى لنقلِ السِّلَعِ الهنديةِ إلى بلدانهم في الشّمال والغرب، و كان التجارُ الهنودُ يفدون إلى السواحل العربية يحملون بضائعَ الهندِ وحاصلاتِها إلى السواحلِ العربية و قد استقرَّ بعضهمْ فيها وكان التجار العربُ كذلك يسعونَ إلى الهند يحملونَ منها ما يحتاجُ إليه قومُهم مِنْ سِلَعٍ ومنتوجاتٍ هنديةٍ .

---

(١) المرجع السابق ، ١:٢١٩.

(٢) سعيد الأفغاني ، أسواق العرب في الجاهلية والإسلام ، ص١٦٦.

(٣) المرجع السابق ، ص٢٢١.

(٤) نفسه ، ص ٢٠٨.

(٥) المحبر ، ص٢٦٥.

(٦) أسواق العرب في الجاهلية والإسلام ، ص٣١٢ .

(٧) المفصل ، ٧:٤٥٩. ويستنتجُ المؤرخ جواد علي ذلك من خبر ورد في (المعارف لابن قتيبة ، ٢١٠) مفادُهُ «أنّ خالدَ بنَ الوليد صالحَ بني حنيفة على الرقيق ولم يصالحهم على أنفسهم وأنّه أخذَ منهم رَقيقاً ، كان فيه أمَةٌ سِنْدِيةٌ سوداءُ ،لم تكنْ مِنْ بني حنيفةَ وإنما كانتْ من رقيقهم فَصَارتْ إلى علي بن أبي طالب» وذكر الصغانيُّ في العُباب الزاخر واللباب الفاخر ، ١: ٦٣ : أنّ البرقعيَّ في قول الشاعر :

كأنّه برقعيٌّ باتَ فـــي غَنَـــمٍ مُستَوْهِلٌ في سَوادِ الليلِ مَذْؤُوبِ

عبدٌ سِنْديٌ أسودُ . والبيت معزوٌ في المفضليات ، ص١٢١ إلى سلامة بن جندل. وهو معزو إلى أبي دؤاد الإيادي، ديوانه ضمن دراسات في الأدب العربي ، ص٢٩٦ . ومما يؤكد معرفة العرب للهنود أنّه حينما وفد بنو الحارث بن كعب أهل نجران على الرسول عليه السلام ليسلموا قال عنهم :« مَنْ هَؤلاءِ الذين كأنّهُمْ رِجَالُ الهِنْدِ» انظر : طبقات ابن سعد ، ١:٣٣٩ .

(٨) جورج فضلو حوراني ، العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى ، ص٤٧ .

(٩) المرجع السابق ، ص ٢٧. المفصل ، ١ :٢١٠.

٢

صورة الهنود

كانَ قد وقعَ في ظنِّ العربِ أنَّ بلادَ الهندِ بعيدةٌ جداً ، وذلك لأنَّهم لا يستطيعون أنْ يصلوا إليها إلاّ بامتطاءِ البحرِ ، ولا شكَّ أنّ بطءَ سيرِ السفن التقليدية في البحر حينذاك بين بلاد العرب والهند تجعل المسافرَ يشعرُ ببعد تلك البلاد ، ولهذا تتمنى أمُّ صَرَيع الكِنْديَّةُ أنْ يكونَ زوجُها نائياً في بلادِ الهندِ حتى لا تراه ولا يراها بعد أنْ أفسدَ عليها حياتها ، وكأنّ الدار ساعة يكون فيها كهفٌ مليء دُخَاناً ، فلا تكاد أمُّ صَرِيْع أنْ تتنفسَ في هذا المكان فتقول (١) :

كأنَّ الدَّارَ يَوْمَ تكونُ فِيْهَا ... عَلَيْنَا حُفْرَةٌ مُلِئتْ دُخَانَاً

فليتكَ في سَفينِ بني عِبَادٍ ... طريْداً لا تَرَاكَ وَ لا تَرَانا

وَلَيْتَكَ غَائِباً بِالهِنْدِ عَنَّا ... وَلَيْتَ لَنا صديقاً فَاقْتَنَانَا

وَلو أنَّ النذورَ تكفُّ مِنْهُ ... لقد أهْدَيْتُهَا مِئةً هِجَانَاً

فغياب الزوج في أرضِ الهند يعطي زوجه أمَّ صريع قدراً كبيراً من الاستقرار النفسيِّ ، وهو يساعدُ في تخلصها مِنَ الاضطراب والأرقِ وقد شاءت أن يكون مقرُّهُ في الهندِ أو سفين بني عبادٍ ولايكون في ديارِ العربِ فلو كان كذلك لما وجدَ خطراً ليقدم إلى بيتهِ ما دامت داره قريبةً وما دامتِ الأخْطارُ التي تحولُ بينه وبين تلك الدارِ يسيرةً ليْستْ كتلك الأخطارِ والأهوالِ التي تركبُ أمواجَ البحرَ وتقعي تحت السُّفنِ الماخرةِ عُبَابَهُ ، ولذلك سيكونُ إيابُه من الهندِ عَسِيْراً ، فالمسافرونَ يغالبونَ الموتَ أثناءَ رحلتهم البحريةِ بينِ الهندِ وسواحلِ العربِ .

وفي قصيدةٍ للأخْنَسِ بنِ شهابٍ التغلبيِّ يذكرُ مساكنَ كثيرٍ مِنْ قبائلِ العربِ فللكيزِ البحرانِ والشَّاطِئُ ولبكرٍ ظهرُ العراق، وتميم تمتد الصحراء بها بين قُفٍ وَرَمْلَةَ ، وتصاقبُها في تلك المواضع كَلبٌ أمّا غسانُ ملوكُ الشام فهي تجاورُ الرومَ ، وبَهْرَاءُ لهم حِمْصُ ، وجاورتْ إيادٌ الفرسَ تُضَارِبُهُمْ، ولخْمٌ ملوكُ الحيرةِ لهم السلطانُ والقوةُ ، وتغلب قوم الشاعر لهم ما يشاؤونَ من الأراضي والدِّيارِ وما يهمنا في هذه القصيدة قولُ الشاعر (٢) :

لُكَيْزٌ لها البَحْرانِ والسِّيفُ كُلُّهُ ... وإنْ يأتِها بأسٌ مِنَ الهندِ كارِبُ

تَطايَرُ عَنْ أعْجَازِ حُوشٍ كأنَّهَا ... جَهَامٌ أرَاقَ مَاءَهُ فَهوَ آنِبُ (٣)

---

(١) عبد البديع صقر ، شاعرات العرب: ص١٨٦.

(٢) المفضليات ، ص ٢٠٥.

(٣) الحُوش : إبل حُوْشيةٌ : أي لم تُرَضْ . والجَهَام : السَّحَابُ .

فلكيز لها منطقةُ البحرين وساحلُ الخليج فهم إذن أقربُ العرب إلى بلادِ الهندِ ، ولهذا فإنّ موقعهم على الساحلِ يعرضهم لبأس الهنود ،فالهنود لهم بأسٌ شديد، ولذلك لكيزٌ دائمة اليقظة والاستعداد لمقاومة كربِ الهنود وبأسهم ساعة مجيئه ؛ فقدْ أخبرَ الشاعرُ أنّ للهنود بأساً يُخشى وقوةً يُرهبُ جانبها ، ولكنْ لم يذكرْ الشاعرُ لنا أنّ الهنود غزوا لكيزاً فهلْ كانتْ لهم محاولاتٌ لغزو السواحل العربية واحتلالها ، ولعلّ شيئاً من ذلك لم يحدث البتة وذلك لأسباب منها :

١- أنّ المسافة بين بلادِ الهند وبين الشطوطِ العربية طويلةٌ تحتاج إلى زمنٍ وجُهْدٍ كبيرين ، فإذا ما وصلوا إلى هذهِ الشطوط فإن وصولهم سيكونُ بعدَ عَنَتٍ ولأيٍ شديدين.

٢- وإذا ما استقربهم المقامُ فإنهم سيلاقونَ قَوْماً أشدّاءَ على أعدائهم خاصةً أنّ السّلاحَ الذي يستخدمُه العربُ هو السلاحُ نفسه الذي يستخدمُه الهنودُ .

٣- وقبل ذلك وبعده فإن التآليفَ التاريخيةَ والشعرَ الجاهليَّ لم تشرْ الى مثل هذا الغزوِ، أو إلى مثل تلك المحاولاتِ لاحتلال السواحل العربية .

وشعرُ الأخنسِ السابقُ يدلُّ على أنّ الهنودَ يمتازونَ بالقوةِ والبأس ، لكنّ تحدي لكيزْ لهم ضرب من المبالغةِ اللاوقعيةِ أرادها الشاعر لهم حينما تغنّى بفَعَالِ القبائل العربيةِ الأخرى . وثمة شعر يُلحَظُ فيه صفاتٌ دقيقةٌ يتّصفُ بها الهنودُ ، وهي طبيعةٌ من طبائعهم وخليقةٌ من خلائقهم ، يقول مُزرِّدُ بنُ ضِرارٍ الذُّبيانيُّ [١]:

ألا يا لقومِ والسَّفاهَةُ كاسْمِها ... أعَائِدَتي مِنْ حُبِّ سَلمَى عَوائِدي [٢]

سُوَيْقَةُ بلبالٍ إلى فَلجاتِها ... فَذي الرَّمْثِ أبكتْني لِسَلمَى مَعَاهِدي [٣]

وَقَامتْ إلى جَنْبِ الحِجَابِ ومابِها ... مِنَ الوَجْدِ لوْلا أعْيُنُ النّاسِ عَامِدي [٤]

مَعَاهِدُ تَرْعَى بَيْنَها كلُّ رَعْلَةٍ ... غَرَابِيبُ كالهِنْدِ الحَوَافي الحَوَافِدِ [٥]

فهذا الشعر يكشفُ عَنْ لونِ الهنودِ الأسودِ وهو يتفقُ مع ما ذكره المسْعُوْدِيُ وابنُ خَلْدُوْن ؛ فقد ذكر المسعوديُّ أن الهنودَ من السودان،ولكنّهم في عقولِهم وسياساتِهم وحكمتِهم ، وألوانِهم وصفاتِهم، وصحةِ

---

(١) المفضليات ، ص ٧٥، ٧٦ .

(٢) السفاهة كاسمها : أي مايكون سفها يكره كما يقبح اسم السفاهة. والعوائد : جمع عائدٍ ، وهنّ اللواتي يعدْن المريض.

(٣) سُوَيْقَةُ بَلبَالٍ وفلجاتها ، وذو الرّمْثِ : مواضع . والمعاهد : المحاضرُ التي كان يعهدها بها .

(٤) الحجاب : الستر .

(٥) الرَّعْلَةُ : القطعة من النَّعام. والغَرابِيبُ : الشديدةُ السوادِ . والحوافي : حافية الأقدام . الحوافد : جمع حافدٍ وهو المتقارب الخطو ؛ شبه النعام برجالِ الهندِ للسواد والدقة .

أمزجتِهم وصفاءِ أذهانِهم ، ودقةِ نظرهم بخلاف سائرِ السودان»[١] وينقل ابنُ خلدونَ عن الطبريِّ عن ابن إسحاق أنَّ «الهندَ والسندَ والحبشةَ من بني السودانِ منْ ولدِ كُوْشَ»[٢] ولكنَّ درجةَ السَّوادِ في الأحباشِ والهنودِ ليست سواءً .

ومن صفاتِ الهنودِ التي ذكرَها مُزَرِّدٌ ، ظاهرةَالمشي حفاة[٣] ولعلَّ ذلك يعود إلى خفةٍ في أجسامهم ، وضعف في البنية الجسمية ، ولذلك كَثُرَتْ عندهم الألعابُ الخفيفة والدقيقة مثل السحرِ يقول عبد الله بن المقفع عنهم :«إنهم أصحابُ وَهْمٍ ومخرقة ، وشَعْبَذَةٍ وحِيلةٍ »[٤] فهي أعمال تحتاج سرعة بديهة ، وخفة جسم، وقال أبو حيان التوحيدي «وللهند الفِكْرُ والرويَّةُ والخفةُ »[٥] .

ويقول الجاحظ «وأمّا الهندُ فوجدناهم يُقَدَّمونَ في النجومِ والحسابِ ، ولهم الخطُّ الهنديُّ خاصة ، ويقدمون في الطبِّ ، ولهم أسرارُ التماثيل ونحتُ الصور وبالأصباغ تتخذُ في المحاريب وأشباه ذلك ، ولهم الشَّطْرَنْجُ ، وهي أشرف لعبة وأكثرها تدبيراً وفطنةً ولهم السيوفُ القلعية ، وهم ألعبُ الناسِ بها ، و أحذقهم ضربا بها ، ولهم الرُّقى النافذةُ في السموم والأوجاع ، ولهم غِناء معجبٌ ، ولهم ضروب الرقص والخفة ، ولهم الثقافة ، ولهم معرفة المناصفة ،ولهم السحر والتدخين ، ولهم خطٌّ جامعٌ لحروف اللغات وخطوط أيضاً كثيرة »[٦] .

ولا عجب أن يستفيد الهنود من بنيتهم الجسميةِ تلك في الغياصةِ والبحث عن الأصْداف واللآليء وهذا عملٌ يحتاج خفةَ جسم ونشاطاً مستمراً فهذا الشَّمَّاخُ يقولُ في وصفِ ناقتِه :

تَرْمِي الغُيُوبَ بِمِرآتين مِنْ ذَهَبٍ ... صَلْتَيْنِ ضَاحِيهِمَا بالشَّمْسِ مَصْقُوْلُ [٧]

وَحُرَّتَيْنِ هِجانٍ لَيْسَ بينهما ... إذا هما اشتأَتَا للسَّمْعِ تَمْهِيْلُ [٨]

في جَانبيْ دُرَّةٍ زَهْرَاءَ جاءَ بِها ... مُحَمْلَجٌ مِنْ رِجَالِ الهِنْدِ مَجْدُوْلُ [٩]

ولعلَّ هذا الرجلَ الهنديَّ المفتولَ هو أحدُ الهنودِ المقيمين على السواحل العربيةِ ، الذين جذبتهم تلك السواحلُ ليبحثوا عن اللؤلؤِ وما يكنزه البحرُ مِنْ ضروبِ المحَارِ ، فكان الغوصُ أحدَ أعمالِ الهنودِ المقيمين في بلادِ العربِ الشرقية يستخرجونه بعد لأيٍ من البحر ، ثم يبيعونَه على الموسرين من العربِ وتجارهم .

---

(١) مروج الذهب ، ١:٨٢ .

(٢) تاريخ ابن خلدون ، ج٢ ، ق١ ، ص٢١.

(٣) وذكر الشريف الإدريسي في وصف بعض الجزائر الهندية:«أنه لا يمشي أحد فيها بنعل الا المنكةُ وحدها ، ومتى عثر على أحد أنه لبس النعال قطعت رجلاه » انظر :(وصف الهند وما يجاورها من البلاد من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، ص ٣).

(٤) الإمتاع والمؤانسة ، ١:٢١. والمخرَقَةُ ، والشَّعْبَذَةُ ،والشَّعْوَذَةُ : واحد وهي مثل السحر، فترى الشيء بغير ماعليه أصله في رأي العين .

(٥) الإمتاع والمؤانسة ، ١: ٧٤ .

(٦) رسائل الجاحظ : رسالة فخر السودان على البيضان ، ١: ٢٢٣.

(٧) الديوان ، ص ٢٧٤، ٢٧٥. والغيوب : جمع غَيْبٍ وهو : الموضع الذي لا يدري ماوراءه . بمرآتين : بعينين . والصلت : الأملس البراق. ضاحيهما : بارزهما .

(٨) الحرتان : الأذنان . وهجان : بيضاوان كريمتان . اشتأتا : سبقتا : أي تسمعان من بعيد بسرعة .

(٩) في جانبي دُرَّةٍ : يشبه وجهها بالدُّرةِ الكريمة الأصيلة . والمحملجُ : المفتول.

٣

وسائل نقل التجارة الهندية

كان للبيئةِ الصحراويةِ أثرُها الواضحُ في شيوعِ المعاني والألفاظِ الدالةِ عليها ، والمعبرة عنها في الشعر الجاهلي وَفْقاً للاستعدادِ الكامنِ في خليقة العرب لقبولِ هذه الألفاظِ وتلك المعاني ، وعلى الرغم من إحاطةِ مياهِ البحار ببلاد العرب من جهاتها الثلاثِ إلا أن تصويرَهم لهذه البحارِ وما فيها من حيوان بحري وما يجري فيها من منشآتٍ كالأعلام لايعدلُ تصويرَهم للصحراءِ وما فيها من أشياءَ ، فكان نصيبُ البحرِ وما فيه في الشعر الجاهلي قليلاً وإذا ما تحدَّثَ شعراء الجاهليةعن السفنِ التي تمخرُ عُبابَ البحار المجاورة لهم ، فإنَّ حديثهم يكونُ محدوداً ، واتخذَ هذا الحديثُ ضَرْباً من تشبيهِ النُّوقِ السائرةِ في الصحراءِ بالسفن ، وما يهمنا من أمر هذه السفن أنها كانت الوسيلةَ الوحيدةَ والمهمة في نقلِ التجارةِ الهندية إلى بلادِ العرب ، فكان بعضُها سفناً هنديةً في شعر لبيد أثناء حديثه عن ناقته فيقول [١] :

كسَفِينَةِ الهِنْديِّ طابقَ دَرْءَها ... بِسَقَائِفٍ مَشْبُوْحَةٍ بِدِهَانِ [٢]

فَالتَامَ طائِقُهَا القديمُ فأصبَحَتْ ... ما إنْ يُقَوِّمُ دَرْءَهـا رِدْفَانَ [٣]

فكأنَّها هِيَ يَوْمَ غِبَّ كلالِهَا ... أوْ أسْفَعَ الخَدَّيْنِ شَاةُ إرَانِ [٤]

فهذه السفينةُ الهنديةُ قامَ بصنعها هنديٌّ فأحكم صناعتها وأجاد تركيبها ،فهي قويةٌ لا تحطمها الأمواجُ،وهي صناعة هندية ، يستخدمها التجر الهند في نقل تجارتهم إلى السواحل الشرقيةِ من بلاد العرب ، ويتبين من قول الشاعر «فالتامَ طائِقُها القديمُ » أن هذه السفينةَ قديمةُ العهدِ ، وأن لها صولاتٍ وجولاتٍ في البحر ، وأنَّ الملاحينَ كانوا يلجأون إلى تصليح سفنهم ، وكانوا يتعهدونها بالرعاية والطِلاء لتكون قويةً محكمةً جميلةَ الشكلِ ، ويبدومن ذلك أن صناعةَ السفنِ كانت مكلفةً وشاقةً معاً.

وكانت السفنُ العربيةُ تنافسُ السفنَ الهنديةَ في نقلِ البضائع الهنديةِ إلى بلادِ العربِ ، ومن تلك السفن العربيةِ السفينةُ التي ذكرها بِشرُ بنُ أبي خازِم في قوله [٥] :

---

(١) شرح الديوان ، ص ١٤٢ ، ١٤٣.

(٢) طابقَ : أحْكم عملها . والدرءُ : كل ما كان فيه من قدح ، أوعيب أحْكمه. والسقائفُ :الخُشُبُ المسقوفةُ . والمشبوحة : المشقوقةُ . والدِهان : الدهن والطلاء.

(٣) التأم : استوى . الطائق: الفرجة بين خشبتين ووسط كل شيءٍ طائقة . والردفان : الملاحان .

(٤) كلالها : إعياؤها ، وغبُّ كلالها : إذا أتى عليها بعد الكلال يوم فذلك الغِبُّ . والأسفع : الثورُ الوحشي الذي في خَدِّيهِ سواد يضرب إلى الحمرة قليلاً ، والإرانُ : ضرب من العدو الشديد ، شبه الشاعر ناقته بعد الكلال بسفينة الهندي أو الثور .

(٥) الديوان ، ص ٤٧ ، ٤٨ .

أجَالدُ صفّهُمْ ، ولَقدْ أرانـــــي ... علـــــى قَرْوَاءَ تَسْجُدُ للرِّياح [١]

مُعَبَّدَةِ السَّقائفِ ذاتِ دُسْرٍ ... مُضَبَّرَةٍ جوانبهـــــا رَدَاح [٢]

إذَا ركبتْ بصاحِبها خَلِيْجاً ... تـــــذكرُ مَالـــديْهِ مِنْ جُنَاح

يَمرُّ الموْجُ تحتَ مُشَجَّراتٍ ... يلـــينُ المـــاء بالخُشُبِ الصِّحاح

وَنحنُ على جَوانِبها قُعُودٌ ... نَغُضُّ الطَّرفَ كالإبل القَمـــاح [٣]

فقدْ أوقِرْنَ مِنْ قُسْطٍ وَرِنْدٍ ... وَمِنْ مـــسْكٍ أحَمَّ ومِنْ سِلاح [٤]

فَطابتْ ريحُهُنَّ وهُنَّ جُونٌ ... جآجِئُهُنَّ فـــــي لُجَجٍ مِلاح [٥]

فهي سفينة محكمة عظيمة واسعة ، ذات ألواح مشدودة إلى بعضها بالحبالِ لا بالمسامير ، وهي مطلية بالقار، تصارع الأمواجَ الهائجة ، والركابُ في موقف عصيب ، ينظرون حولهم فيتنازعهم الموتُ والحياةُ، واليأسُ والأملُ ، فقد أفزعهم ذلك المنظرُ ، وأخذ كلُّ امرئٍ منهم يتذكر ما اقترفَ من الإثم ، ويحاسبُ نفسه وتحاسبهُ نفسهُ، ويتمنى أن ينجوَ ليعمل صالحاً ، وهم أثناء ذلك الحديث الداخلي والحوار النفسي مغمضو العيون لايكاد يرتدُّ إليهم طرفهم من هول المشهد ، فلم تعد البضاعةُ المحملةُ على ظهر السفينة تهمهم.

«إن لهذه الأبيات قيمةً تاريخيةً كبيرةً لأنها تبينُ لنا الطريقة التي كان العربُ يصنعونَ بها سفينهم ، والوسائلَ التي كانوا يعتمدونَ عليها في صناعتِهم لها ، فقد كانوا يشدونَ بعضهاإلى بعضٍ بحبالٍ قويةٍ ، ويحكمونَ ربطها إحكاماً دقيقاً ثم يطلونها بالقار ، كما أنها تبين لنا صلاتِهم التجاريةَ ببلاد الهندِ ، وما كانوا يجلبونَ منها من بضائع»[٦]، كما أنها تبين كذلك خشية العرب من ركوب البحر ، فكان خطراً شديداً يهدد حياتهم في كل لحظة تمر بهم ، ولهذا زهدوا فيه ، ورغبوا عنه ، فلم يُذكر في شعرِهم إلا لِماماً.

---

(١) القرواء : الناقة الطويلة السنام. تسجدُ للرياح تميل معها حيثما أمالتها ، شبه ناقته بالسفينة .

(٢) المعبّدة : الموّطاة . والسقائف : جمع سقيفة ، وهي : لوح السفينة . والدُّسْرُ : جمع دسار وهو خيط من ليف يشد به الألواح. والمضبَرة : المجتمعة ألواحها لا فروج فيها. الرَّداح : الواسعة .

(٣) الإبل القماح : التي ترفع رؤوسها وتغض أبصارها عند الحوض فلا تشرب .

(٤) أوقِرن : حُمِّلنَ .القُسْطُ : عود هندي يجعل في البخور والدواء. والرند : عود له رائحة يتبخر به. الأحم : الأسود.

(٥) جون : أسود . والجآجيء : جمع جؤجؤ وهو الصدر . واللُّجج : جمع لجة وهي معظم الماء . والملاح : جمع مِلْح .

(٦) د. حسين عطوان ، وصف البحر والنهر في الشعر العربي، ص٢٩.

٤

الصناعات الهندية

١- الطيوب والتوابل

كانتِ السفنُ الهنديةُ والعربيةُ تنشطُ في نقلِ البضائع الهندية إلى بلاد العرب ، وكانت بلادُ العربِ الواسطة لنقل البضائع الهندية إلى الشامِ وأفريقيةَ ومصرَ ، ولقدْ رأى التجارُ العربُ والهنودُ أنَّ الضربَ في البحرِ على الرغمِ من أخطارهِ الدائمةِ السبيلُ الوحيدُ الذي لا محيصَ منه ، فكانت حاجةُ بلادِ العربِ وما جاورها مِنَ البلادِ تغريهم ليقوموا بمثلِ تلك المغامراتِ التجاريةِ البحريةِ، وكانت الطيوبُ منْ أهمِّ البضائع الهنديةِ التي يجلبُها التجارُ فقد ذكر بِشْرُ بن أبي خَازِم[١] ضروباً من تلك الطيوب التي تحملها السفينة الآتية من الهند فمن تلك الطيوب القُسْط[٢] والرَّنْدُ[٣] والمِسكُ[٤] ومنها ما ذكره امرؤ القيس في قوله[٥] :

وَبَانَاً وألوِيّاً مِنْ الهِنْدِ ذَاكِـــيَاً وَرَنْداً وَلُبْنَى وَالكِبَاءَ المُقَتَّرَا[٦]

ومنها ما ذكره عديُ بنُ زيدْ في قوله:

أبصَرَتْ عَيْنِي عِشَاءً ضَوْءَ نَار مِنْ سَنَاهَا عَرْفُ هِنْدِيٍّ وَغَارِ[٧]

والظاهر أنَّ هذهِ الطيوبَ كانت فائقةَ الجودةِ ، والمُرجَّحُ أنَّ نِساءَ الطبقاتِ الراقيةِ هُنَّ اللواتي كنَّ يستخدمنها ، ويظهر أنها كانت بمنزلةِ العطورِ التي تستوردها البلادُ العربيةُ اليومَ من الدول الأجنبية، ولعلَّ هذه الطيوبَ الهنديةَ لم تشتهرْ في بلاد العربِ إلا بعد أنْ استخدمها العرب وغيرُهم من الأممِ والأقوامِ، فحققتْ نَجاحاً كبيراً لم تستطعْ الطيوب المستخرجةُ في بلاد العرب أن تنافسها ، وروي في الحديث النبوي قول الرسول عليه السلام:«عَلَيْكُمْ بالعُودِ الهنديِّ»[٨] وذكر الأبْشِيْهِيُّ «أن أجودَ العودِ المندلي وهو منسوب إلى مندل قرية من قرى الهند »[٩] وروي أن أحد ملوك الهند بعث لعمرَ بنِ عبدِ العزيز أن له نهرين يُنبتانِ العودَ

---

(١) الديوان ، ص٤٨.

(٢) القُسْطُ : عُود يجاءُ به من الهندِ يجعلُ في البخور والدواء ، وقيل تتبخر به النساء والأطفال .

(٣) الرَّنْدُ : شجر طيب الرائحة ومنه العود الذي يتبخرُ به .

(٤) المِسْكُ : أطيب أنواع المواد العطرية وأغلاها .

(٥) الديوان ، ص ٦٠ .

(٦) البانُ : واحدته بانة: شجر يسمو ويطول في استواء ، يصنع منه عطر البان. والألوى : العود . ولُبْنَى : ضرب من الطيب . والكباء: البَخورُ أو كل عطر يتبخرُبه . والمقتَّرُ : المدخن.

(٧) الديوان ، ص ٩٣ ، وانظر : ص ١٠٠. والغارُ : ورق طيب الرائحة يصلح للتزيين.

(٨) اللسان ، عود .

(٩) المستطرف في كل فن مستظرف ، ٢:٣٢.

والألوّةَ والجوزَ والكافورَ والذي يوجد ريحه على مسيرةِ اثنى عشرَميلاً [١]. ويبين الشعرُ أنّ هذه الطيوب كانت تحمل إلى بلادِ العربِ في عُلبٍ مِن الخشبِ ، وهي الخِفَاق[٢] أو في جلودِ بعض الحيواناتِ تدبغُ وتهيأ لهذا الغرض كجلود الفأر [٣] .

أمّا التوابل الهنديةُ فما تزال البلادُ العربية تستوردها من الهند لتزيد الطعامَ نكهة طيبةً ، وهي متوافرة في الدول العربية المطلة على الخليج العربي بكثرة ، ومن التوابل التي كان العرب يستخدمونها في العصر الجاهلي الفُلفُلُ الهندي[٤] .

٢- السيـــوف

تبينَ من أبياتِ بِشر بن أبي خَازِم أنّ السفينة كانت تحمل سلاحاً هندياً، بيد أن الشاعر لم يفصل القولَ في تلك الأسلحة ، ولم يصف أنواعها ، ولكنه يدل دلالة واضحةً على أنّ بلاد الهند كانت مصدراً لتصدير السلاح إلى بلاد العرب، ويُبيّنُ الشعرُ الجاهليُّ نوعاً من السلاح الهندي كان العرب يحرصون على امتلاكه وهو السيف الهندي والأصل في التهنيد عمل الهند، يقال سيف مُهَنَّدٌ وهِنْدِيٌّ وهِنْدَوَانِيٌّ إذا عُمل ببلادِ الهندِ وأحكم عمله [٥] ، وذكرياقوت الحموي «أنّ السيوف الهندية تجلب من موضع في بلاد الهند اسمه خَوْرفَوْفَل وليس في الهند أجود من سيوف هذا الخَوْر»[٦] .

ويُعَدُّ السيفُ الهنديُ من أجودِ السيوف التي كان العرب يستعملونها في حروبهم ، وهو أكثر السيوف والأسلحة وروداً في الشعر، وقد أجاد الشعراء في وصفه ، فهو حادٌ ماضٍ سريعُ القطع ، يزيلُ الهامَ ولاينبو ، ومن ذلك قول امرئ القيس [٧] :

فَسَمَيْتُ نَحْوَ مَطِيّتِـــي بِمُهَنَّدٍ عَضْبِ الكَرِيهَةِ مُوْشِكٍ القَصْلِ [٨]

وله وقعٌ شديد لمضائهِ ، فهذا زهيرُ بنُ أبي سُلمى يشبّهُ قوله بوقع السيف الهندي فيقول [٩] :

---

(١) العقد الفريد ، ٢: ٦٠.

(٢) ديوان امرئ القيس ، ص٦٠ .

(٣) ديوان علقمة الفحل ، ص ٦٣.

(٤) ديوان امرئ القيس ، ص٨ . وذكر ابن منظور : أن الفُلفُل لا ينبتُ بأرض العرب (اللسان ، فلل)

(٥) اللسان ، هند. وانظر :الأنوار ومحاسن الأشعار ، ص ٢٨. وذكر التبريزيُّ في كتابه شرح اختيار المفضل ، ١: ٤٧٥ «أنّ من أسمائه الهندكيّ» ولكني لم أعثر على هذا الاسم في الشعر الجاهلي .

(٦) معجم البلدان ، ٢: ٤٠٠.

(٧) الديوان ، ص ٢٦٤ . وانظر : وصفَ السيف الهندي في : ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٤٨ . وديوان عمرو بن معدي يكرب ، ص٧٦.

(٨) العضب : القاطع . وموشك القصل : سريع القطع .

(٩) الديوان ، ص١٩٩.

أكفُّ لِسَاني عَنْ صَدِيْقي ، وإنْ أجَأْ إليه فإنّي عَارِقٌ كلُّ مَعْرِقِ

بِرجْمٍ كوَقْعِ الهِندُوَانيِّ أخلَصَ الصـ ـيَاقلُ مِنْهُ عَنْ حَصِيرٍ ورَوْنَقِ

وهو قِرْضَابٌ قاطعٌ ، وقدْ فَرَّقَ لبيدٌ بَيْنَ السيفِ الهنديِّ وغيره من السيوفِ يقول[١] :

ومُدَجَّجِيْنَ تَرَى المَغَاوِلَ وَسْطَهُمْ وَذُبَابَ كُلِّ مُهَنَّدٍ قِرْضَاب

ومن صفاتِه أنّه حُسَامٌ كقول تأبَّطَ شَرّاً[٢] :

وفي عُنُقِي سَيْفٌ حُسَامٌ مُهَنَّدٌ وَمُرْهَفَةٌ زُوْرٌ شِدَادٌ عُيُوْرُهَا

وهو مصنوع من الحَديدِ الصلب ، فلا تُفَلِّلُ مضاربه[٣] من قِراع الكتائبِ ، رقيقُ الشفرتين[٤] كأنَّ بصفحتيهِ لهيبَ نارٍ [٥] ، وهذا المزَّقُ العبديُّ يشبِّهُ ابْنَ أخْتِ النُّعْمَان بصدرِ السيفِ الهندي في خفتِه وحركتِهِ الدائبةِ في فؤادِ العَجاج فيقول[٦] :

فمنْ مُبْلِغُ النعمانَ أنّ ابنَ أختِهِ على العين يعتادُ الصَّفا ويُمرِّقُ

وأن لُكَيْزاً لمْ تكنْ رَبَّ عُكَّةٍ لدُنْ صَرَّحَتْ حُجَّاجُهُمْ فتفرَّقوا [٧]

قَضَى لجميع النّاس إذ جاءَ أمْرُهمْ بأنْ يجْتَنبوا أفراسَهم ثم يلْحقُوا

يَؤُمُّ بِهِنَّ الحَزْمَ خِرْقٌ سَمَيْدَعٌ أخَذٌّ كصَدْرِ الهندوانيِّ مِخْفَقُ

وهو أمْلَس ذو رَونق [٨] تسر العين رؤيته ، ويُفزعُ الأعداءَ حِيْنما يهتزُّ بيد صاحبِهِ [٩] ، وعند المقارعةِ تسمعُ له صَوتاً ، ورَنَّةً كرَنَّةِ أبكارٍ زُفِفْنَ عَرَائِساً .[١٠]

أمّا مِقبضهُ فقد أحكم عمله كما يقول زهير بنُ مسعودِ الضَّبيُّ[١١] :

وقَضْبُ الهـــنديِّ مجـــــلوزةً قدْ قُوِّمتْ مِنْهـــا الأنابيـــــبُ [١٢]

---

(١) شرح الديوان ، ص٢٢ .

(٢) الأشباه والنظائر ، ٢: ١٦٦. وانظر : ديوان طرفة ، ص٤٠.

(٣) الأشباه والنظائر ، ٢: ٢٠٣ . الأغاني ، ١١: ٩٨ . ديوان بشر بن أبي خازم ص١٢٢.

(٤) ديوان بشر بن أبي خازم ، ص١٦٦. والمفضليات ، ص ٣١٧.

(٥) الهمداني ، الإكليل ، ص ٢٥٢.

(٦) المفضليات ، ص ٣٠٢.

(٧) العُكَّة : جلد صغير يوضع فيه السمن .

(٨) المفضليات ، ص٩٩ . الأنوار ومحاسن الأشعار ، ص٧٢ .

(٩) ديوان عمرو بن معد يكرب ، ص ١٦٤ .

(١٠) صدر البيت : وتسمعُ للهنديِّ في البيضِ رَنَّةً ، انظر : ديوان عَمرو بن معدي يكرب ، ص١١٤ .

(١١) قصائد جاهلية نادرة ، ص ٩٢.

(١٢) القُضُب : جمع قضِيب وهو : السيف القاطعُ .

وهو كقرن الثور صلابة لايصدع وفي ذلك يقول بشر بن أبي خازم[١] :

يخشُّ بمدارهُ القلوبَ كأنما ... بهِ ظمأٌ مِنْ داخِلِ الجوفِ يَنْقعُ

بأسحمْ لأمٍ زانَه فوقَ رأسِهِ ... كما نَفَذتْ هنديَّةٌ لا تَصدَّعُ

والسيوف الهندية حينما تسلُ من أغمادها تتلألأ وتلمعُ كالبرقِ المتلألىء في حَبي مكلل يقول الربيعُ بنُ زياد العبسي[٢] :

تكسوهُم مُرْهَفَاتٍ غيرَ محْدَثةٍ ... يَشْفي اختلاسُ ظباها مَنْ بهِ صَعَرُ[٣]

هِنديةٌ كاشتعالِ البرْقِ يعصمُهمْ ... بِهَا مَغاوِيرُ عَنْ أحْسَابِهِمْ غُيرُ

ومن الشعراء الذين أجادوا وصفَ السيفِ الهنديِّ أوسُ بنُ حَجَرٍ يقول[٤] :

وأبيضَ هنْدياً كأنَّ غِرارَهُ ... تلألؤُ بَرْقٍ في حَبِيٍّ تكلَّلا[٥]

إذا سُلَّ مِنْ جفنٍ تأكَّلَ أثرُهُ ... على مِثلِ مِصحَاةِ اللُّجَيْنِ تأكلا[٦]

كأنَّ مَدَبَّ النَّمْلِ يتَّبعُ الرُّبى ... ومَدْرجَ ذَرٍّ خَافَ بَرْداً فأسْهَلا[٧]

على صَفْحَتَيْهِ مِنْ متونِ جَلائِه ... كفى بالذي أبْلى وأنْعتُ مُنْصُلا[٨]

فهذا الشعرُ يبينُ أنَّ السيف الهنديَّ حادُّ الشفرةِ ، يلمعُ كبرقٍ ظهر من خللِ السحب المتراكمة، فهو برقٌ شديدُ التَّوَهّج والإضاءةِ أمّا متنُه فهو كآنيةٍ من فضةٍ تسرُّ الناظرين ، فترى صفحتيه مستبينتين كوضوح الطريق الذي يرسمُه النَّملُ أو الذَّرُّ أثناء ذهابهِ وإيابه في الطريق نفسها ،فصفحتاه متوازيتان متَّسِقَتَان .

وهذه الصفاتُ الهمتْ بعضَ الشعراءِ في خَلْقِ صورٍ جديدةٍ للممدوحين ، فكما أن السيفَ الهنديَّ يُسْعِرُ الحربَ ويزيدُ لهيبَها ويبعثُ الحماسَ في قلب حامله ، فكذلك عمرو بنُ هندٍ حينما يغضب في الحرب كما يقول النابغةُ[٩] :

---

(١) الديوان ،ص ١٢.

(٢) الأشباه والنظائر ، ٢: ١٤٥ . وانظر كذلك تشبيه السيف الهندي بالبرق في ديوان امرئ القيس ص ٢٨٢.

(٣) الصَّعَرُ: الميل في الخدِّ مِنَ الكِبْر.

(٤) الديوان ، ص ٨٤ ، ٨٥ .

(٥) الغِرار : حدّ السيف. والحبيُّ : ما حبا من السحاب أي ارتفع وتكللَ السحابُ : صار بعضُه فوق بعض .

(٦) تأكل : توهج . أثر السيف : جوهره . المِصْحَاة : القدح .

(٧) المدبُّ :الموضع الذي يدب فيه . والرُّبى : جمع ربوة وهو ما ارتفع من الأرض . والمدرج: ما يدرج عليه .

(٨) الجلاء : الصقل . والمنصُلُ : السيف .

(٩) الديوان ، ص٢٠٣.

قَدْ خَلَتِ الحَرْبُ عَنْه فهو يُسْعِرها كالهندوانيِّ خَلَّى حَدَّهُ الأَدَمُ

وهذا زُهيرٌ يشبه ممدوحيه ذوي الهِمم والمضاءِ في العزم بالسيوفِ الهندية فيقول [١] :

بفتية كسيوفِ الهندِ يبعثُهم هَمٌّ فكلُّهم ذو حاجَةٍ يقدُ

وإذا كان البطل السَّميدعُ لا يخيّبُ ظنَّ قومِه به حينما تدور رحى الحرب ، فإن السيفَ كذلك لا يخزي صاحبه إذا عرف هذا كيف يضارب به ، فإذا كان ثمة عيبٌ فليس في السيف وإنما يكون في حامله :

مُوَرِّث المجد لا يغتالُ هِمَّتَهُ عن الرِّياسة لا عَجْزٌ ولا سَأَمُ [٢]

كالهندوانيِّ لا يخزيكَ مَشْهَدُهُ وَسْطَ السيوفِ إذَا ما تُضْرَبُ البُهَمُ

٣- الرماح

من الأسلحةِ التي كانت تجلبُ من بلادِ الهند الرماحُ ، ومن نافلةِ الحديثِ أنْ يقال :إن ذكرَ الرماحِ في الشعر أقلُّ من ذكر السيوفِ ، وهذا يعود إلى أهمية السيف في الحروب ، فهو أكثرُ استخداماً ، وأسهلُ حملاً، وهو السلاحُ الذي يميز الرجال ، ولهذا كثُرَ الحديثُ عنه ، خاصةً السيف الهندي واليماني ، أمّا الرماح فتتطلب بُعْدَ الرامي عن المرمى ، وتحتاج إلى الرَوِيَّةِ والتأني والدقةِ في التسْديدِ ، ومن الرماح الممتازةِ، الرمح الهندي وقد وصفه عَبِيْدُ بنُ الأبرصِ فقال [٣] :

هاتيكَ تحملني وأبيضُ صَارِماً ومُحَرَّبًا في مَارِنٍ مَخْمُوسِ [٤]

صَدْقٍ مِنَ الهنديِّ أُلبِسَ جُبَّةً لحقتْ بِكعْبٍ كالنُّواةِ مَلِيسِ [٥]

نتبين من شعرِ عبيد أن الرمحَ الهنديَّ بائنُ الطولِ ، ومثقفٌ لا تجدُ فيه إعوجاجا أو نتوءاً ، وأملس يريح يدَ الرامي ، وذو سنان شديد الإحكام يتصلُ بقناةٍ لينة ملساءَ ، ومن القبائل التي كانت تستخدم السيوف والرماح الهندية قبيلةُ بكر يقولُ أحد شعرائها وهو الفِنْدُ الزِّمَّانيُّ شَهْلُ بنُ شيبان [٦] :

وَنَهَيْنَا عَنْ حَرْبِنا تَغْلِبَ العشـ ـرَ فَما عَافَتِ البَلاءَ المتَاحَا

دُونَ أنْ أبْصَرَتْ خُيولاً لبَكرٍ وَسُيوفاً هِنْدِيةً وَرِمَاحَا

---

(١) شرح الديوان ، ص٢٠٢.

(٢) المصدر السابق ، ص١٢٦.

(٣) الديوان ، ص ٧٠ .

(٤) المحرَّبُ : السنان . المارِنُ : القناةُ اللينةُ . المخموسُ : الرمح طوله خمس أذرع .

(٥) الصدقُ : المستوي من الرماح . والجُبَّةُ : ما دخل فيه الرمح من السنان . والمليس : الأملس .

(٦) انظر : د. حاتم الصالح الضامن ، عشرة شعراء مقلون ، ص ١٣ .

فإذا كان البكريون يستخدمون السيوف الهندية فمن المرجّح أن رماحَهم هنديةٌ أيضا، على سبيل حذف الصِّفة بعد الموصوف من قوله (ورماحاً) والتقدير «ورِمَاحاً هنديةً» ومِنَ الشعراء الذين ذكروا الرماحَ الهنديةَ العُدَيْلُ بنُ الفَرْخ العجْلي [١]:

كِلانا يُنـــــادِي يانِزارُ وَبَيْنَنَا قَنَا مِنْ قَنَا الخطيِّ أوْ مِنْ قَنَا الهنْدِ

ففي هذا البيت تفريق واضح بين ضربينِ من الرماح ، رماح الخط[٢] ورماح الهند ، ورماحُ الخط نسبة إلى الخَطِّ ،وهي مَرْفأُ السفن بالبحرين ، تُنْسبُ إليه الرماح ، يقال رمح خطيٌّ ، ورماح خَطِيةٌ ، وليست الخطُّ بمنبتٍ للرماح ، ولكنها مَرْفأ السفن التي تحمل القنا من الهند[٣] ، فإذا ما وصلتْ إلى الخط قُوِّمَتْ وبِيعَتْ على العرب[٤] ولعلَّ الذين يعيدون تثقيفها وتجويدها في الخط هم من الهنود.

وذكر السيوف والرماح الهندية في الشعر الجاهلي له قيمة تاريخية يكشف عن قوة العلاقات التجارية بين الهنود والعرب ، ويبين أن الهند كانت بلداً صناعياً ، وأنَ السِّلاح المصنوعَ فيها ذو شهرة واسعة ، جعلتِ العربِ يجنحون لشرائه ، ويحرصونَ على اقتنائه مهما كان غاليَ الثمنِ .

---

(١) حماسة أبي تمام ، ص ٣٠٥ .

(٢) انظر وصف رماح الخط في شعر حَاجز بنِ عَوفْ في : الأغاني ، ١٣: ٢١٤ ، والربيع بن زياد العبسي في : الأشباه والنظائر ، ٢:١٤٥ ، وإياس بن قبيصة الطائي في شرح ديوان الحماسة ، ١: ٢٠٧ وشرح ديوان زهير بن أبي سلمى ، ص٥٩.

(٣) انظر: اللسان ، خطط . معجم ما استعجم ، ٢:٥٠٥ . الروض المعطار في خبر الأقطار ، ص ٢٢٠ .

(٤) معجم البلدان ، ٢: ٣٧٨ . شرح اختيار المفضل ، ٢: ٥٨٩ . الأبرار ومحاسن الأشعار ، ص٢٥.

الفصل السادس

آثارٌ فارسيةٌ في شعرِ الأعْشَى

آثار فارسية في شعر الأعشى

يمتاز الأعشى عن غيره من شعراء الجاهلية بشيوع آثار فارسية في شعره ، وتجدر الإشارة إلى أنه كان ثمة شاعران جاهليّان عُرِفا باتصالهما الوثيق بالفرس وهما عديُّ بنُ زيد العبادي وإياس بنُ قَبيصَة الطائيُّ ؛ فعديّ كانَ مُتَرْجِمًا في البلاطِ الكسْرَوِيِّ وسَفَرَ بين كِسْرَى وقيْصر الرُّوْم ، وأصْهَرَ إلى النُّعمَان بن المُنذر ملكِ الحيْرَةِ في ابنتِه هِنْدَ ، وكان عند كِسْرَى بمنزلةِ المستَشَار للشؤون العربية ، كماأنَّه قرَّرَ بحنكتِه السياسيةِ مصيرَ العرش الحيْريّ . أمّا إياس فكانَ قائداً سياسيّاً وعَسْكرِيًا اعتمد عليهِ كِسْرَى في مَوْقعةِ ذي قار ، ثم ولاّه الحِيْرَةَ، وهذا جَعَلَه دائمَ الاتصالِ بِكِسْرَى إلى أنْ ماتَ .

ولكنّ الباحثَ في شعْرِ عَديٍّ لا يجدُ إلاّ إشاراتٍ قليلةً عن ملوكِ الفُرْسِ ، وَعَبَثِ المنية بهم ، أمّا شعرُ إياسٍ القليلُ فلا نجد فيه شيئاً عن الأكاسرة والفرس ، فالشاعران سياسيان لم يكن يَهُمُّهُمَا ذكر مظاهر الحضارة الفارسية في شعرٍ لا يفهمه الأكاسرة وساسة الفرس .

وإذا ماعُدْنَا إلى الأعشى وجدناه شاعراً يُطوِّفُ في أنحاءِ الجزيْرَةِ [1] مادحاً ملوكها وسراتَها ، كآل جفنةَ ملوك الشام ، والمناذرة ملوكِ الحيْرةِ ، وسلامة ذي فائش في اليمن ، وقيس بن مَسْعُود وهَوْذَة بن علي الحنفي التابعين للأكاسرة ، فأتاحت له هذه الأسفار مالم تُتِحْ لغيره من شعراء الجاهلية .

وكان لقرب اليمامة وديار بكر من بلاد فارس والحيرة أثر في الاتصال التاريخي والحضاري بين بكرٍ قبيلة الأعشى والفرس ، وقد تجلّى ذلك الاتصالُ في العلاقة السياسية الممتازة بين الأكاسرة منْ ناحية وسيدين من سادة بَكْرٍ هما : قيْسُ بنُ مَسْعُودٍ ، وهوذةُ بن علي الحنفيُّ ، وكان من دواعي الاتصال كذلك وَقْعةُ ذي قار المشهورة ، ولهذا فإن سُبُلَ الاتصال كانت قائمة بينَ الفرس وقبيلة بكر ، ولا يمكن لشاعرٍ مثلِ الأعشى أن يقف بعيداً عن هذه الأحداث .

أمّا الحيْرَة فكانت أكثرَ بلاد العرب تأثراً بالفرسِ ، ولهذا كَثُرتْ بها مظاهر الحضارة الفارسية وكان الأعشى دائم الترحالِ إليها ، وكأني به حينما يفدُ على الحِيْرَةِ لا ينسى نصيبه من الشَّراب ومجالس اللَّهْوِ ، فصوَّر بعضَ مشاهدِ تلك المجالس ، وهي مجالسُ فارسيةٌ ، ولهذا كثرتْ الألفاظ والمظاهر الفارسية في شعرهِ وهذه أهم الآثار الفارسية في شعر الأعشى :

---

(١) ذكر بعض العلماء : أن الأعشى كان يفد على كسرى ومن ذلك ما رواه الأصفهاني من أن الأعشى أنْشَدَ كسرى قصيدته :

أرِقْتُ وَمَا هذا السُّهادُ المُسَوَّقُ ... وَما بِي مِنْ سُقْمٍ وَمَا بِيَ مَعْشَقُ

(الأغاني ، ٩ : ١١٢) وذكر ابن قتيبة : أن الأعشى كان يفد على ملوك فارس ولذلك كثرت الفارسية في شعره (الشعر والشعراء ، ص١٥٤) بيْد أنّنا لا نجد في شعرِ الأعشى ما يثبت وفادتَهُ على كِسْرى .

١. أخبار الأكاسرة :

إنّ الأعْشى حينما يتحدثُ عن الأكاسرة يتحدثُ عن ملوك لهم من الأمر والسلطان مالا يتوافر في شيوخ القبائل العربية فهو يضعهُم في مكانهم السياسي ، فعدُّ موتهم أمراً غريباً يحمل إلى الباحثينَ عنِ الخلودِ في الحياةِ العبرةَ والعِظَةَ ، فإذا كان غيابُ هولاء الأكاسرة حقيقةً بَعْدَ أنْ قبضوا على صولجانِ الحُكْمِ والعظمةِ ، وملكوا من الأموال وسبلِ التّرفِ مالايمكنُ أن يصل إليهِ امرؤ من الناس فإنَّ الإيمانَ بحتمية الموتِ حقيقةٌ أبديةٌ لامناصَ منها . ومن أولئك الأكاسرةِ ساسان، وكسرى ملك الملوك الذي كان له مايشاء من الخمر والرياحِينِ [١] ، وذِكْرُ الأعشى لهؤلاء الملوك يدلُ على ثقافَة الأعشى التاريخيةِ بهؤلاء الأكاسرة ، ومتابعته لأخبارهم وسِيَرِهِمْ .

وينظر الأعشى إلى الأكاسرة نظرةً أخْرى باعتبارهم قادة عسكريين يغزون أعداءهم ، كما فعل سابور الجنود الذي غزا الحضْرَ وحاصره حتى استطاع أن يدخله منتصراً [٢] ، ويظهر من شعر الأعشى أن كسرى كان يأخذ أبناء بعض العرب رهينة [٣] ، فهو بذلك يفسد أولئك الأبناء كي يكونوا موالين للدولة الفارسية ، ولهذا فالأعْشَى يرفض هذه الظاهرة ، ويطلب من كسرى البقاء في قصْرِه معتصباً بالتاج لأنّه ليس أهْلاً لمنازلة الشيبانيين وإجبارهم على بعث أبنائهم له ، فلبسُ التاج إنْ دلّ على الملك فإنّه أحياناً لا يدلّ على القوة .

ومن قادة الفرس المشهورين الهَامَرْز الذي تولّى قيادة الفرس في موقعة ذي قار يقول عنه الأعشى [١] :

فَجَاءَ القَيْلُ هَامَرْزٌ ... عَلَيْهِمْ يُقْسِمُ القَسَمَا

يَذُوقُ مُشَعْشَعَاً حَتّى ... يُفِيءَ السَّبْيَ والنَّعَمَا

فَلاقَى المَوتَ مُكْتَنِعَا ... وَذُهْلاً دُوْنَ مَازَعَمَا

ويبدو أنَّ قائدَ الفرس قد أقبل مُطيعاً لأمر كسرى ، فهو يقسمُ الأيمانَ ليهزِمَنَّ بكراً وليرجعنّ بسبايا وأموال بكرٍ ، وَهو قائدٌ مُخْلِصٌ لقومهِ الفرس لأنّه يحرّمُ على نفسه الخمرَ حتى يؤوبَ قومُه رافعينَ رايةَ النصر، ولكنه لم يجد في أرضِ ذي قار إلاّ الموتَ .

---

(١) الديوان ، ص٢١٧ .

(٢) الديوان ، ص٤١ .

(٣) الديوان ، ص٢٣١ ، ٢٣٣ .

(٤) الديوان ، ص٣٠١ .

٢. عَلاقةُ الفُرْسِ ببكرٍ وسادتِها :

يظهرُ مِنْ شِعْرِ الأعْشَى أن العَلاقةَ بينَ قبيلتهِ بكرٍ والفرسِ عَلاقةٌ عِدائيةٌ ، ولكون الأعشى بَكْرِياً فإنّه من البديهي أن يقف مع قبيلته ليحيَ مآثرها ويبعثَ الحماسَ في رجالِها ضدَّ أعْدائِها ، وكان لبكر قدرُها الجغرافيُّ والتاريخيُّ لتقف أمام القوةِ الفارسيةِ لتذود عن استمرارية وجودها النضالي وحقِّها في الحياةِ الكريمةِ دون تسلّط الأكاسرة ، الذين اتبعوا سياسة الهجوم كَي يحققوا لدولتهم الوحدة ، فلا تتعرض أطرافُها لتهديد البكريين وغيرهم من العرب ، ولكي يؤمِّنوا طرقَ القوافل التجارية فلا تُنْهَبُ من قِبلِ العابثينَ .

وازداد العداء بين الفرس وبكر قبيل حدوث موقعة ذي قار ، وتطورتِ الأحداثُ حتى التقى الجمعان وتحارب الفريقان ويصف الأعشى في إحدى قصائده [١] أحداثَ تلك الموقعةِ ، فقدِ اصطفَّ الجيشانِ ، جيشُ الفرس يقودهم الهَامَرْز ، وجيشُ بكرٍ حاملُ الموت والغضب إلى الفرس أبناء الملوك ، فالجيش الفارسيُّ ذوو عددٍ كبير تنبيء صورته بالرهبة والعظمة ، لكنهم لم يثبتوا أمام فرسان بكر ، ويشيرُ الأعشى في هذه القصيدة إلى تفرقِ العربِ عن بكرٍ وعدم مشاركتهم في تلك الموقعة فخسروا بذلك شرفاً عظيماً يقول [٢] :

لوْ أنّ كلَّ مَعَدٍّ كـانَ شَارَكَنـا فيْ يوْمِ ذي قارَ ماأخْطَاهُمُ الشَّرفُ

إنّ هدف الفرس كان تأديب البكريين ، ونحت أثلتهم [٣] فقد أقبلوا بجيشهم اللجب يهد السُّهْلَ والأكما ، وكانوا مستعدين للقتال ، حتى أنّ قائدَهم الهَامَرْز أقسَمَ أنْ لا يشربَ الخمرَ حتى يهزمَ بكراً .

ويقارن الأعْشى بين حالة الهامَرْز وجنوده قبل المعركةِ وحالتهم بعدها [٤] ، فكانت صورتهم توحي بالكِبْر والخيلاء ، تَبْرِقُ فوق رؤوسهم الخوذات كأنّها النجومُ اللامعة ، ويلبسون الدروعَ الخفيفة كي لا تُعوِّق حركتهم وصولاتِهم ، وتخْفِقُ فوقهم الراياتُ الطِّوَالُ كأنها عقبات هوتْ وهيَ متعلقة بالفضاء ، وحينما جَدَّ الجدّ واحتدم القتال ، قاتل الشيبانيون وقاموا من دون الحِمى يضاربون الفرس ويمنعون نساءهم وَقَدْ حَلَلْنَ هوادِجَهُنّ ، وقطعْنَ سيورها ، فأخذ الشيبانيون يَنْقضّونَ عليهم بخيولهم الجامحةِ ، فتفتحتْ أبْوَابُ السماء بالموت يَنْهَمِرُ على الهامَرْزِ وجنوده ، فكانتِ النتيجةُ قتلَ الهامَرْز ، وهزيمة جنوده ، فقُتِلَ مَنْ قُتِلَ وَفَرَّ من بقيَ حيّاً .

فالعلاقة بين الفرس وبكْر عَلاقةٌ عدائيةٌ ، ولم يظهر في شعر الأعشى ضروباً من العلاقات المختلفة

---

(١) الديوان ، ص٣١١ .

(٢) الديوان ، ص٣١١ .

(٣) الديوان ، ص٢٩٩ ، ٣٠١ ، ٣٠٣ .

(٤) الديوان ، ص٣١١ .

الأخرى ، ويُلاحظُ أن الأعشى لا يتحدثُ عن نفسه فليس ثمة دلالات توحي بمشاركتهِ في هذهِ الموقعةِ التاريخيةِ ، كذلك لا يصف بطولات رجالِ بكر في هذه الموقعةِ ، ولعل ذلك يعودُ إلى طبيعة الحياة في العصر الجاهلي ، ورؤية الإنسان الفرد المعبرة عن الروح الجماعية ، حيث يندغم الفرد بالقبيلة ، وتفنى شخصيتُه في الجماعة ويبقى أسيراً في المنظومة القبلية ، ولهذا كان شعر الأعشى يصوِّر بطولةً جماعية قام بها البكريون ، فلم يصورْ أشخاصاً أو أفراداً ، فالبطل لا يستطيع أن يحقق النصر وحْده ، فقبيلة بكر جمعاء هي صاحبة النصر .

ومن شيوخ بكْرٍ الذين تحدَّثَ الأعْشَى عن علاقاتهم مع الفُرسِ قَيْسُ بنُ مسعود الشيْباني ، ويظهر من شِعْرِ الأعْشَى أنَّ قَيْساً كان مع جيش الفرسِ في ذِيْ قار وفي ذلك يقول [١] :

تَناهَتْ بَنُو الأحْرَارِ إذْ صَبَرتْ لهُمْ ... فَوَارِسُ مِنْ شَيْبَانَ غُلْبٌ فَوَلَّتِ [٢]

وأفْلَتَهُمْ قَيْسٌ فَقُلْتُ لَعَلَّهُ ... يَبِلُّ لَئِنْ كانَتْ بِهِ النَّعْلُ زَلَّتِ

ففي هذين البيتين نرى أنّ قيساً كان يقاتل مع الفرس ، وحاول البكريون أن يأسروه ويقبضوا عليه ، لكنّه أفْلَتَ مِنْهُمْ . ويَعُدُّ الأعْشَى موقفَ قيسٍ من قبيلته بكر خطأً ، ولكنّ الشاعر لايشيرُ إلى الدافع الذي دفع قيساً ليحارب مع الفرس ، ولعلَّ ثمةَ أمراً لم يَذكره الأعْشَى جعل قيساً يقف هذا الموقف ، والذي يؤيد ذلك أنّ الشاعرَ يتمنى نجاةَ قيس من سيوف البكريين ، وأغلبُ الظن أنّ قيساً كان مُتَّصِلاً بقومهِ بكرٍ ويطلعهم على أخبارِ وَخطَطِ الجيش الفارسيِّ دون علم قادة الفرس وجموع البكريين ، فهو بذلك لا يفسد علاقته مع الأكاسرة حيث ولي من قبلهم طفَّ العراقين والأبُلَّة ، وهو من ناحية أخرى لا يريد أن يعرفَ أمرَه جيشُ بكر فيشيعَ خبرهُ ويعلمُ به الفرسُ ، فقيس كان بين الجيش الفارسي موثوقاً به ولكنّه في الوقت نفسه مع قومهِ ، ولهذا لاغرو أن يتمنّى الأعشى له النجاة من سيوف البكريين الذين لا يعلمون علاقته السرية مع قادتهم .

وبعد انجلاء معركة ذي قارَ يشير الأعشى إلى خروج قَيْسِ بن مَسْعُودٍ إلى كسرى طالباً السِّلْم والصَّفْحَ [٣] ، وذهاب قيس إلى كسرى أمرٌ لاترضاه قبيلتُهُ خاصة وأن نجيعَ أبنائها لم يجفّ بَعْدُ ولذلك يتمنى الأعشى لو أن القوابلَ غرقت قيْساً في الماء الخارج أثناءَ ولادته ، أو لو كان متاعاً تَافِهَاً مُلْقَى في عَرْضِ الطريق تجري عليه السيول فتكسحه وتجرفه ، أوْ لو حال البحرُ بينه وبينهم فلا يرونه أبَداً ، وسببُ سَخْطِ الأعْشَى على قيس تَرْكُه قبيلته وقومه وهُمْ أهلُ القبابِ والكتائب والخيل والسلاح ، فالبكريون أشداء على الأعداءِ وأهل كرم وعطاء ، ودليل ذلك انتصارهم على الفرس ، وكانَ قَيْسٌ شاهداً على ماحَلَّ بهم من قتل وسبي في

---

(١) الديوان ، ص٢٦١ .

(٢) تناهى عن الشيء : كَفَّ عنه . غُلْبٌ : جَمْعُ أغلب ، وهو غليظ العُنُقِ . يَبِلُّ : يضرب في الأرض .

(٣) الديوان ، ص١٨٣ ، ١٨٥ .

يوم ذي قارَ ، فليس ثمة داع يدعوه للذهاب إلى كسرى ، ونتبين من حديث الأعشى أن قيساً عميدَ بكر وسيدَها كان يسعى إلى فارس كي يرضيَ كسرى فيعرض عن تجاوزات بكر ويصفح عنهم ، فبقاءُ العداء بين الفرس وبكر سيؤثر في علاقة قيس مع كسرى وفي ماكان يتمتع به مِنْ مكانةٍ جَليلةٍ في البلاط الكسروي ولكنّ البكريين يرفضون سعي قيس ولهثه وراء الصُّلح لأنهم لم يعودوا قوماً ضعافاً بل أضحوا قوةً تستطيع مقارعة الفرس .

ومن شيوخ بكر الذين كانت لهم علاقاتٌ مع الفرسِ هَوْذَةُ بن على الحنفي ، وقبيلةُ حنيفةَ إحدى فروع بكْرِ بن وائل ، ويبدو من شعر الأعشى أنّ هوذةَ كان من أعيانِ بكر [١] ، وكان مملّكاً على قومه ويُسميه الأعشى ملكاً فيقول [٢] :

إلى مَلِكٍ كَهلالِ السَّـــــما أزْكى وفاءً وَمَجْداً وَخيْـــــرا

أمّا علاقَةُ هوذةَ بالفرس كما يُصوِّرُها الأعْشى فهي علاقة وِدٍّ تتبين من اتصال هوذة بالبلاط الكسروي حيثُ كان كسرى يجزل المالَ لهوذة حينما يفد عليه في المدائن كما يقول الأعشى [٣] :

مـن يَلْقَ هَوْذَةَ يَسْجُدْ غيْرَ مُثْبِـــ إذَا تَعَصَّبَ فَوْقَ التَّاجِ أوْ وَضَعَـا

لَهُ أكالِيلُ بالياقُـــوْتِ زَيَّنَـــــهَا صَوَّاغُهَا لا تَرَى عَيْباً ولا طَبَعَـــا

وَكُلُّ زَوْجٍ مِنَ الدِّيبَاجِ يَلْبَـــسُهُ أبُـــو قُدَامَةَ مَحْبُوٌّ بِذَاكَ مَعَـــا

فالأعشى يُشيرُ في هذا الشعرِ إلى صورة هَوْذة لابساً تاجَه ، وهذا مَظهرٌ من مظاهر الملك الفرسي ، فالتاج علامة من علامات ذلك المُلْكِ ، ولم يكنْ من مظاهر شيوخ العرب لبْسَ التاج والتزين بهِ ، ولكنّ هوذة يلبس تاجاً فارسيَّ الصنع ، ويتلفَّعُ بالديباج الفارسي أيضاً ، وهما منحة من كسرى أعطاهما إيّاه ، وفي ذلك دلالةٌ على عُلوِّ كعبِ هوذه في البلاط الكسروي ، وعلوِّ منزلتهِ عند كسرى وأن هذا كان يستميلُه ويتألّفُه ، وهَوذةُ في زِيِّهِ وهيئته تلك يحاول مضارعةَ الأكاسرة في مظهرهم الملكي ، وعلو منزلةِ هوذَة عند كسرى تعود إلى ماكان يزجيه للفرس من خِدْماتٍ كثيرة ، فقد كان يُجَيِّرُ لطائمَ كسرى [٤] ، ويحرسُها أثناء مرورها باليمامة ذاهبةً أو آيبةً من اليمن ، ولهذا فكسْرَى يقبلُ شفاعته في إطلاق مائةِ رجل من أسرى تميم حينما أُزمِعَ على قتلهم بعد أنْ نهبوا قافلةً من قوافله في موضع من أرضهم يُسَمّى نِطَاع وفي ذلك يقول الأعشى [٥] :

---

(١) انظر مدح الأعشى لهوذة في الديوان ، ص٦٥ ، ٦٧ ، ٨٩ ، ٩١ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١١ .

(٢) الديوان ، ص٩٧ .

(٣) الديوان ، ص١٠٧ .

(٤) انظر : العقد الفريد ، ٢:٩٢ .

(٥) الديوان ، ص١٠٩ ، ١١١ .

سَائِلْ تَمِيْماً بِهِ أيَّامَ صَفْقَتِهِم ... لَمَّا رَآهُمْ أَسَارَى كُلُّهُمْ ضَرَعَا[1]

وَسْطَ المُشَقَّرِ فِيْ عَيْطَاءَ مُظْلِمَةٍ ... لاَيَسْتَطِيْعُوْنَ فِيْهَا ثَمَّ مُمْتَنَعَا [2]

لَوْ أُطْعِمُوْا المَنَّ وَالسَّلْوَى مَكَانَهُمُ ... مَا أَبْصَرَ النَّاسُ طُعْمَا فِيْهِمُ نَجَعَا[3]

بِظُلْمِهِمْ بِنَطَاعٍ المَلْكِ ضَاحِيَةً ... فَقَدْ حَسَوْا بَعْدُ مِنْ أَنْفَاسِهِمْ جُرَعَا [4]

أَصَابَهُمْ مِنْ عِقَابِ المَلْكِ طَائِفَةٌ ... كُلُّ تَمِيْمٍ بِمَا فِيْ نَفْسِهِ جُدِعَا

فَقَالَ لِلْمَلِكِ سَرِّحْ مِنْهُمُ مائَةً ... رِسْلاً من القَوْلِ مَخْفُوْضَا وَمَارَفَعَا[5]

فَفَكَّ عَنْ مائَةٍ مِنْهُمْ وِثَاقَهُمُ ... فَأَصْبَحُوْا كُلُّهُمْ مِنْ غُلِّهِ خُلِعَا [6]

ونتبينُ مما سَبَقَ أنّ العلاقةَ بين الفرسِ وبكرٍ كانتْ عدائيةً خلقتها وقعة ذيْ قارَ بأسبابها ونتائجها المختلفة، وهذا العداء لم يمنعْ رجلين من ساسة بكرٍ وسادتها وهما : قيسُ بنُ مسعودٍ ، وهَوذةُ بنُ عليٍّ الحنفيُّ مِنَ التَقرّبِ من الفرس والوفود على كسرى لِيُحقّقا لِطيّاتٍ خاصةً في نفسيْهِمَا.

٣. عَلاقَةُ الفُرْسِ بالمناذرَة :

كان الأعشىَ يختلف الى الحيرة ليمدح ملوكها ، ويلهو في بيوتاتِ اللهو والشَّراب ، وكانت الحيرةُ مركزاً متحضراً يفدُ عليها العربُ والفرسُ ليشهدوا منافع لهم ، والمعروفُ أنّ الحيرةَ كانت ترتبط ارتباطاً قويّاً بالفرس، ويفرض هذا الارتباط التاريخي والسياسي والتجاريُّ ضروباً من العلاقات المختلفة ، ويذكرُ الأعْشى شكلاً من التعذيب استخدمه الأسودُ بن المنذر أحدُ إخوةِ النّعمان ملك الحيرة حينما أَوْقَعَ ببني محارب بن خصفَةَ من قيس عيلان فأحمى لهم الأحجار وسيرهم عليها فتساقطَ لحمُ أقْدامهم وفي هذا يقول الأعشى مادماً الأسود [7] :

---

(١) خلاصة حديث الصفقة أن تميماً نهبتْ قافلة من قوافل كسرى في موضع من أرضهم يُسمّى نطاع ، فآوى هوذةُ رجالَ القافلة الذين كانوا يحرسونها ، ثم دبّرَ مكيدة للإيقاع بتميم ، وذلك بأن يمنع عنهم الميرةَ ، فإذا نالتْ منهم الحاجة أقام لهم سوقاً في حصن المشقّر فإذا تهافتوا فيه قتلهم ، ولكن التميميين تنبهوا للأمر حين رأوا الداخل لايخرج فثاروا على هوذة ، فأمر بإطلاق مائة من سادتهم ، والأعشى في هذه الأبيات ينفي عن هوذة أنه اشترك في تدبير المؤامرة . انظر : الأغاني ، ١٧ : ٢٣٧ - ٢٤ .

(٢) المشقر : حِصن قتل فيه كسرى بني تميم . عيطاء : هضبة مرتفعة .

(٣) المنّ : طلٌ ينزل من السماء فيجتمع على الأشجار والأحجار وينعقد عَسَلا فيؤكل . السَّلْوى : طائر أبيض . نَجَعَ : نَفَعَ .

(٤) نطاع : الموضع الذي نُهبت فيه قافلة كسرى . حسى : شرب .

(٥) رسلاً من القول : أي برجوه في لين وهدوء .

(٦) الغُلّ : الوثاق والقيد .

(٧) الديوان ، ص ٩ ، ١٠ .

وَلَقدْ شُبِّتِ الحُروبُ فمـــا غُمَّـ ... ـرْتَ فِيهَا إذْ قَلَّصَتْ عَنْ حِيـالِ [١]

هَوْلَى ثُمَّ هَـــوْلَى كُـــلاً أعْـ ... ـطَيْـــتَ نِعالاً مَحْذُوَّةً بِمِـــثَالِ

وهذا الأسلوب من التعذيب عادة فارسية يستخدمها الأكاسرةُ في اضطهاد أعدائهم ، ويذكر أرثر كريستنسن حادثةَ تعذيب كسرى لستّة عشرَ مسيحيّاً رَفضُوا الدخولَ في المجوسيّةِ «فقد قامَ رئيسُ المغاني بتعْرِيَةِ ستةَ عشرَ مسيحياً بأمرٍ من بَهرام الخامس رفضوا الارتدادَ عن دينِهِم وأمرَ بسوقهم كل ليلة إلى الجبلِ ، حيثُ يتركون وقد صُفِّدوا بالأغلالِ وبأن يقدَّمَ لهم من الطّعام والماء ما يكفي لإبقائهم أحْياء ، وَبعْدَ أن أستُهْدِفُوا لهذا العذاب أسبوعاً قال رئيس المغاني لحارسهم : اذهبْ وَقُلْ لهم إن الملكَ يأمُركُم بالعملِ برغبته وبعبادةِ الشمس ، فإذا لم تفعلوا فإنّي سأوثقُ بالحبالَ أرْجُلكم وأجركمْ في أرْجَاء الجبل حتى يتساقطَ اللحم عن عظامكم ، وتبقى جثثكم بين الأحْجارِ ، ولا يبقى منها غيرُ العرقوبِ الذي شُدَّ بالحبلِ»[٣] .

ومن المظاهر الفارسية التي تسربت إلى المناذرة ما ذكره الأعشى في مَدْحِ الأسود بن المنذر حيثُ يقول [٤]:

يَهَبُ الجِلَّةَ الجَراجِرَ كالبُسْـ ... ـتَانِ تَحْنُو لِدَرْدَقٍ أطفَالِ [٥]

والبغايا يَرْكُضْنَ أكْسِيَةَ الأضـ ... ـريحِ والشَّرْعَبِيَّ ذا الأذْيَالِ [٦]

وجِيَاداً كأنّها قُضُبُ الشَّوْ ... حَطِ تَعْدُو وبشكَةِ الأبْطَالِ [٧]

والمكاكِيكَ والصِّحَافَ مِنَ الفضـ ... ـةِ وَالضَّامِزَاتِ تَحْتَ الرِّجَالِ [٨]

فالأميرُ الحيريُّ يَهَبُ الكبارَ من الابلِ وكأنّها النخلُ في ضخامتها وصلابتها ، ويهبُ كذلك الجواري اللائي يَرْفُلْنَ في الثياب الحريرية ذات الألوان المختلفة، ويمنح الخيول كأنّها قُضُبُ الشوحَطِ ، ويعطي كؤوس الخمرة ، وآنية الفضّية ، ويعطي الإبل التي لا تجترُّ ولا ترغو إذا امتطاها الرجال.

إنّ هذه الهدايا بما لها من بريق خاص تختلف عن هَدَايا شيوخ القبائل العربية الذين كان الواحد منهُمْ

---

(١) ما غُمِرْتَ : الغُمر بضم الغين : الغرُّ الذي لم يجرب الأمور . قلصتْ : شمرتْ . عن حيال: يشبهُ الحرب بالناقة التي حملت بعد أنْ كانت حائلاً لا تحمل فهو أشدُّ لها .

(٢) يشير إلى إيقاع الأسود ببني محارب ، محذوّة بنعال : حذا النعل حذوها ، قدرها على مثال.

(٣) إيران في عهد الساسانيين ، ص ٢٩٦ ، ٢٩٧.

(٤) الديوان ، ص ٢٤٣.

(٥) الجِلَّةُ : الكبارُ من الإبل . الجراجرُ : الضّخام . البستان : النخل . الدرْدَقُ : الصغار .

(٦) البغايا: الإماء . الإضريح : الحرير الأصفر . الشرْعَبيّ : الحرير الأحمر.

(٧) الشّوحط : شجر يتخذ منه القسي . الشكة: السلاح .

(٨) المكاكيك : جمع مكوك : وهو مكيال يساوي ستة أرْطالٍ يشرب به الفرس . وضَمِزَ البعير : أمسك جرّتهُ في فيهِ.

«يقري ضيفاً ، أو يهب بعيراً ، أو عدداً من الشاء قليلاً»[١] ومن الواضح أنّ هدايا الأمير الحيري تضاهي هدايا الأكاسرة ، وكأنّ الشاعرَ يبرز ما للوجهِ الفارسيِّ من نفوذٍ ، ومن المظاهر الفارسية التي مُدِحَ بها الأميرُ الحيريُّ مَنْحَهُ الإبل التي لا تجترُّ ولا ترغو إذا ركبها الرجال وهذا مظهر من مظاهر المُلْكِ الفارسيِّ «إنّ الملك إذا هَمَّ بالمسير في نُزْهةٍ أو بعضِ أمورِهِ فإنّ الأساوِرَةَ والدبيربد والموبذان ومن أشبَه هؤلاء مِنْ خاصة الملكِ يعرضونَ دوابَهم على راضة الملك وصاحب دوابهِ ، لأنّه ينبغي ألاّ يكونَ حصان أحدهم بليداً ، أو كثير النفور أو العِثار أو الجماح فيكون على الملك من ذلك بعضُ ما يكرهُ ، ويجبُ الا يطلبُ الحصان المحاذاة لسير دابة الملك وإن أرادَ ذلك منه راكبه ، ويجبُ ألا يُرَوِّثَ أو يبولَ أو يتحصن أو يتشغبَ ولذا كان على الأساورة ألا يطعموا دوابهم في اليوم السابق على الخروج مع الملكِ»[٢] .

فهذهِ بعض الملامح الفارسية في مُلوكٍ وأمراءِ المناذرة كشَفَ عَنْهَا شِعْرُ الأعْشى الذي أراد أن يَظهرَ شخْصيّة الأميرِ الحيريّ بمظهر الأكاسرة، ويمنحَ تلك الشخصيةَ بعض مظاهرِ وعظمة أولئك الملوك، فالأعشى مَدَحَ الأمير الحيري وشبّه بَعْضَ فَعَالِه بِفعَال كسرى ، فهذا الملك يُعَدُّ عند ملوكِ الحيرة وأمرئها المثلَ الأعلى، وإخَالُ أنهم كانوا يؤثرون أن يشبّههُمْ الشعراءُ بالأكاسرة لا بشيوخ القبائل العربية .

٤. مَجَالسُ الشَّرَابِ :

من المشاهد التي ينقلهُا الأعْشَى عن الحضارة الفارسية ومافيها من لهوٍ وترفٍ مجالس الشراب ، وهو في وصفِ ما في هذه المجالس يكثرُ من الألفاظِ الفارسية مما يَدُلُّ على أثرِ الحضارةِ الفارسيةِ ، وطبع تلك المجالسِ بطابع فارسي ، ومن هذه المشاهد:

أ : ساقي الخمرة :

لقد أطرى الأعشى الخمرةَ المصنوعة في خُسْرُوانِ ، فهي تجعلُ شاربها يتمايلُ ويهتز طرَبَاً يقول الأعشى [٣] :

وَطِـــلاءِ خُســـــرُوانيّ إذَا ذَاقَهُ الشّيخُ تغنّى وأرْجَـــحَنْ

ومن الشخصيات التي يصوّرُها شخصية ساقي الخمر ، فهو فارسيٌّ، يشدُّ على فمهِ الفُدَامَ وَهِيَ خِرْقَةٌ بيضاءُ تضعها الفرسُ على أفواهِهَا عند السقي ، ويحلّي أذنيهِ باللؤلؤ، ووضع اللؤلؤ في الأذن عادة فارسية يقول الأعشى [٤] :

---

(١) أحمد محمد الحوفي، الحياة العربية من الشعر الجاهلي، ص ٣١٤.

(٢) إيران في عهد الساسانيين ، ص ٣٨٨.

(٣) الديوان ، ص٢٥٩ .

(٤) الديوان ، ص ٢٩٣ .

يَطُوفُ بِهَا سَاقٍ عَلَيْنَا مُتَـــوَّمٌ خَفِيفٌ ذَفِيفٌ مَايَزَالُ مُقَـــدَّمَا (١)

ويقولُ (٢) :

وَتَظَلُّ تَجْرِي بَيْنَنَـــــا وَمُفَدَّمٌ يَسْـــقِي بِـــهَا

هَزِجٌ عَلَيْـــهِ التُّوْمَتَـــا نِ إِذَا نَشَـــاءُ عَدَا بِهَـــا

ويقُوْلُ (٣) :

يَسْعَى بِهَا ذُو زُجَاجَاتٍ لَهُ نُطَفٌ مُقَلَّصٌ أَسْفَلَ السِّرْبَالِ مُعْتَمِـــلُ

ويقـولُ :

وَذُو تَوْمَتَيْنِ وَقَاقُـــــزَةٌ يَعْلُ وَيُسْـــرِعُ تَكْـــرَارَهَا (٤)

ب : الخمار :

وَمِنَ الشخْصيّات التي يصوِّرُها الأعشى حيثُ يستذكرها في مجلسِ الشراب الخمارُ الفارسيُّ يقـول (٥):

فَبِتُّ كَأَنِّي شَارِبٌ بَعْدَ هَجْعَةٍ سَخَامِيَّةً حَمْرَاءَ تَحْسَبُ عَنْدَمَـــا (٦)

إِذَا بُزِلَتْ مِنْ دَنِّهَا فَاحَ رِيْحُهَا وَقَدْ أُخْرِجَتْ مِنْ أَسْوَدِ الجَوْفِ أَدْهَمَا (٧)

لَهَا حَارِسٌ مَا يَبْرَحُ الدَّهْرَ بَيْتَهَا إِذَا ذُبِحَتْ صَلَّى عَلَيْهَا وَزَمْزَمَا (٨)

بِبَابِلَ لَمْ تُعْصَرْ فَجَاءَتْ سُلَافَةً تُخَالِطُ قِنْدِيْداً وَمِسْكاً مُخَتَّمَـــا (٩)

فَهَذِهِ الخمرة خُلاصَة خمرِ بابلَ ، قد مُزِجت بعطر فارسي ومسكٍ نقي ، فصانعها خمارٌ فارسيٌّ يزمزم عليها حينما تُسال من دَنِّها ، والزمزمة عادة فارِسيّة يقوم بها المجوسُ عند الأكل والشرب فلا يفهم ما يقولون.

---

(١) المتوّم : الذي يضع في أذنيه تُومتين ، والتومة : اللؤلؤة . والذفيف : السريع .

(٢) الديوان ، ص٢٥٥.

(٣) الديوان ، ص٥٩.

(٤) الديوان، ص ٣١٩. والقاقُزة : إناء من آنية الشراب يشرب به الفرس.

(٥) الديوان ، ص ٢٩٣.

(٦)السَّخَامِيَّة : الخمر السلسيّة اللينة . العندم : الشجرُ الأحمر .

(٧) بُزِلَ الخمر : ثقبَ إناءها بالمِبزل . أسودُ الجَوْف : الدَّنُّ . الأدْهَم : الأسود.

(٨) ذُبِحَتْ : أي ثُقِبَ إناؤها فسالت منه كما يسيلُ دمُ الذبيح . وزمزم العلوج : تراطنوا عند الأكل وهم صموت لا يستعملون اللّسان ولا الشفة في كلامهم .

(٩) القِنْدِيْدُ : عسلُ قصب السكر ، والقِنْديد كذلك العنبرُ والكافور.

٥. الآلاتُ الموسيقيةُ :

من آثار الحضارة الفارسية في شعر الأعْشَى أسماء الآلآت الموسيقية، وقدْ وردت بألفاظها الفارسيّة ومن هَذِهِ الآلآت :

الطُّنْبُورُ والصَّنْجُ والونُّ والمُسْتَق سِنِيْن والبُرْبُط ، وهي آلآتٌ كانت تُستَخْدَمُ عند الفرس« فكان غناؤهم بالعيدان والصُّنوج، ولهم النغم والإيقاعات والمقاطع»[1] وَذكرَ خُوْش آرزو في النصِّ البلهلوي عدداً كبيراً من آلات الموسيقى من بينها :« العُوْدُ الهنْديُّ (وين) والعود المتداول المسمّى (دار) ، والبربط (بربوذ) والجنكَك ، والطمبور والسنطور (كنار) والناي والقرنى (مار) ، والطّبلُ الصغير (دُمْبَلكك) والصَّنْجُ »[2].

وَلسَوْء الحظِ أنّ الأعْشى لم يشرْ إلى العازفينَ على هذه الآلآتِ الفارسيةِ ، وأصول الموسيقى المعزوفة، والأغاني التي تُرافِقُ هذه الألحان ، وتبقى هذه الآلآت مَظْهَراً من مظاهر الحضارةِ الفارسيةِ.

٦. من الرياحين :

ويلمسُ في شعرِ الأعشى بعضُ أنواع الرياحين ، والورود بأسمائها الفارسية التي تنثر في مجالس الشراب ، ومنها ما ذكره في قوله [3] :

لَنا جُلَّسَانٌ عِنْدَهَا وَبَنَفْسَجٌ ... وَسِيْسِنبَرٌ والمرْزَجُوْشُ مُنَمْنَمَا

وآسٌ وَخِيْرِيٌّ ومَرْوٌ وَسَوْسَنٌ ... إذا كانَ هِنْزَمْنٌ وَرُحْتُ مُخَشَّمَا[4]

وَشَاهَسْفَرِمْ وَالياسَمِيْنُ وَنَرْجِسٌ ... يُصَبِّحُنَا في كُلِّ دَجْنٍ تَغَيَّمَا[5]

---

(١) إيران في عهد الساسانيين ، ص ٤٦٦.

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٦٤.

(٣) الديوان ، ص ٢٩٣، وانظر : ص ٣٥٧، حيث ورد اسم الشاهسفرن.

(٤) الهنزمن : عيد من أعيادِ النّصارى . وخَشّمَه الشراب : تَوّرت رائحته في خَيْشُوْمِهِ فاسكرته .

(٥) الدّجْنُ : أنْ يسدَّ الغيمُ أقطارَ السّماءِ.

٧. بيان إحصائي للألفاظ الفارسية في شعر الأعشى

بَعْدَ استقراءِ لشعرِ الأعْشَى ، وإحصاء الألفاظ الفارسية فيه معتمداً في ذلك كتابَ المعربِ للجواليقي، وكتبَ المعجماتِ سأعرضُ بياناً إحصائياً لهذهِ الألفاظ مرتّبةً حسب الحروف الهجائيةِ ، وحسب الموضوعات :

الأعلام

خُسْرُوَان ص ٣٥٩

سَاسَا ٢١٧

شَاهْبُوْر ٤٣

شَهْنشَاه ٢١٧

كِسْرَى ٢١٧، ١٢٩، ٣١١

كَابُلْ ٣٤٧

الهَامَرْز ٢٥٩، ٢٦١، ٣٠١

٣٠٣

الرّياحين

الآس ٢٩٣

بَنَفْسَج ٢٩٣

جُلَّسَان ٢٩٣

الخِيريّ ٢٩٣

سِيْسِنْبَرْ ٢٩٣

شَاهِسْفَرَم ٢٩٣

آلات موسيقية

البَرْبَط ٢٩٣، ٣١٩

الزِّيْر ٢٤٣

الصَّنْج ٥٩، ١٧٣، ٢٩٣، ٣١٩، ٣٥٩

الطُّنْبُوْر ٣٥٩

مُسْتَق سِيْنِيْن ٣٥٣

الوَنّ ٢٩٣، ٣٥٩

أواني الخمر

إبْرِيْق ٢٤١، ٢٨٩، ٢٩٣

البَاطِيَة ٢٤١

تَامُوْرَة ٢٥٥

الدَّيْسَق ٢١١

الرَّاووق ٥٩

الطَّهْرَجَارَه ١٥٥

قَاقُزَة ٣١٩

المكاكِيْك ٢٤٣

الشَّاهِسْفَرِن ٣٥٧
المرْو ٢٩٣
المرْزَجُوْش ٢٩٣
النَّرْجِس ٢٩٣
الياسمِيْن ٢٩٣

أصحاب المِهن

البُوْصي ١٤١
الدِّهْقَان ٣٥٩
السُّمْسَار ٣١٩
الفيتق ٢٢٣

العطور

القِنْدِيد ٢٩٣
المِسْك ٢١٩، ٢٩٣، ٣٥٧، ٣٦١
المَلاب ٢٥٥، ٢٨٧

الحلي

الزَّبَرْجَد ٩٥
اللؤلؤ ٣٩، ٤٥
يارِقِيْن ٩٥
الياقُوت ٩٥، ١٠٧

الثياب

البَاغِز ٣١٣
التَّبابِيْن ١٩١
الجُدَاد ٧١
الدِّمَقْس ٢٠١، ٣٥٥، ٣٥٩
الدِّيَابُوذ ٢٩٥
الدِّيَاج ١٠٧
الشَّيْدَارة ٣٥٥

النباتات

البُسْتان ٩
البقَّم ٢٩٣
الزَّنْجَبِيْل ٩٣، ٢٧٧
الفَصَافِص ١٥١
الكافُور ٣٦٥

أصباغ

الأَرْجُوَان ٣١٣
الجِرْيال ٢٧، ١٤٩، ١٦٣

أبنيـــة

الإيْوان	١٨٧
الخَنْدَق	٢١٩
الخَوَرْنَق	٢١٧

موضوعات أخرى

إستَار	٣١٨
الجُؤذُر	٧٣
الخِيْم	٢١٣
الدَّخارِص	١٥١
دِشْت	٢٣٧
سَنَابِك	٣٩، ١٣١
المَهَارِق	٢٢٩

الخاتمة

بيّنت الدراسةُ أنَّ مفهومَ القومِ في معاجمِ اللغةِ يُطلقُ على الرجالِ دونَ النساءِ، ويطلقُ أيضاً على الرجالِ والنساءِ معاً، وكان ثمةَ رأيٌ لأبي علي القالي يذهبُ فيهِ إلى أنَّ القوم تطلقُ على الأجناسِ كالعربِ والرومِ والهندِ والزّنجِ أو نحوٍ من ذلك ، وحينما وقفتُ على مفهومِ القومِ في الشّعرِ الجاهليِّ وجدتُ أنّ دلالاتِ القومِ فيهِ تطلقُ على الرِّجالِ عامةً، ورجالِ القبيلةِ خاصةً، والأعيانِ ، والصحب ، والجنسِ ، و الحيوانِ وسميتُ هذهِ الدلالةَ دلالةً خاصةً ،ورأتِ الدراسةُ أنَّ دلالةَ القومِ على الرجالِ والنساءِ جاءتْ مُتَّفِقَةً والتطورَ التاريخيَّ واللغويَّ للألفاظِ فهذهِ الدلالةُ مِنَ المعاني التي وردتْ في القرآن الكريمِ، فلم نجدْ شاهداً واحداً من الشعر الجاهليِّ يطلقُ مفهومَ القومِ على الرجالِ والنساءِ معاً .

ورأتِ الدراسةُ بعد أنْ تتبعت اشتقاقاتِ لفظِ (ق و م) في معاجمِ اللغةِ ودلالاتها في الشعرِ الجاهليِّ أنّ الدلالةَ العامةَ للفظ (ق وم) هي : القوّةُ والعزمُ ، ومن الدلالاتِ التي نجدُها في معاجمِ اللغة والشعر الجاهليِّ، للقومِ ، الجنسُ ، وهذا ما يشفعُ لي أنْ أعُدَّ الفرسَ والرومَ والأنباط والأحباش و الهنود أقواماً ، فكان مفهومُ القومِ الأكثرَ تعبيراً عن هؤلاءِ الأجناسِ ، ولأنّهُ لم يردْ في الشعرِ الجاهليِّ مصطلحاتٌ تعبرُ عن هذه الأقوام كأمةٍ أو جنس ، ينضاف إلى ذلك أنّنا لا نستطيعُ أن نطلق على بعضِ هذه الأقوامِ أمةً كالأنباط مثلاً.

وكانتْ سُبُلُ الاتصالِ بين العربِ والفرسِ قويةً ووثيقةً ، تمثلتْ مظاهرُها في العلاقاتِ السلميةِ المختلفةِ حيناً وفي العلاقاتِ العدائيةِ حيناً آخرَ ، وكان الذي يحكمُ هذين النوعينِ من العلاقاتِ المنافعُ الخاصةُ.

وأكدَتِ الدراسةُ أنَّ أسماءَ الفرسِ والعَجَمِ وبني الأحرارِ هي أسماء أطلقها الشعرُ الجاهليُّ على الفرسِ ، وكان لاتصال العربِ بالفرسِ أثرٌ في انتشارِ المجوسيَّةِ ديانة الفرسِ في بلادِ العربِ، ومنْ مظاهرِ هذهِ الديانةِ عبادةُ النّارِ ، والصلاةُ إليها ، ويبينُ لنا الشعرُ الجاهليُّ أن نارَ المجوسِ كانتْ عظيمةً تستعرُ استعاراً.

وأظهرتِ الدراسةُ أنَّ ملوكَ الفرسِ وهم الأكاسرةُ كانوا يحرصونَ على لبسِ التّاجِ وامتلاكِ الأموال، ومن العاداتِ التي نلمسُها في البلاطِ الكسرويِّ قتلُ الملوكِ الذي ينفذهُ أبناؤهُم ليتولّى أحدُهم الملك، وأكدَتِ الدراسة أنّ صراعَ الأكاسرةِ مع الموتِ ومن ثمَّ انهزامهم أمامَهُ كانَ وسيلةً لجأ إليها الشعراءُ كي يتعظَ الإنسانُ ويؤمنَ بقدريّةِ الموتِ وغلبته.

وكانت صورةُ المرْزُبانِ الفارسيِّ في الشعرِ الجاهليِّ قائداً خرج لتوّه من المعركة، ويُعَدُّ العزيزُ الفارسيُّ من أشرافِ الفرس ، وتدلُّ صورتُه على الرفعةِ وهو رجلٌ موسر يبني القُصُورَ المعلّقةَ.

وبينتِ الدراسةُ أيامَ العربِ مع الفرسَ، ومن أشهرها محاصرةُ الفرس لمدينةِ الحَضْرِ العربية، وكانَ احتلالُ الفرسِ للحَضْرِ حلقةً من حلقاتِ الحملاتِ العسكريةِ الفارسيةِ ضد العرب . وكانت قبيلةُ إيادٍ تقارعُ الأعاجمَ في أطرافِ الدولةِ الفارسيةِ ، ولم تكن تلك الغاراتُ مواجهاتٍ عسكريةً بينها وبين الجيشِ الفارسيِّ.

ومنْ أشهرِ الأيامِ بين بني شيبان والفرسِ يومُ ذي قار ، فقدْ تلاقي الجمعانِ على أرضِ ذي قار وكانَ مِنْ نتائج الموقعة قتلُ الهَامَرزِ قائدِ الفرسِ، وموتُ عددٍ كبيرٍ مِنْ جيشهِ وأسرُ عددٍ آخرَ ، وسبيُ نساءِ الفرسِ ، كما أنَّ بني شيبان رفضوا الصُّلْحَ مع الفرسِ.

واشتهرَ الفرس بالصناعاتِ المختلفة ، ومنها صناعةُ الأسلحةِ ، والألبسةِ ، والحليِّ ، وآلاتِ الموسيقى ، والخمْرِ والصحائفِ ، وامتازتْ هذهِ الصناعاتُ بالجودةِ ، فكانتْ غاليةَ الثمن.

ورأتِ الدراسةُ أنَّ العلاقاتِ بين عربِ شبهِ الجزيرة العربية والروم كانت أضعفَ من العلاقاتِ بين العربِ والفرسِ ، ويعودُ ذلك إلى بُعدِ العربِ عن القسطنطينية مركزِ الحضارةِ الرومانيةِ ولكون الممالك العربية القائمة على أطرافِ الدولةِ الرومانيةِ تشكل حاجزاً يحولُ بين عربِ شبهِ الجزيرةِ والروم، ينضاف إلى هذين العاملين أنّه كان للعرب علاقاتٌ قويةٌ مع الفرسِ أعداءِ الدولة الرومانية ، وانعكس ذلك على حضورِ الروم في الشعر الجاهليِّ ، فكانَ الشعرُ الذي يتناولُهم قليلاً مقارنةً مع الفرس.

وكلُّ ملكٍ من ملوكِ الروم يُلقَّبُ بقيصرَ ، وكان لقيصرَ في ذاكرةِ العرب مكانةٌ ساميةٌ ، وإذا ذَهبَ بعضُ المعجميين والمؤرخينَ إلى أنَّ اسمَ بني الأصفر يطلقُ على الروم جميعاً فإنَّ ما وصل إلينا مِنْ شعرٍ يطلق هذا الأسمَ على ملوكِ الروم ، ومن مظاهرالحضارة الرومانية، الصِّناعاتُ ومنها صناعةُ التُّرسَةِ ، والمبارد ، والأقفال، ومن المظاهرِ أيضاً فنُّ العمارةِ الذي تفوقوا بهِ على الأقوام الأخرى .

وفي الحديث عن الأنباط كشفتِ الدراسةُ عن نسبِهم وموطنِهم ، وهم في النسبِ غيرُ الأنباط العرب الذين سكنوا (بترا)، ورأتِ الدراسةُ أنَّ الأنباطَ كانوا يهتمون بالزراعةِ فأقاموا السدودَ والروافدَ كي يخزنوا المياهَ ويروووا مزارعهَم بواسطة السواقي، ينضافُ إلى ذلك اهتمامُهم بالتجارةِ والعمارةِ.

وبينت الدراسةُ علاقاتِ العرب مع الأحباش فكانتْ وثيقةً، وجلبَ لونُ الأحباشِ الأسودُ الازدراءَ والقِلى مِنْ قِبَلِ العربِ فاتخذهم سادةُ العربِ عبيداً يوكلون إليهم أقْسى الأعْمالِ .

ومن صورِ الأحباشِ تشبيهُ زقاقِ الخمرِ والظلمانِ والجنِّ بهم ، وامتاز الأحباش بالدقَّةِ والخفةِ ولهذا اتقنوا فنَّ التسديد بالحرابِ، وصورةُ الحبشياتِ توحي بأوصافٍ لا تتفقُ ومظاهرَ الجمالِ التي ينشدُها العربيُّ ، فكان وجهُ المرأةِ الحبشية أسودَ ليس فيه من البياض إلا أسنانُها ، وشعرها كحَبِّ الفُلفُلِ ، وساقها كساقِ النعامةِ .

وتُعَدُّ حملةُ أبرهةَ الأشرم على الكعبةِ حدثاً خطيراً في تاريخ العربِ في العصر الجاهليِّ ، وقسمتِ الدراسةُ الشعرَ المرويَّ عنها إلى ثلاثةِ أقسامٍ ، فثمةَ شعرٌ يصفُ أبرهةَ وجيشَهُ مقبلينَ ومدبرينَ ، أمّا القسمُ الثاني فهو في وصف الفيل الذي جاءَ بهِ الأحباشُ فعصى أصحابَه ولم يبرح مكانهُ ، أما القسمُ الثالثُ فقد أطلقتُ عليه الدعاءَ الشعريَّ أو الشعرَ الدعائيَّ وهو الذي روي عن عبدِ المطلب سيدِ قريش.

وجلُّ الشعرِ الذي روي عن حملةِ الأحباشِ ينسبُ لشعراء مغمورينَ ، فلم أعثر على شعرٍ للفحولِ وأرجعتُ ذلك إلى عواملَ أربعةٍ وهي : إنّ حدوثَ الحملةِ في زمنٍ قصيرٍ لم يتحْ للقبائل العربية المشاركةُ في صدِّ الحملة وبالتالي لم يُتحْ لشعرائها الفخرُ بقبائلهم ، أمّا العامل الثاني فهو: إن القبائلَ العربيةَ المقيمة على جانبي طريقِ الحملةِ لم تقفْ أمام الأحباشِ ، كما أن أهلَ مكةَ لم يظهروا مقاومةً لصدِّ الأحباش، وإذا كان ثمة شعرٌ يقالُ فإنه سيكون هجواً لتلك القبائلِ ولأهلِ مكة ، أمّا العاملُ الثالث فهو: إن جُلَّ فحولِ الشعرِ الجاهليِّ كانوا لا دينيين ، فهم بذلك أكثرُ رفضاً للإيمان بالمعجزة الربانية التي تمثلت في إرسال الطير ، وهم بالتالي أكثر رفضاً لذكر الطير في أشعارِهم ، ورأتِ الدراسةُ أنَّه إذا كانَ ثمةَ شعرٌ يقالُ فإنّه سيكون في هجو أهل مكة والقبائل التي لم تذدْ عنْ الكعبةِ ، وإذا كان كذلك فإنَّ ذلك الشعرَ ضاعَ أو ضُيِّعَ في العصورِ الإسلاميةِ لمكانةِ قريشٍ من الرسولِ الكريمِ والذي يسند هذا الرأي أننا لا نجدُ حديثاً عن حملةِ الأحباش على الكعبةِ في الشعرِ العربيِّ منذ مجيءِ الإسلامِ إلى العصرِ الحديث.

وكانت العلاقاتُ بينَ العرب والهنودِ في العصر الجاهليِّ تجاريةً ، فكانَ التجارُ الهنودُ يفدون إلى السواحل العربية حاملينَ إليها المنتوجاتِ الهنديةَ ، كما أنَّ العربَ كانوا يختلفون إلى الهند حاملين منها ما يحتاجهُ العربُ من سِلَعٍ وحاصلاتٍ هنديةٍ، والوسائلُ التي يتمُّ بها نقل تلك التجارةِ كانت السفنَ الهنديةَ والعربيةَ .

ومن صفاتِ الهنودِ القوةُ ، والبأسُ ، وخفةُ الجسمِ ، وضعفُ البنيةِ الجسميةِ ، والمشي حفاةً ، ولهذا امتازوا بالسحر ، والشعوذة ، والغوص.

ومن صناعات الهندِ المشهورةِ عند العرب، الطيوبُ كالقُسطِ ، والرَّنْدِ، والمسكِ ، والبانِ ، والألوي ، واللبنى والكباءِ ، والعَرفِ الهندي، ومن صناعاتهم كذلك التوابل ، وأكدتِ الدراسةُ أنَّ أشهرَ صناعاتِ الهندِ السيوفُ، وهي من أجودِ السيوفِ ، وقد أكثر الشعراءُ من وصفِها ، وإلى جانبِ السيوفِ كانت الرِّماحُ بيد أن ذكرَ الرِّماح ووصفها كان قليلاً .

ونلمسُ في شعرِ الأعشى آثاراً فارسيةً لا نجدُها عندَ غيرهِ من شعراءِ الجاهليةِ ، ومن تلك الآثار أخبارُ الأكاسرةِ ، فيضعهم الأعشى في مكانِهم السياسيِّ والتاريخيِّ ، ونظر إليهم باعتبارهِمْ قادةً سياسيين

وعسكريين . ويبينُ العلاقةَ بين بكر والفرس ، فهي علاقةٌ عدائية لكنّها لم تمنع سيدين من سادةِ بكر من الاتصال بالفرسِ والتقرب إليهم ، ويكشفُ لنا شعرُ الأعشى عن أثرِ الحضارةِ الفارسيةِ في المناذرةِ ، وتجلّى ذلك في اقتباسِ أحدِ أمراءِ الحيرةِ أسلوباً فارسياً في تعذيبِ الأعداءِ ، يتلخصُ في إجبارِ المعذبين بالمشي على حِجارةٍ مُحَمَّاةٍ حتى يتساقطَ لحمُ أقدامهم ، وحينما يمدحُ الأعشى ملوك الحيرةِ يبرزُ ما للوجهِ الفارسيِّ من نفوذٍ .

ومنَ المشاهدِ التي ينقلها الأعْشى عن الحضارةِ الفارسية وصفُ مجالسِ الشراب ، فصوَّر السَّاقي والخمَّارَ الفارسيين ، وآلآت الموسيقى وطائفةً من الرياحينَ وسمّاها باسمائها الفارسيةِ ، وأكدتِ الدراسةُ أنّ الأعشى امتازَ عن غيرهِ مِنْ شعراءِ الجاهليةِ بكثرةِ الألفاظ الفارسيةِ في شعرهِ التي تصل إلى ستٍ وستين كلمةً فارسيةً .

المصادر والمراجع

١. الأبشيهي : شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي (ت ٨٥٠هـ)
المستطرف في كلّ فنٍّ مستظرف
بيروت / دار إحياء التراث العربي

٢. ابن الأثير : أبو الحسن عز الدين علي بن محمد بن الأثير(ت ٦٣٠هـ)
(١) أسد الغابة في معرفة الصحابة
بيروت / إحياء التراث العربي
(٢) الكامل في التاريخ
مصر/ طبعة بولاق

٣. ابن الأثير : مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري (ت ٦٠٦ هـ)
النهاية في غريب الحديث والأثر
تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناجي
القاهرة/ دار إحياء الكتب العربية ١٩٦٣م

٤. إحسان عباس : د. إحسان عباس
تاريخ بلاد الشام من ما قبل الإسلام حتى بداية العصر العباسي
عمان / مطبعة الجامعة الأردنية ١٩٩٠م

٥. أحمد أمين : د. أحمد أمين
فجر الإسلام
القاهرة / مكتبة النهضة المصرية ، ط٨ ، ١٩٦١م

٦. أحمد الحوفي : د. أحمد محمد الحوفي
(١) تيارات ثقافية بين العرب والفرس

القاهرة / دار النهضة ١٩٦٨م

(٢) الحياة العربية من الشعر الجاهلي

القاهرة / مكتبة نهضة مصر ، ط٣، ١٩٥٦م

٧. أحمد الشياب : د. أحمد الشياب

تاريخ الشعر السياسي

مصر / مكتبة النهضة المصرية ،ط٣، ١٩٦٢م.

٨. إدور بروي : إدور بروي

تاريخ الحضارات العام (القرون الوسطى)

بإشراف موريس كورزيه

نقله إلى العربية يوسف أسعد داغر وفريدم داغر

بيروت / منشورات عويدات ،ط١، ١٩٦٥م

٩. أرنست بابلون : أرنست بابلون

الآثار الشرقية

نقله إلى العربية وقدم له مارون عيسى الخوري

طرابلس ، لبنان / دار جرّوس ودار حكمت شريف ١٩٨٧م

١٠. الأزْرَقي : أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد (ت ٢٥٠هـ)

أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار

تحقيق رشدي الصالح ملحس

بيروت / دار الأندلس ١٩٦٩م.

١١. الأسود النهشلي : الأسود بن يعفر النهشلي التميمي (ت ٦٠٠م)

الديوان

صنعه نوري حمودي القيسي

بغداد / وزارة الثقافة والإعلام ١٩٦٨م

١٢. الإصطخري : أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الإصطخري (٣٤٦ هـ)

مسالك الممالك

ازانتشارات كتا بخانة صدر

١٣. الأصفهاني : أبو الفرج، علي بن الحسين بن محمد الأموي (ت ٣٥٦هـ)

الأغاني

بيروت/ دار الثقافة ،ط٢، ١٩٥٧م

١٤. الأصمعي : أبو سعيد عبد الملك بن قريب (ت ٢١٦هـ)

الأصمعيات

تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون

بيروت / ط١، ١٩٥٥م .

١٥. ابن أبي أصيبعة : أبو العباس أحمد بن القاسم السعدي (ت ٦٦٨هـ)

عيون الأنباء في طبقات الأطباء

شرح وتحقيق نزار رضا

بيروت / دار مكتبة الحياة ١٩٦٥م

١٦. الأعشى : أبو بصير ميمون بن قيس (ت ٧هـ)

الديون

شرح وتعليق د. محمد محمد حسين

مصر / مكتبة الآداب ١٩٥٠م

١٧. الأفوه الأودي : صلاءة بن عمرو بن مالك (ت ٥٧٠م)
ديوانه (ضمن مجموعة الطرائف الأدبية)
صححه وخرجه عبد العزيز الميمني
القاهرة / مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٧م .

١٨. امرؤ القيس : امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي (ت٥٤٥ م)
الديوان
تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم
مصر / دار المعارف ١٩٥٨م

١٩. أمية بن أبي الصلت : أمية بن عبد الله بن أبي الصلت الثقفي (ت ٦٢٦م)
الديوان
تحقيق د. عبد الحفيظ السطلي
دمشق ،ط٢ ، ١٩٧٧م.

٢٠. أوس بن حجر : أوس بن حجر بن مالك التميمي (ت ٦٢٠م)
الديوان
تحقيق د. محمد يوسف نجم
بيروت / دار صادر ودار بيروت ١٩٦٠م

٢١.البحتري : أبو عبادة الوليد بن عبيد الطائي (ت ٢٨٤هـ)
حماسة البحتري
ضبطه وعلق عليه كمال مصطفى
مصر / المطبعة الرحمانية ، ط١، ١٩٢٩م .

٢٢. بشربن أبي حازم : بشر بن أبي خازم الأسدي (ت ٩٨ ٥م)
الديوان
تحقيق د. عزة حسن
دمشق / منشورات وزارة الثقافة ،ط٢ (د.ت)

٢٣. بشر بن مروان : بشر بن مروان الأسدي
حرب بني شيبان مع كسرى أنو شروان
تحقيق د. محمد جاسم حمادي
بغداد / الجامعة المستنصرية ١٩٨٧م .

٢٤. بشير يموت : بشير يموت
شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام
بيروت / المكتبة الأهلية ، ط١، ١٩٣٤م .

٢٥. البغدادي : أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ)
تاريخ بغداد
بيروت / دار الفكر

٢٦. البغدادي : عبد القادر بن عمر البغدادي (ت ١٠٩٣ هـ)
خزانة الأدب ولُبّ لسان العرب
تحقيق عبد السلام محمد هارون
مصر / الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط٢، ١٩٦٧م .

٢٧. البكري : أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي (ت ٤٨٧ هـ)
معجم ماستعجم
تحقيق مصطفى السقّا
القاهرة / طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٧م .

٢٨. بروكلمان : كارل بروكلمان
تاريخ الأدب العربي
نقله إلى العربية د. عبد الحليم النجار
مصر / دار المعارف ١٩٥٠م

٢٩. البلاذري : أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت ٢٧٩هـ)
(١) أنساب الأشراف
تحقيق د. إحسان عباس
بيروت / المطبعة الكاثوليكية ١٩٧٩م.
(٢) فتوح البلدان
عني بمراجعته والتعليق عليه رضوان محمد رضوان
بيروت / دار الكتب العلمية ١٩٨٣م

٣٠. بلاشير : ريجيس بلاشير
تاريخ الأدب العربي
تعريب إبراهيم كيلاني
بيروت / دار الفكر.

٣١. تأبط شراً : ثابت بن جابر بن سفيان الفهمي (ت ٥٤٠م)
الديوان
تحقيق علي ذو الفقار شاكر
دار العربي الإسلامي ، ط١، ١٩٨٤م.

٣٢. التبريزي : الإمام الخطيب أبو زكريا يحيى بن علي التبريزي (ت ٥٠٢هـ)
(١) شرح اختيار المفضل الضبي
تحقيق فخر الدين قباوة
بيروت / دار الكتب العلمية ، ط٢، ١٩٨٧م .
(٢) شرح ديوان الحماسة
تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد
القاهرة / مطبعة حجازي .

٣٣. أبو تمام : حبيب بن أوس بن الحارث الطائي (ت ٢٣١هـ)
الوحشيات (الحماسة الصغرى)
علق عليه وحققه عبد العزيز الميمني
مصر / دار المعارف ١٩٦٣م

٣٤. الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)
(١) التاج في اخلاق الملوك
تحقيق أحمد زكي صفوت
القاهرة / المطبعة الأميرية ، ط ١، ١٩١٤م .
(٢) الحيوان
تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون
بيروت / دار إحياء التراث العربي ، ط٣، ١٩٦٩م .
(٣) رسائل الجاحظ
تحقيق عبد السلام محمد هارون
القاهرة / مكتبة الخانجي ١٩٦٤م .

٣٥. جرجي زيدان : جرجي زيدان
العرب قبل الإسلام
مصر / مطبعة الهلال ١٩٠٨م.

٣٦. جميل صليبا : د. جميل صليبا
المعجم الفلسفي
بيروت / دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة ١٩٨٢م .

٣٧. جواد علي : د. جواد علي
المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام
بيروت / دار العلم للملايين ، بغداد / دار النهضة ١٩٦٩م .

٣٨. الجواليقي : أبو منصور موهوب بن أحمد بن محمد الجواليقي (ت ٥٤٠هـ)
المعرَّبُ من كلام الأعجمي على حروف المعجم
تحقيق أحمد محمد شاكر
القاهرة / دار الكتب المصرية

٣٩. جورج حوراني : جورج فضلو حوراني
العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى
ترجمة د. السيد يعقوب بكر
مصر / مكتبة الأنجلو

٤٠. الجوهري : إسماعيل بن حماد الجوهري (ت ١٠٠٣ هـ)
الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية)
تحقيق أحمد عبد الغفور عطار
بيروت / دار العلم للملايين ، ط٣، ١٩٨٤م .

٤١. أبو حاتم الرازي : أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازي (ت ٣٢٢ هـ)
كتاب الزينة في الكلمات الإسلامية العربية
تحقيق حُسين بن فيض الله الهمداني
تقديم د. إبراهيم أنيس
القاهرة / دار الكتاب العربي ، ط٢، ١٩٥٧م.

٤٢. حاتم الضامن : د. حاتم صالح الضامن
عشرة شعراء مقلون
جامعة بغداد / ١٩٩٠م.

٤٣. حاتم الطائي : حاتم الطائي (ت ٦٠٥م)
الديوان
دراسة وتحقيق د. عادل سليمان جمال
القاهرة / مطبعة المدني ١٩٧٥م

٤٤. الحادرة : قطبة بن أوس بن محصن الذبياني
الديوان
تحقيق د. ناصر الدين الأسد
بيروت / دار صادر ١٩٧٣م .

٤٥. الحارث بن حلزة : الحارث بن حلزة اليشكري (ت ٥٨٠م)
الديوان
تحقيق هاشم الطعان
بغداد / مطبعة الإرشاد (د.ت) .

٤٦. ابن حبيب : محمد بن حبيب بن أمية البغدادي (ت ٢٤٥ هـ)
(١) المحبر
اعتنت بتصحيحه د. إيلزة ليختن
حيد أباد / مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية ١٩٤٢م.
(٢) المنمق في أخبار قريش
عني بتصحيحه والتعليق عليه خورشيد أحمد فاروق
حيدر أباد/ مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، ط١، ١٩٦٥م .

٤٧. ابن حجر العسقلاني : أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)
(١) الإصابة في تميز الصحابة
مصر / مطبعة السعادة ، ط١، ١٣٢٨هـ
(٢) فتح الباري
بيروت / دار إحياء التراث العربي ١٩٨٨م .

٤٨. ابن حزم : علي بن أحمد بن سعيد بن حزم (ت ٤٥٦هـ)
جمهرة أنساب العرب
راجع النسخة وضبط أعلامها لجنة من العلماء
بيروت / دار الكتبِ العلمية ، ط١، ١٩٨٣م.

٤٩. حسان بن ثابت : حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي (ت٥٤هـ)
الديوان
تحقيق عبد الرحمن البرقوقي
بيروت / دار الكتاب العربي ١٩٨١م.

٥٠. حسين عطوان : د. حسين عطوان
وصف البحر والنهر في الشعر العربي من العصر الجاهلي إلى العصر العباسي الثاني
عمان ١٩٧٥م .

٥١. الحطيئة : أبو مليكة جرول بن أوس بن جُؤيَّة (ت ٦٦٥م)
الديوان
تحقيق نعمان أمين طه
مصر / مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، ط١، ١٩٥٨م.

٥٢. الحلي : أبو البقاء هبة الله بن نما (ت ٥٥٠ هـ)
المناقب المزيدية في أخبار الملوك الأسدية
تحقيق د. صالح درادكة ، د. محمد خريسات
عمان / مكتبة الرسالة الحديثة ١٩٨٤م .

٥٣. حمزة الأصفهاني : حمزة بن الحسن الأصفهاني (ت ٣٦٠هـ)
تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء
بيروت / دار مكتبة الحياة ، ط٣، ١٩٦١م.

٥٤. حمزة فتح الله : حمزة فتح الله
المواهب الفتحية في علوم اللغة العربية
مصر / المطبعة الأميرية ، ط١، ١٣١٢هـ .

٥٥. الحميري : نشوان بن سعيد الحميري (ت ٥٧٣هـ)
القصيدة النشوانية
تحقيق السيد علي بن إسماعيل المؤيد وإسماعيل بن أحمد الجرافي .

٥٦. أبو حيان التوحيدي : الإمتاع والمؤانسة
تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين
بيروت ، صيدا / المكتبة العصرية

٥٧. الخالديان : أبو بكر محمد بن هشام (ت ٣٨٠هـ) وأبو عثمان سعيد بن هشام (ت ٣٧١هـ)
الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين (المعروف بحماسة الخالديين)
حققه د. السيد محمد يوسف
القاهرة / مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٥م.

٥٨. الخرنق : الخرنق بنت بدر بن هفان (ت ٥٧٠م)
الديوان
تحقيق د. يُسري عبد الغني عبد الله .
بيروت / دار الكتب العلمية ،ط١، ١٩٩٠م

٥٩. الخفاجي : شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي (ت١٠٦٩ هـ)
ريحانة الألبّا وزهرة الحياة الدنيا
تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو
مصر / مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركائه ،ط١، ١٩٦٧م .

٦٠. خفاف بن نُدْبة : خفاف بن عمير بن الحارث بن الشريد السُّلمي (ت ٦٤٠م)
شعره
جمع وتحقيق د. نوري حمودي القيسي
بغداد / مطبعة المعارف ١٩٦٧م.

٦١. ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (ت٨٠٨ هـ)
(١) تاريخ ابن خلدون
بيروت / دار الكتاب اللبناني ١٩٥٦م
(٢) المقدمة
بيروت / دار إحياء التراث العربي

٦٢. الخليل بن أحمد : أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ)
كتاب العين
تحقيق د. مهدي المخزومي ، د. إبراهيم السامرائي
بغداد / دار الرشيد للنشر ١٩٨٢م.

٦٣. الخنساء : تماضر بنت عمرو (ت ٢٤هـ)
الديوان
تحقيق أنور أبو سويلم
جامعة مؤتة / دار عمار ،ط١، ١٩٨٨م.

٦٤. ابن دريد : محمد بن الحسن بن دريد الأزدي البصري (٣٢١هـ)
جمهرة اللغة
حيدر أباد / مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، ط١، ١٩٤٥م.

٦٥. أبو دؤاد الإيادي : جارية بن الحجاج الإيادي
ديوانه (ضمن دراسات في الأدب العربي لغوستاف فون غرنباوم ، ترجمة إحسان عباس وزملائه) .
بيروت / منشورات دار مكتبة الحياة ١٩٥٩م.

٦٦. الدينوري : أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري (ت ٢٨٢ هـ)
الأخبار الطوال
تحقيق عبد المنعم عامر، د. جمال الدين الشيال
القاهرة / دار إحياء الكتب العربية ، ط١، ١٩٦٠م.

٦٧. أبو زبيد الطائي : حرملة بن المنذر (ت ٦٢ هـ)
شعره
جمع وتحقيق د. نوري حمودي القيسي
بغداد / مطبعة دار المعارف ١٩٦٧م.

٦٨. الزبيدي : محمد بن محمد بن الحسين الزبيدي (ت ١٢٠٥هـ)
تاج العروس
بنغازي / دار ليبيا للنشر والتوزيع .

٦٩. الزمخشري : جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)
(١) أساس البلاغة
بيروت / دار صادر ١٩٧٩م
(٢) أعجب العجب في شرح لامية العرب
القسطنطينية / مطبعة الجوائب، ط١، ١٣٠٠هـ.
(٣) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل
تحقيق مصطفى حسين أحمد
بيروت / دار الكتاب العربي ١٩٨٦م.

٧٠. زهير بن أبي سلمى : زهير بن أبي سلمى المزني (ت ١٣ ق.هـ)
شرح الديوان
صنعة الإمام ثعلب أحمد بن يحيى الشيباني (ت ٢٩١هـ)
القاهرة / الدار القومية ١٩٦٤م.

٧١. الزوزني : أبو عبد الله الحسين بن أحمد (ت ٤٨٦ هـ)
شرح المعلقات السبع
بيروت / دار بيروت ودار صادر ١٩٥٨م.

٧٢. أبو زيد القرشي : أبو محمد بن أبي الخطاب القرشي (متوفى في بداية القرن الرابع الهجري)
جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام
تحقيق علي محمد البجاوي

٧٣. سامي الأحمد : د. سامي سعيد الأحمد
تاريخ الخليج العربي من أقدم الأزمنة حتى التحرير العربي
جامعة البصرة / منشورات مركز دراسات الخليج العربي ١٩٨٥م.

٧٤. سحيم عبد بني الحسحاس : سحيم عبد بني الحسحاس (ت نحو ٤٠هـ)
الديوان
تحقيق عبدالعزيز الميمني
القاهرة / دار الكتب المصرية ١٩٥٠م .

٧٥. ابن سعد : أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع البصري (ت ٢٣٠ هـ)
الطبقات الكبرى
تحقيق د.إحسان عباس
بيروت / دار بيروت ودار صادر ١٩٥٨

٧٦. سعيد الأفغاني : سعيد الأفغاني
أسواق العرب في الجاهلية والإسلام
دمشق / المطبعة الهاشمية ١٩٣٧م.

٧٧. ابن سعيد الأندلسي : أبو الحسن علي بن موسى بن محمد بن سعيد (ت ٦٩٥هـ)
نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب
تحقيق د. نصرت عبد الرحمن
عمان / مكتبة الأقصى ، ط١، ١٩٨٢م.

٧٨. سلامة بن جندل : سلامة بن جندل بن عبد عمرو بن عبيد التميمي (ت ٢٣هـ)
الديوان
تحقيق فخر الدين قباوة
حلب / المكتبة العلمية ،ط١، ١٩٦٨م.

٧٩. ابن سلام الجمحي : أبو عبد الله محمد بن سلام الجمحي (ت ٢٣١هـ)
طبقات فحول الشعراء
قرأه وشرحه محمود محمد شاكر
القاهرة/ طبع بمطبعة المدني العربي ١٩٧٤م.

٨٠. السمعاني : الإمام أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني (ت ٥٦٢هـ)
الأنساب
تحقيق الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي
بيروت / الناشر محمد أمين ، ط١، ١٩٨٠م.

٨١. السموأل : السموأل بن عاديا
شعره
جمعه عيسى سابا
بيروت / مكتبة صادر ١٩٥١م.

٨٢. السويدي : أبو الفوز محمد أمين الشهير بالسويدي (ت ١٨٣٠م)
سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب
بيروت / دار الكتب العلمية ،ط١، ١٩٨٦م

٨٣. ابن سيدة : أبو الحسن علي بن إسماعيل (ت ٤٥٨هـ)
المخصص
تحقيق لجنة إحياء التراث العربي
بيروت / دار الآفاق الجديدة

٨٤. السيد سالم : د. السيد عبد العزيز سالم
تاريخ العرب قبل الإسلام
الإسكندرية / مؤسسة شباب الجامعة .

٨٥. ابن الشجري : أبو السعدات هبة الله بن علي بن حمزة العلوي الحسني (ت ٥٤٣هـ)
(١) الحماسة الشجرية
تحقيق عبد المعين الملوحي وأسماء الحمصي
دمشق / منشورات وزارة الثقافة ١٩٧٠م.
(٢) مختارات ابن الشجري
ضبطها وشرحها محمود حسن زناتي
مصر مطبعة الاعتماد ، ط١ ، ١٩٢٥م .

٨٦. الشريف الإدريسي : محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس (ت ٥٦٠ هـ)
وصف الهند وما يجاورها من البلاد من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق.
جمع السيد مقبول أحمد
الهند/ القسم العربي بالجامعة الهندية ١٩٥٤م .

٨٧. الشُّماخ : الشُّماخ بن ضرار الذبياني (ت٢٢ هـ)
الديوان
تحقيق صلاح الدين الهادي
القاهرة / دار المعارف ١٩٦٨م.

٨٨. الشُّمشاطي : أبو الحسن علي بن محمد بن المطهر العدوي (ت ٣٧٧هـ)
الأنوار ومحاسن الأشعار
تحقيق د. السيد محمد يوسف
الكويت / وزارة الإعلام ١٩٧٧م.

٨٩. شوقي ضيف : د. شوقي ضيف
العصر الجاهلي
مصر / دار المعارف ١٩٦٠م.

٩٠. شيخو : الأب لويس شيخو
شعراء النصرانية قبل الإسلام
بيروت / دار الشرق ، ط٣، ١٩٦٧م.

٩١. صاعد الأندلسي : أبو القاسم صاعد الأندلسي (ت ٤٦٢ هـ)
طبقات الأمم
تحقيق السيد محمد بحر العلوم
النجف / منشورات المكتبة الحيدرية ١٩٦٧م.

٩٢. صدر الدين البصري : صدر الدين علي بن أبي الفرج بن الحسين البصري (٦٥٩ هـ)
الحماسة البصرية
تحقيق مختار الدين أحمد
الهند ، حيد أباد / دائرة المعارف العثمانية ١٩٦٤م.

٩٣. الصغاني : الإمام رضي الدين الحسن بن محمد الصغاني (ت ٦٥٠ هـ)
العُباب الزّاخر واللباب الفاخر
تحقيق ڤير محمد حسن
العراق / مطبعة المجمع العلمي العراقي ، ط١، ١٩٧٨م.

٩٤. الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)
(١) تاريخ الرسل والملوك
تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم
بيروت / دار سويدان ١٩٦٧م.
(٢) جامع البيان في تفسير القرآن
مصر / المطبعة الأميرية ببولاق ١٣٢٣هـ

٩٥. طرفة بن العبد : طرفة بن العبد بن سفيان البكري (ت ٥٦٤م)
الديوان
تحقيق دريّة الخطيب ولطفي الصقال
دمشق / مطبوعات مجمع اللغة العربية ١٩٧٥م.

٩٦. الطفيل الغنوي : طفيل بن عوف الغنوي (ت ٦١٠م)
الديوان
تحقيق محمد عبد القادر أحمد
بيروت / دار الكتاب الجديد ، ط١، ١٩٦٨م.

٩٧. طه حسين : د. طه حسين
في الأدب الجاهلي
مصر / دار المعارف ، ط٢، ١٩٢٧م.

٩٨. عامر بن الطفيل : عامر بن الطفيل بن مالك العامري (ت ١٠ هـ)
الديوان
تحقيق كرم البستاني
بيروت / دار صادر ودار بيروت ١٩٦٣م.

٩٩. عباس بن مرداس : عباس بن مرداس السُّلمي (ت ١٨هـ)
الديوان
جمع وتحقيق د. يحيى الجبوري
بغداد / دار الجمهورية

١٠٠. عبدة بين الطبيب : عَبْدَةُ بن يزيد بن عمرو التميمي (ت ٢٥هـ)
شعره
جمعه د. يحيى الجبوري
بغداد / دار التربية ١٩٧١م.

١٠١. ابن عبد ربّه : احمد بن محمد بن عبد ربه (ت ٣٢٨هـ)
العقد الفريد
تحقيق محمد سعيد العريان
بيروت / دار الفكر ١٩٤٠م.

١٠٢. عبد الله المجذوب : عبد الله الطيب المجذوب
المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها
مصر / شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، ط١، ١٩٥٥م.

١٠٣. عبد المجيد عابدين : د. عبد المجيد عابدين
بين الحبشة والعرب
بيروت /دار الفكر العربي

١٠٤. عبد المنعم الحفني : د. عبد المنعم الحفني
الموسوعة الفلسفية
بيروت / دار ابن زيدون ، القاهرة / مكتبة مدبولي ، ط١ (د.ت)

١٠٥. عبد المنعم النمر : د. عبد المنعم النمر
تاريخ الإسلام في الهند
بيروت / المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ،ط١، ١٩٨١م.

١٠٦. عبد الوهاب عزام : د. عبد الوهاب عزام
الصلات بين العرب والفرس وآدابهما في الجاهليةوالإسلام ضمن كتاب
(نواح مجدية من الثقافة الإسلامية)
هدية المقتطف السنوية ١٩٣٨م.

١٠٧. عبيد بن الأبرص : عبيد بن الأبرص بن عوف بن جشم الأسدي (ت ٦٠٠م)
الديوان
تحقيق وشرح د. حسين نصار
مصر / مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط١، ١٩٧٩م.

١٠٨. عدي العبادي : عدي بن زيد العبادي (ت نحو ٥٩٠م)
الديوان
تحقيق محمد جبّار المعيبد
بغداد / دار الجمهورةي ١٩٦٥م.

١٠٩. عروة بن الورد : عروة بن الورد العبسي
الديوان
تحقيق عبد المعين الملوحي
دمشق / مديرية إحياء التراث القديم (د.ت)

١١٠. العقاد : عباس محمود العقاد
داعي السماء بلال بن رباح
مصر / دار سعد ١٩٤٥م.

١١١. العكبري : أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري (٦١٦ هـ)
شرح لآمية العرب
تحقيق د. محمد خير الحلواني
بيروت/ دار الآفاق الجديدة، ط١، ١٩٨٣م.

١١٢. علقمة الفحل : علقمة بن عَبَدة بن ناشرة بن قيس التميمي (ت ٦٠٣م)
الديوان
تحقيق لطفي الصقال ودرية الخطيب
حلب / دار الكتابِ العربي ، ط١، ١٩٦٩م.

١١٣. علي وافي : د. علي عبد الواحد وافي
فقه اللغة
مصر / دار النهضة ١٩٤٥م.

١١٤. عمر كحالة : عمر رضا كحالة
معجم قبائل العرب القديمة والحديثة
دمشق / المطبعة الهاشمية ١٩٤٩م .

١١٥. عمرو بن شأس : عمرو بن شأس الأسدي (ت ٦٤٠ م)
شعره
جمعه د. يحيى الجبوري
النجف / مطبعة الآداب (د.ت)

١١٦. عمرو بن قميئة : عمرو بن قميئة بن ذريح البكري (ت ٥٤٠م)
الديوان
تحقيق حسن كامل الصيرفي
مصر / معهد المخطوطات العربية ١٩٦٥م.

١١٧. عمرو بن معد يكرب : عمرو بن معد يكرب الزبيدي (ت ٦٤٢ م)
الديوان
تحقيق هاشم الطعان
بغداد ، ١٩٧٠.

١١٨. عنترة : عنترة بن شداد العبسي (ت ٥١٦ م)
(١) الديوان
تحقيق ودراسة محمد سعيد مولوي
بيروت / المكتب الإسلامي ، ط٢، ١٩٨٣م.
(٢) شرح ديوان عنترة
قدم له وعلق عليه : سيف الدين الكاتب وأحمد عصام الكاتب
بيروت / منشورات دار مكتبة الحياة ١٩٨١م.

١١٩. ابن فارس : أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥ هـ)
معجم مقاييس اللغة
تحقيق عبد السلام محمد هارون
بيروت / دار الفكر .

١٢٠. فؤاد سفر : د. فؤاد سفر ومحمد علي مصطفى
الحضر مدينة الشمس
بغداد / وزارة الإعلام ١٩٧٤م .

١٢١. الفيروز آبادي : مجد الدين محمد بن يعقوب (ت ٨١٦هـ)
القاموس المحيط
بيروت / دار الجيل

١٢٢. فيليب حتى : د. فيليب حتى د. ادورد جرجي د. جبرائيل جبور
تاريخ العرب
بيروت / دار الكشاف للنشر ١٩٦١م.

١٢٣. القالي : أبو علي أسماعيل بن القاسم بن عبدون (ت ٣٥٦ هـ)
الأمالي
بيروت / دار الكتب العملية .

١٢٤. ابن قتيبة : أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ)
(١) عيون الأخبار
القاهرة / دار الكتب المصرية ١٩٢٥م.
(٢) المعارف
حققه وقدّم له ثروت عكاشة
مصر / دار الكتب ١٩٦٠م.

١٢٥. القلقشندي : أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي (ت ٨٢١ هـ)
صبح الأعشى في صناعة الإنشا
نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية
القاهرة / المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ١٩٦٣م.

١٢٦. قيس بن الخطيم : قيس بن الخطيم بن عدي الأوسي (ت ٦٢٠ م)
الديوان
تحقيق د.ناصر الدين الأسد
القاهرة/ مطبعة المدني ، ط١ ، ١٩٦٢م

١٢٧. قيس بن زهير : قيس بن زهير بن جذيمة بن رواحة العبسي (ت ٦٣١ م)
شعره
جمعه د. عادل جاسم البياتي
النجف / مطبعة الآداب ١٩٧٢م.

١٢٨. ابن قيم الجوزية : شمس الدين محمد بن أبي بكر بن سعد (ت ٧٥١ هـ)
أخبار النساء
مصر / مطبعة التقدم العلمية ١٣٦٩هـ

١٢٩. ابن كثير : أبو الفداء الحافظ بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤هـ)
البداية والنهاية
تحقيق د. أحمد أبو ملحم ورفاقه
بيروت / دار الكتب العلمية

١٣٠. كري أرثر : كري كريستينس أرثر
إيران في عهد الساسانيين
ترجمة يحيى الخشاب
القاهرة / لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٧م

١٣١. كريمر : فون كريمر
الحضارة الإسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية
تعريب د. مصطفى طه بدر
بيروت / دار الفكر العربي (د.ت)

١٣٢. ابن الكلبي : هشام بن محمد بن السائب الكلبي (ت ٢٠٤ هـ)
كتاب الأصنام
تحقيق أحمد زكي
نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ١٩٢٤م.
القاهرة / الدار القومية للطباعة والنشر .

١٣٣. لبيد العامري : لبيد بن ربيعة العامري (ت ٤١هـ)
شرح الديوان
تحقيق د. إحسان عباس
الكويت / وزارة الإرشاد والأنباء ١٩٦٢م.

١٣٤. لقيط الإيادي : لقيط بن يعمر بن خارجة الإيادي (توفي نحو ٣٨٠م)
الديوان
تحقيق خليل إبراهيم العطية
بغداد / وزارة الإعلام ١٩٦٨م .

١٣٥. لا منس اليسوعي : الأب لامنس اليسوعي
الأحابيش والنظام العسكري في مكة زمن الهجرة
مجلة المشرق / بيروت / كانون الثاني ١٩٣٦/ السنة الرابعة والثلاثون.

١٣٦. لوبون : غوستاف لوبون
حضارة العرب
نقلة إلى العربية عادل زعيتر
القاهرة / دار إحياء التراث العربية ، ط٣، ١٩٥٦م.

١٣٧. ابن ماجه : أبوعبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٥هـ)
سنن ابن ماجة
تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي
بيروت / المكتبة العلمية

١٣٨. ابن المبارك : أبو غالب ميمون محمد بن المبارك (ت ٥٩٧ هـ)
منتهى الطلب من أشعار العرب (مخطوط)
مكتبة الجامعة الأردنية / ميكروفلم رقم ١٠٤٧.

١٣٩. محمد الخضر : محمد الخضر حسين

نقض كتاب في الشعر الجاهلي

القاهرة / المكتبة السلفية ١٩٢٦م.

١٤٠. محمد رشدي : محمد رشدي

مدنية العرب في الجاهلية والإسلام

مصر / مطبعة السعادة ١٩١١م.

١٤١. المرزباني : أبو عبيد الله محمد بن عُمران المرزباني (ت ٣٨٤ هـ)

(١) أشعار النساء

تحقيق د. سامي مكي العاني وهلال ناجي

بغداد / دار الرسالة ١٩٧٦م.

(٢) معجم الشعراء

تحقيق عبد الستار أحمد فرّاج

القاهرة / دار إحياء الكتب العربية ١٩٦٠م.

(٣) المؤتلف والمختلف

تصحيح وتعليق ف .كرنكو .

القاهرة / مكتبة القدسي ١٣٥٤هـ.

١٤٢. مستشرقون : مجموعة من المستشرقين

دائرة المعارف الإسلامية

نقلها إلى العربية أحمد الشنتناوي ، وإبراهيم زكي خورشيد ، عبد الحميد يونس

خوارزم – خوست .

١٤٣. المسعودي : أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي (ت ٣٤٦ هـ)
(١) التنبيه والإشراف
تحقيق عبد الله إسماعيل الصادي
القاهرة / المكتبة التاريخية ١٩٣٨م.
(٢) مروج الذهب ومعادن الجوهر
بيروت / دار الفكر ،ط٥، ١٩٧٣م.

١٤٤. مسكين الدارمي : ربيعة بن عامر بن أنيف الدارمي (ت ٨٩ هـ)
الديوان
جمعه وحققه عبد الله الجبوري وخليل إبراهيم عطية
بغداد / مطبعة دار البصري ، ط١، ١٩٧٠م.

١٤٥. المفضل الضبي : المفضل بن محمد بن يعلى الضبي (ت ١٧٨ هـ)
المفضليات
تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون

١٤٦. ابن مقبل : تميم بن أُبيّ بن مقبل بن عجلان (توفي بعد ٦٥٧م)
الديوان
تحقيق د. عزة حسن
دمشق / مديرية إحياء التراث القديم ١٩٦٢م.

١٤٧. المقريزي : تقي الدين أحمد بن علي المقريزي (ت ٨٤٥ هـ)
السلوك لمعرفة دول الملوك
تحقيق محمد مصطفى زيادة
القاهرة / مطبعة داز الكتب المصرية ١٩٣٤م .

١٤٨. ابن منظور : محمد بن مكرم بن منظور (ت ٧١١ هـ)
لسان العرب
بيروت / دار صادر ودار بيروت ١٩٥٦م.

١٤٩. موسكاتي : سبتينو موسكاتي
الحضارات السامية القديمة
ترجمة د. السيد يعقوب
بيروت / دار الكاتب العربي

١٥٠. الميداني :أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم الميداني (ت ٥١٨ هـ)
تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم
بيروت / دار الجيل ١٩٨٧م.

١٥١. النابغة الذبياني : زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني (ت ٦٠٤م)
الديوان
تحقيق شكري الفيصل
بيروت / دار الفكر ١٩٦٨م.

١٥٢. ابن النديم : أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحاق المعروف بالوراق (ت ٣٨٠ هـ)
الفهرست
تحقيق رضا - تجدّد
طهران / مطبعة دانشكاه ١٩٧١م.

١٥٣. نصرت عبد الرحمن : د. نصرت عبد الرحمن
الصورة الفنيّة في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث
عمان / مكتبة الأقصى ،ط٢. ١٩٨٢م.

١٥٤. النمر بن تولب : النمر بن تولب بن زهير بن أقيش العكلي (ت ١٤هـ)
شعره
صنعه د. نوري حمودي القيسي
بغداد / مطبعة المعارف ١٩٦٨م.

١٥٥. نوري القيسي : د. نوري حمودي القيس ، د. عادل جاسم البياتي ، مصطفى عبد اللطيف
تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام
بغداد / دار الحرية ١٩٧٩م .

١٥٦. نولدكه : ثيو دور نولدكه
أمراء غسان
نقلها إلى العربية د. بندلي جوزي ، د. قسطنطين زريق
بيروت / المطبعة الكاثوليكية ١٩٣٣م .

١٥٧. النويري : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت ٧٣٣هـ)
نهاية الأرب في فنون الأدب
مصر / المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والترجمة والنشر (د.ت)

١٥٨. الهذليون : ديوان الهذليين
القاهرة / الدار القومية ١٩٦٥م.

١٥٩. ابن هشام : أبو محمد عبد الملك بن هشام (ت ٢١٣هـ)
السيرة النبوية
قدم لها وعلق عليها وضبطها طه عبد الرؤوف
بيروت / دار الجيل

١٦٠. الهمداني : لسان اليمن أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت بعد ٣٣٤هـ)
(١) الإكليل
حققه وعلق حواشيه محمد بن علي الأكوع ١٩٦٦م.
(٢) صفة جزيرة العرب
تحقيق محمد بن علي الأكوع
بغداد / دار الشؤون الثقافية ،ط٣، ١٩٨٣م.

١٦١. ياقوت الحموي : الإمام شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٦هـ)

(١) معجم الأدباء

بيروت/ دار إحياء التراث العربي ١٩٧٩م.

(٢) معجم البلدان

بيروت / دار صادر ١٩٥٥م.

١٦٢. يحيى الجبوري : د. يحيى الجبوري

قصائد جاهلية نادرة

بيروت / مؤسسة الرسالة ، ط٢، ١٩٨٨م.

١٦٣. اليغموري : أبو المحاسن يوسف بن أحمد بن محمود اليغموري

نور القبس (المختصر من المقتبس في أخبار النحاة والأدباء والشعراء والعلماء للمرزباني)

تحقيق رودلف زلهايم

فيسبادن / فرانتس شتاينر ١٩٦٤م.

١٦٤. يوسف خليف : د. يوسف خليف

الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي

مصر / دار المعارف ،ط٢، ١٩٦٦م.

المراجع الإنجليزية

1. Nicholson : Nicholson Reynold Alleyne .

A literary History of The Arabs

London / cambridge .U.P 1907 .

2. Oleary : Delacy Oleary

London / Keyan paul Trench Trubner .co. Ltd

New york .E.P. Dutton .co . 1927

Abstract

NON - ARAB NATIONS IN THE POETRY OF THE PRE-ISLAMIC AGE

The research states that the meaning or conception of the kinsfolk in dictionaries is designated to men and not women. It also designates both men and women . Abu Ali Al-Qali has a point of view saying that kinsfolk designates races as the Arabs, Romans , Indians, Negroes and so on. When I apprehended the meaning of kinsfolk in the Poetry of Pre-Islamic Age,I discovered that the meaning of kinsfolk means men in general and men of the tribe in particular, people of distinction and wariors whether they were from the tribe or from the enmey , associates,race and animals. This connotation is called private connotation. The research came to the conclusion that it could be given to men and women and in conformity with the evolution of history, and structure of words.

This connotation as mentioned in the Holy Qur'an. We do not find a proof in the poetry of the Pre - Islamic period that the general meaning of Kinsfolk that stands for (kinsfolk) is a symbol of power, strength and termination. .

The research assures that the names of the persians, non-Arabs and settlers in Al-Ahwar area are names given to Persians by Pre-Islamic poets. Magianism widespread in Arabia was the result of the Arab-Persian contact .

One aspect of this religion is worshiping of fire. The Pre-Islamic Poetry states that the Magianism fire was great and inferno. The research shows the Tzars, kings of Persia, were interested in wearing crowns and possessing (owning) great fortunes. One of the habbits we perceive in the courts of the caesars is the assassination of Tzars by their own sons to accede to the throne . The research assures the Tzars struggle with death and their defeat in this struggle. This was a medium tackled by Pre-Islamic poets to make man take a lesson and believe in the power of death over people.

The Persian Marzapan is depicted in the Pre-Islamic Poretry as a leader who has just come out of the battle field. The Venerated Persian is considered one of their nobles. His figure represents highness, a rich man who erects high palaces.

The Persians were famous for varried industries as weapons, clothing, jewellery, musical instruments, wine and casting. These crafts are of good quality and very expensive.

Every Roman King was named Caesar. Caesar enjoyed a good fame and a sublime position in Arabia. Some historians and lexigraphers named the Romans as Bani Al-Asfar, a name given to every Roman. All the poetry we have a bout that era names the Caesar as one of Bani Al- Asfar, some of the aspects of the Roman industry we mention, are shields craft, files and safes or locks. In the field of architecture , they exceeded other people.

When speaking about the Nabateans, the research disclosed their ancestry and homelands. They are ancestry who do not belong to the Arab Nabateans who settled in Petra. The research concludes that the Nabateans were interested in agriculture. They built dams and tributaries for storing water to irrigate lands by canals. Moreover, they were interested in trade and artichecture.

The research states the Arab-Ethiopians strong relations . Their black colour tempted the Arab masters to appoint them as slaves who performed hard labours.

The Ethiopians were assimilated as always of wine, darkness and jinn. The Ethiopians were well know as tacticals and agile, therefore, they mastered the art of using lances. The images of the female Ethiopeans inspires descriptions that do not conform with the beautiful aspects which Arab was interested in . The female's Ethiopian face was completely black except her teeth, her hair was like pepper seads and her thighs were like that of the ostrich.

The Indians are characterised by their might, strong power, agility weakness of their physics , and walking bare- footed. For this reason they were well-known for the (black - art) magic, jugglery and diving .

The most important Indian industries that attracted the Arabs were: perfumes as, Qisr , Rind, Musk , Chewing Gum, Dried Limon, Malacostraca, Kibaa, Indian Mu'arraf as well as spices. The research assures that the most important Indian industry was the industry of swords which was frequently mentioned in the poetry of that epoch.

In addition to swords, there were also the javelins which were rarely mentioned or described.

٤١٦٤٠١